المختصرات التراثية

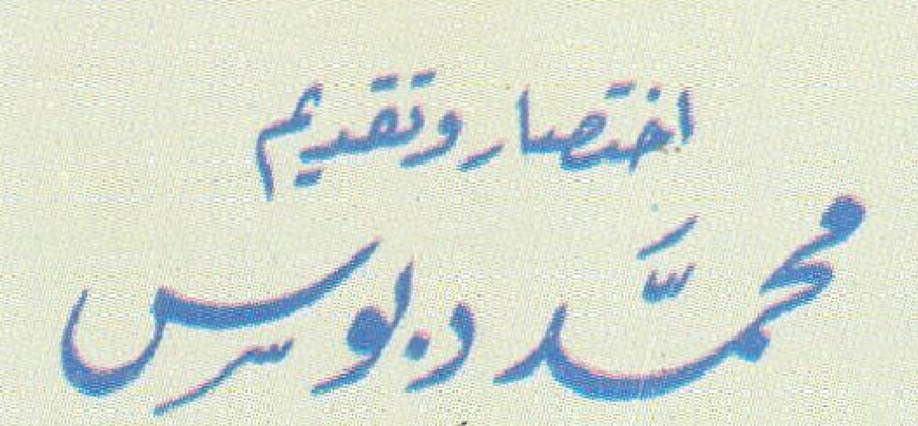
الكامل في التاريخ

أبن الأثير الجزري

الكامل في التاريخ

الجزء الثاني

اختصار وتقديم

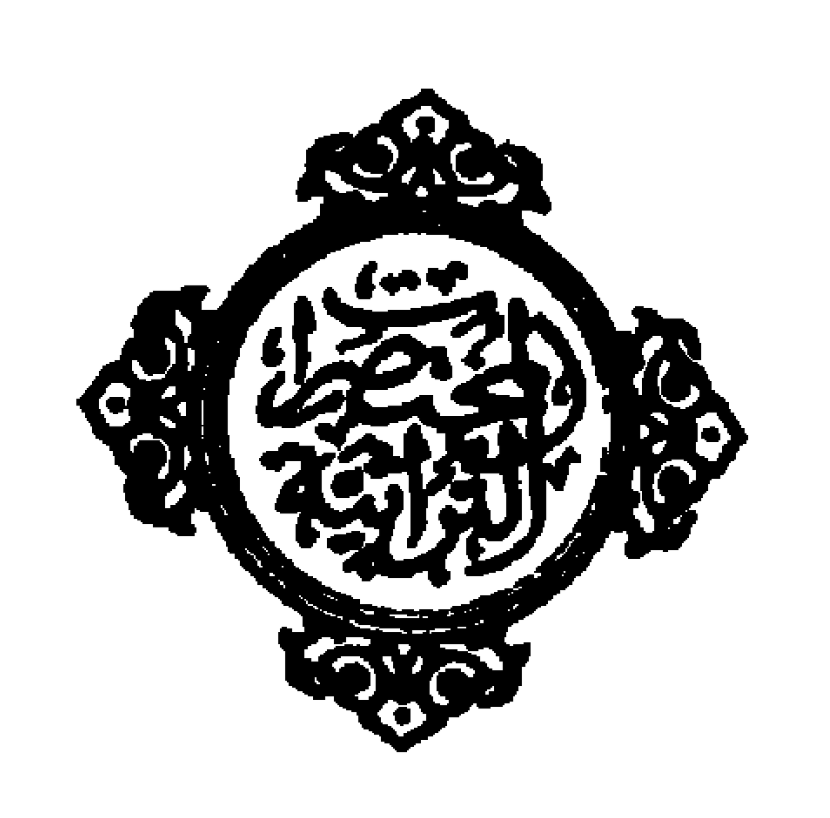




ابن الأثير، على بن عبد الكريم الشيبانى الجزرى ،
١١٦٠ ـ ١٢٣٣
الكامل فى التاريخ / لابن الأثير الجزرى؛
اختصار وتقديم : محمد دبوس. ـ القاهرة: الهيئة
المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٦.
٢٤ ص ؛ ٢٤ سم.
تدمك ٢ ٣٨٢ ٤١٩ ٩٧٧
١ ـ التاريخ
(أ) دبوس ، محمد (مختصر ومقدم)
(ب) العنوان :
رقم الإيداع بدار الكتب ١٧٨٢١/ ٢٠٠٦

I.S.B.N 977 - 419 - 382 - 2

ديوى ٩٠٧,٢



الكامل في التاريخ

ابن الأثير الجزرى

الجزء الثانى

اختصار وتقديم

محمد دبوس



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠٦



- الكتاب : «الكامل فى التاريخ» (الجزء الثانى)
- المؤلف : ابن الأثير
- اختصار وتقديم : محمد دبوس

- طبع فى مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

ص.ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس

WWW. egyptianbook. org

E - mail : info @egyptianbook.org

- الغلاف : عمرو الكفراوى
- الخطوط : أوس الأنصارى
- الإخراج الفنى : صبرى عبد الواحد

مقدمة

لا نكاد نطوى صفحة من صفحات ذلك السجل، إلا ونتعلم منها ويتعلم أبناؤنا، وأحفادنا أن التاريخ والزمن لايتحرك، وأن الماضى يعيد نفسه، وكأننا لم نلبث إلا ساعة أو بعض ساعة.

وعَبر هذا الجزء الثانى من مختصر الكامل لابن الأثير، وهذه السلسلة التى نرجو أن تحيى فى أذهان الأبناء، والأحفاد ـ جيل الغد وصناع المستقبل ـ الأمل فى التعلم والاستفادة من عِبر وعظات الماضى، وأن نشاهد ما طواه الدهر من الحوادث والأيام، فما أحوجنا إلى الحقائق فى زمن الأباطيل والزيف. فى أن تساعد فى الأخذ بأيدى الأبناء سلسلة المختصرات التراثية.

فإلى منابع الأصل وإلى درب الإصلاح الحقيقى، فإلى الزمن، وإلى الأحداث، إلى نبعٍ من نبوع الحضارة والعز والشموخ، إنه نبع (ابن الأثير) والذى يسجل لنا أحداثًا على قدر كبير من الأهمية، والتى تبدأ من سنة ثمان وعشرين ومائتين إلى سنة ثمان وعشرين وستمائة.

وعلى مر تلك السنون والأعوام نلحظ انشغال حكام المسلمين بالحكم،وما بينهم من حروب ومؤامرات ودسائس، وعلى الجانب الآخر لم يتركهم الفرنج، بل بين الحين والآخر يُغيرون عليهم، وعلى الثغور الإسلامية، مما أدى إلى الحملات الصليبية الكبرى التى شنت على الإسلام من الشرق إلى الغرب، وهجوم التتار بعد ذلك، وكأن ابن الأثير كان على موعد مع كل ذلك ليسجله ويدونه، عبرة لكل معتبر.

فلا أعظم من أن نرعى هذه الجذور، ونُعنى بتلك الأصول بحثًا وإحياءً حتى لاتميد بنا الأهواء وتجمد عروق الأبناء بانفصالهم عن النبع ويُعد الهوة، فنرى جيلا - بعدئذ - هشًا تذروه تيارات الغرب، وأهواء الشرق .

ونبدأ رحلتنا الآن عبر الجزء الثانى .

محمد دبوس



ونبدأ رحلتنا الآن عبر الجزء السابع والذى يمثل فترة مهمة، من سنة ثمان وعشرين ومائتين إلى أربع وتسعين ومائتين.

ثم دخلت سنة ثمان وعشرين ومائتين

ذكر غزوات المسلمين فى جزيرة صقلية

فى هذه السنة سار الفضل بن جعفر الهمدانى فى البحر، فنزل مرسى مسينى، وبث السرايا فغنموا غنايم كثيرة، وأستأمن إلية أهل نابل وصاروا معه، وقاتل الفضل مدة سنتين واشتد القتال، فلم يقدر على أخذها، فمضى طايفة من العسكر، واستداروا خلف جبل مطل على المدينة فصعدوا إليه، ونزلوا إلى المدينة وأهل البلد مشغولون بقتال جعفر ومن معه، فلما رأى أهل البلد أن المسلمين دخلوا عليهم من خلفهم انهزموا وفتح البلد .

وفيها فتحت مدينة مسكان .

وفى سنة تسع وعشرين ومائتين خرج أبوالأغلب العباس بن الفضل فى سرية فبلغ شرة، فقاتله أهلها قتالاً شديداً فانهزمت الروم وقتل منهم ما يزيد على عشرة آلاف رجل، واشتشهد من المسلمين ثلاثة نفر ولم يكن بصقلية قبلها مثلها .

وفى سنة اثنين وثلاثين ومائتين حصر الفضل بن جعفر مدينة لنتينى فأخبر الفضل أن أهل لنتينى كاتبوا البطريق الذى بصقلية لينصرهم فأجابهم، وقال لهم : إن العلامة عند وصولى أن توقد النار ثلاث ليال على الجبل الفلانى، فإذا رأيتم ذلك، ففى اليوم الرابع أصل إليكم، فنجمع أنا وأنتم على المسلمين بغتة.

فأرسل الفضل من أوقد النار على ذلك الجبل ثلاث ليال، فلما رأى أهل لنتينى النار أخذوا فى أمرهم، وأعد الفضل ما ينبغى أن يستعد به وكمن الكمناء، وأمر الذين يحاصرون المدينة أن ينهزموا إلى جهة الكمين، فإذا خرج أهلها عليهم قاتلوهم، فإذا جاوزوا الكمين عطفوا عليهم . فلما كان اليوم الرابع خرج أهل لنتينى، وقاتلوا المسلمين وهم ينتظرون وصول البطريق، فانهزم المسلمون، واستجروا الروم حتى جاوزوا الكمين ولم يبق بالبلد أحد إلا خرج، فلما جاوزوا الكمين عاد المسلمون عليهم وخرج الكمين من خلفهم، ووضعوا فيهم السيف، فلم ينج منهم إلا القليل، فسألوا الأمان على أنفسهم وأموالهم ليسلموا المدينة، فأجابهم المسلمون إلى ذلك وأمنوا فسلموا المدينة .

وفيها أقام المسلمون بمدينة طارنت من أرض أنكبردة وسكنوها .

وفى سنة ثلاث ومائتين وصل عشر شلنديات من الروم، فأرسلوا بمرسى الطين، وخرجوا ليغيروا، فضلوا الطريق، فرجعوا خائبين، وركبوا البحر راجعين، فغرق منها سبع قطع .

وفى سنة أربع وثلاثين صالح أهل رغوس، وسلموا المدينة إلى المسلمين بما فيها، فهدمها المسلمون، وأخذوا منها ما أمكن حمله .

وفى سنة خمس وثلاثين سار طائفة من المسلمين إلى مدينة قصر يانة فغنموا وسلبوا وأحرقوا وقتلوا فى أهلها، وكان الأمير على صقلية للمسلمين محمد بن عبد الله بن الأغلب، فتوفى فى رجب من سنة ست وثلاثين ومائتين، فكان مقيماً بمدينة بلرم لم يخرج منها، وإنما كان يخرج الجيوش والسرايا فتفتح، فتغنم، فكانت إمارته عليها تسع عشرة سنة، والله سبحانه أعلم .

ذكر عدة حوادث

فى هذه السنة أعطى الواثق أشناس تاجاً ووشاحين .

وفيها مات أبوتمام حبيب بن أوس الطائى الشاعر .

وفيها غلا السعر بطريق مكة، فبلغ الخبر كل رطل بدرهم، وراوية الماء بأربعين درهماً، وأصاب الناس فى الموقف حر شديد، ثم أصابهم مطر فيه برد،

واشتد البرد عليهم بعد ساعة من ذلك الحر وسقطت قطعة من الجبل عند جمرة العقبة فقتلت عددًا من الحجاج .

وحج بالناس محمد بن داود،

وفيها توفى عبد الملك بن مالك بن عبد العزيز أبونصر التمار الزاهد، وكان عمره إحدى وتسعين سنة، وكان قد أضر، ومحمد بن عبد الله بن عمر ابن معاوية بن عمرو بن عتبة بن أبى سفيان العتبى الأموى البصرى أبوعبد الرحمن، وكان عالماً بالأخبار والآداب، وأبوسليمان داود الأشقر السمسار المحدث .

ثم دخلت سنة تسع وعشرين ومائتين

فى هذه السنة جس الواثق الكتّاب، وألزم أموالهم أموالاً عظيمة، وأخذ من أحمد بن إسرائيل ثمانين ألف دينار بعد أن ضربه، ومن سليمان بن وهب كاتب إيتاخ أربع مائة ألف دينار، ومن الحسن بن وهب أربعة عشر ألف دينار، ومن إبراهيم بن رياح وكتابه مائة ألف دينار، ومن أحمد بن الخصيب وكتابة ألف دينار، ومن نجاح ستين ألف دينار، ومن أبى الوزير مائة ألف وأربعين ألف دينار .

وكان سبب ذلك أنه جلس ليلة مع أصحابه، فسألهم عن سبب نكبة البرامكة، فحكى له عرود بن عبد العزيز الأنصارى أن جارية لعدول الخياط أراد الرشيد شراء ها، فاشتراها بمائة ألف دينار، وأرسل إلى يحيى بن خالد أن يعطيه ذلك، فقال يحيى : هذا مفتاح سوء، إذا أخذ ثمن جارية بمائة ألف دينار، فهوأحرى أن يطلب المال على قدر ذلك، فأرسل يحيى إليه : إننى لا أقدر على هذا المال، فغضب الرشيد، وأعاد : لابد منها، فأرسل يحيى قيمتها دراهم، فأمر أن تجعل على طريق الرشيد ليستكثرها، ففعل ذلك، فاجتاز الرشيد بها، فسال عنها، فقيل : هذا ثمن الجارية، فاستكثرها فأمر برد الجارية، والخادم له : اضمم إليك هذا المال، واجعل لى بيت مال لأضم إليه ما أريد، وسماه بيت مال العروس، وأخذ فى التفتيش عن الأموال فوجد البرامكة قد فرطوا فيها .

وكان يحضر عنده مع سماره رجل يعرف بأبى العود له أدب، فأمر ليلة له بثلاثين ألف درهم، فمطله بها يحيى، فاحتال أبوالعود فى تحريض الرشيد على البرامكة وكان قد شاع تغير الرشيد عليهم، فبينما هوليلة عند الرشيد يحدثه، وساق الحديث إلى أن أنشده قول عمر بن أبى ربيعة :

وعـدت هند، ومـا كـانت تعـد ليت هنداً انجـزتنا مـا تعـد

واسـتـبـدت مـرة واحـدةً إنما العـاجـز من لا يسـتـبـد

فقال الرشيد : أجل إنما العاجز من لا يستبد .

وكان يحيى قد اتخذ من خدام الرشيد خادماً يأتيه بأخباره، فعرفه ذلك، فأحضر أبا العود، وأعطاه ثلاثين ألف درهم، ومن عنده عشرين ألف درهم، وأرسل إلى ابنيه الفضل وجعفر، فأعطاه كل واحد منها عشرين ألفاً، وجد الرشيد فى أمرهم حتى أخذهم، فقال الواثق: صدق والله جدى، إنما العاجز من لا يستبد، وأخذ فى ذكر الخيانة وما يستحق أهلها، فلم يمض غير أسبوع حتى نكبهم .

وفيها ولى شير باسبان لإيتاخ اليمن، وسار إليها .

وفيها تولى محمد بن صالح بن العباس المدينة، وحج بالناس محمد بن داود.

وفيها توفى خلف بن هشام البزار المقرئ فى جمادى الأولى .

البزار بالزاى المعجمة والراء المهملة .

ثم دخلت سنة ثلاثين ومائتين

ذكر مسير بغا إلى الأعراب بالمدينة.

ذكر وفاة عبد الله بن طاهر

وفيها مات عبدالله بن طاهر بنيسابور فى ربيع الأول، وهوأمير خراسان، وكان إليه الحرب، والشرطة، السواد، والرى، وطبرستان، وكرمان، وما يتصل بها، وكان خراج هذه الأعمال، يوم مات، ثمانية وأربعين ألف ألف درهم، وكان عمره

ثمانياً وأربعين سنة، وكذلك عمر والده طاهر، واستعمل الواثق على أعماله كلها ابنه طاهر بن عبدالله.

ذكر شيء من سيرة عبدالله بن طاهر

لما ولى عبد الله خراسان استتاب بنيسابور محمد بن حميد الطاهرى، فبنى داراً، وخرج بحائطها فى الطريق، فلما قدمها عبد الله جمع الناس، وسألهم عن سيرة محمد، فسكتوا، فقال بعض الحاضرين : سكوتهم يدل على سوء سيرته، فعزله عنهم، وأمره بهدم ما بنى فى الطريق .

وكان يقول : ينبغى أن يبذل العلم لأهله وغير أهله فإن العلم أمنع لنفسه من أن يصير إلى غير أهله .

وكان يقول : سمن الكيس، ونيل الذكر لا يجتمعان أبداً وكان له جلساء منهم الفضل بن محمد بن منصور، فاستحضرهم يوماً، فحضروا، وتأخر الفضل، ثم حضر، فقال له: أبطأت عنى، فقال : كان عندى أصحاب حوائج وأردت دخول الحمام، فأمره عبد الله بدخول حمامه، وأحضر عبد الله الرقاع التى فى حقه، فوقع فيها كلها بالاجابة، وأعادها، ولم يعلم الفضل .

وخرج من الحمام، واشتغلوا يومهم، وبكر أصحاب الرقاع إليه، فاعتذر إليهم، فقال بعضهم: أريد رقعتى، فأخرجها ونظر فيها، فرأى خط عبد الله فيها، فنظر فى الجميع، فرأى خطه فيها، فقال لأصحابه: خذوا رقاعكم، فقد قضيت حاجاتكم، واشكروا الأمير دونى، فما كان لى فيها سبب. وكان عبد الله أديباً شاعراً، فمن شعره:

اسم من أهواه اسم حسن	فإذا صحفته فهو حسن
فإذا أسقطت منه فاءه،	كان نعتاً لهواه المختزن
فإذا أسقطت منه ياءه،	صار فيه بعض أسباب الفتن
فإذا أسقطت منه راءه،	صار شيئاً يعترى عند الوسن
فإذا أسقطت منه طاءه،	صار منه عيش سكان المدن
فسروا هذا فلن يعرفه،	غير من يسبح فى بحر الفطن

وهذا الاسم هواسم طريف غلامه .

وكان من أكثر الناس بذلا للمال مع علم، ومعرفة، وتجربة، وأكثر الشعراء فى مراثيه، فمن أحسن ما قيل فيه، وفى ولاية أبيه طاهر، قول أبى الغمر الطبرى:

فـأيامك الأعـيـاد صـارت مـآتماً وساعاتك الصعبات صارت خواشعا
على أننا لم نعـتـقـدك بطاهر وإن كـان خطبـاً يقلق القلب راتعـا
ومـا كنت إلا الشمس غابت وأطلعت على إثرها بدراً على الناس طالعـا
ومـــا كنت إلا الطود زال مكانه وأثبت فى مـثـواه ركناً مـدافـعـا
فلولا التقى قلنا تناسختما معاً بديعى معـان يفضلان البدائعا

وهى طويلة.

وذكر خروج المشركين إلى بلاد المسلمين بالأندلس.

ثم دخلت سنة إحدى وثلاثين ومائتين

ذكر ما فعله بُغا بالأعراب،وذكر أحمد بن نصر بن مالك الخزاعى.

ثم دخلت سنة اثنتين وثلاثين ومائتين

ذكر الحرب مع بنى نمير، وموت أبى جعفر الواثق.

ذكر بعض سيرة الواثق بالله

لما توفى المعتصم، وجلس الواثق فى الخلافة أحسن إلى الناس، واشتمل على العلويين، وبالغ فى إكرامهم والإحسان إليهم، والتعهد لهم بالأموال، وفرق فى أهل الحرمين أموالاً لا تحصى، حتى إنه لم يوجد فى أيامه بالحرمين سائل .

ولما توفى الواثق كان أهل المدينة تخرج من نسائهم كل ليلة إلى البقيع، فيبكين عليه، ويندبنه، فـفعلوا عليـه ذلك بينهم مناوبة حـزناً عليـه، لما كـان يكثـر من الإحسان إليهم، وأطلق فى خلافته أعشار سفن البحر، وكان مالا عظيماً .

قال الحسين بن الضحاك : شهدت الواثق بعد أن مات المعتصم بأيام، أول مجلسه، فغنته جارية إبرهيم بن المهدى .

مـــا دري الحـــاملون، يوم اســتــقلوا نعــشـــــه، للثـــــواء أم للبـــقــــاء

فليـــقل فـــيك باكـــيـــاتك مـــا شـئــ ـــن، صـــبـــاحـــاً، وعند كل مـــســـاء

فبكى، وبكينا معه حتى شغلنا البكاء عن جميع ما كنا فيه، قال : ثم تغنى بعضهم فقال :

ودع هـــريـرة إن الـركـــب مـرتحـــل، وهـــل تطيـــق وداعاً أيهـــا الــرجـــل

فازداد الواثق بكاء، وقال : ما سمعت كاليوم تعزية بأب وتغنى نفسى، ثم تفرق أهل المجلس . قال : أحمد بن عبد الوهاب فى الواثق :

ابت دار الأحـــــبـــــة ان تبـــــينا أجـــدك مـــا رأيت لهـــا مـــعـــينا

تقطـع حـــســـــرة من حب ليلى نفـــــوس مـــــا اثـبن ولا جـــــزينا

فصنعت فيه علم جارية صالح بن عبد الوهاب، فغناه زرزر الكبير للواثق، فسأله : لمن هذا ؟ فقال : لعلم، فأحضر صالحا وطلب منه شراءها، فأهداها له، فعوضه خمسة آلاف دينار، فمطله بها ابن الزيات، فأعادت الصوت، فقال الواثق : بارك الله عليك، وعلى من رباك ! فقالت : وما ينفع من ربانى ؟ أمرت له، فدفع إليه عشرة آلاف دينار ، وترك صالح عمل السلطان، واتجر فى المال .

وقال أبوعثمان المازنى النحوى : استحضرنى الواثق من البصرة، فلما حضرت عندة قال : من خلفت بالبصرة ؟ قلت : أختاً لى صغيرة .

قال : فما قالت المسكينة ؟ قلت ما قالت ابنة الأعشى :

تـقـول ابنـتى، حين جـد الرحيـل : أرانـــا ســـــواء ومــــن قـــــد يتــــم

فيـــا ابتـــــا لا تـــزل عـــنـــدنـــا فـــإنـــا نخـــــــاف بـــأن تخـــــترم

أرانـــــا إذا أضـــمـــرتــــك البــــلا د نجـفـــى وتقــطــع مـــنــا الـرحـم

قال : فما رددت عليها ؟ قلت : ما قال جرير لابنته :

ثقـــى باللـــه ليـس لـــه شـــريــك ومـــن عـــنـــد الخليفـــة بالنجـــاح

فضحك، وأمر له بجائزة سنية .

ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثين ومائتين

ذكر القبض على محمد بن عبد الملك الزيات.

ذكر عدة حوادث

فى هذه السنة حبس عمر بن الفرج الرخجى، وكان سبب ذلك أن المتوكل أتاه لما كان أخوه الواثق ساخطاً عليه، ومعه صك ليختمه عمر له ليقبض أرزاقه من بيت المال، فلقيه عمر بالخيبة، وأخذ صكه فرمى به إلى صحن المسجد، وكان حبسه فى شهر رمضان، وأخذ ماله، وأثاث بيته، وأصحابه، ثم صولح على أحد عشر ألف ألف على أن يرد عليه ما حيز من ضياع الأهواز، فكان قد ألبس حبسه جبة صوف . قال على بن الجهم يهجوه :

جمعت أمرين الحزم بينها تيه الملوك وأفعال الصعاليك

أردت شكراً بلا بر ومرزئة لقد سلكت سبيلاً غير مسلوك

وفيها غضب المتوكل على سليمان بن إبراهيم بن الجنيد النصرانى كاتب سمانه، وضربه، وأخذ ماله، وغضب أيضاً على أبى الوزير، وأخذ ماله ومال أخيه وكاتبه .

وفيها أيضاً عزل الفضل بن مروان عن ديوان الخراج، وولاه يحيى بن خاقان الخراسانى مولى الأزد وولى إبراهيم بن العباس بن محمد بن صول ديوان زمام النفقات .

وفيها ولى المتوكل ابنه المنتصر الحرمين واليمن والطائف فى رمضان وفيها فلج أحمد بن أبى دؤاد فى جمادى الآخرة .

وفيها وثب ميخائيل بن توفيل بأمه تدورة، فألزمها الدير، وقتل اللقط لأنه كان اتهمها به . فكان ملكها ست سنين، وحج بالناس فى هذه السنة محمد بن داود .

وفيها عزل محمد بن الأغلب أمير إفريقيا عامله على الزاب، واسمه سالم بن غلبون فأقبل يريد القيروان، فلما صار بقلعة يلبسير أضمر الخلاف وسار إلى

الأريس، فمنعه أهلها من الدخول إليها، فسار إلى باجة، فدخلها، واحتمى بها، فسير إليه ابن الأغلب فسير إليه ابن الأغلب جيشاً عليهم خفاجة بن سفيان، فنزل عليه وقاتله، فهرب سالم ليلاً، فاتبعه خفاجه، فلحقه وقتله، وحمل رأسه إلى ابن الأغلب، وكان ابن سالم عند ابن الأغلب محبوساً فقتله وفيها توفى يحيى بن معين البغدادى بالمدينة، وكان مولده سنة ثمان وخمسين ومائة وهوصاحب الجرح والتعديل، ومحمد بن سماعة القاضى، صاحب محمد بن الحسن، وقد بلغ مائة سنة وهوصحيح الحواس .

ثم دخلت سنة أربع وثلاثين ومائتين

ذكر هرب محمد بن البعث، وذكر إيتاخ وما صار إليه أمره، وذكر الخلاف فى إفريقيا.

ثم دخلت سنة خمس وثلاثين ومائتين

ذكر قتل إيتاخ، وأسر ابن البعث وموته، وذكر البيعة لأولاد المتوكل بولاية العهد.

ثم دخلت سنة ست وثلاثين ومائتين

ذكرمقتل محمد بن إبراهيم، وذكر ما فعله المتوكل بمشهد الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما.

ثم دخلت سنة سبع وثلاثين ومائتين

ذكر وثوب أهل أرمينية بعاملهم، وفتح مدينة قصريانة، وذكر ابتداء أمر يعقوب بن اليث.

ثم دخلت سنة ثمان وثلاثين ومائتين

ذكر مسير الروم إلى ديار مصر

فى هذه السنة جاء ثلاثمائة مركب للروم مع ثلاثة رؤساء فأناخ أحدهم فى مائة مركب بدمياط، وبينها وبين الشط شبيه بالبحيرة، يكون ماؤها إلى صدر الرجل، فمن جازها إلى الأرض أمن من مراكب البحر، فجازه قوم فسلموا، وغرق كثير من نساء وصبيان، ومن كان به قوة سار إلى مصر وكان على معونة مصر

عنبسة بن إسحاق الضبى، حضر العيد أمر الجند الذين بدمياط أن يحضروا مصر، فساروا منها، فاتفق وصول الروم وهى فارغة من الجند فنهبوا، وأحرقوا، وسبوا، وأحرقوا جامعها، وأخذوا ما بها من سلاح ومتاع، وقيد، وغير ذلك، وسبوا من النساء المسلمات والذميات نحوستمائة امرأة، وأوقروا سفنهم من ذلك .

وكان عنبسة قد حبس بسر بن الأكشف بدمياط، فكسر قيده، وخرج يقاتلهم، وتبعه جماعة، وقتل من الروم جماعة، وسارت الروم إلى أشنوم تنيس، وكان عليه سور وبابان من حديد قد عمله المعتصم، فنهبوا ما فيه من سلاح، وأخذوا البابين، ورجعوا ولم يعرض لهم أحد .

وذكر وفاة عبد الرحمن بن الحكم وولاية ابنه محمد

ثم دخلت سنة تسع وثلاثين ومائتين

فى هذه السنة أمر المتوكل بأخذ أهل الذمه بلبس ذراعين عسليتين على الأقبية والدراريع، وبالاقتصار فى مراكبهم على ركوب البغال والحمير دون الخيل والبراذين.

وفيها نفى المتوكل على بن الجهم إلى خرسان .

وفيها أمر المتوكل بهدم البيع المحدثة فى الإسلام .

وفيها سير محمد بن عبد الرحمن جيشاً مع أخيه الحكم إلى قلعة رباح، وكان أهل طليطلة قد خربوا سورها، وقتلوا كثيراً من أهلها وأصلح الحكم سورها، وأعاد من فارقها من أهلها إليها، وأصلح حالها، وتقدم إلى طليطلة فأفسد فى نواحيها وشعثها، وسير محمد أيضاً جيشاً آخر إلى طليطلة، فلما قاربوها خرجت عليهم الجنود من المكامن، فانهزم العسكر، وأصيب أكثر من فيه .

وفيها مات أبوالوليد محمد بن أحمد بن أبى دؤاد القاضى ببغداد فى ذى الحجة، وغزا الصائفة على بن يحيى الأرمنى .

وفيها حج جعفر بن دينار على الأحداث بطريق مكة والموسم، وحج بالناس هذه السنة عبدالله بن محمد بن داود بن عيسى بن موسى وكان والى مكة وفيها

اتفق الشعانين للنصارى ويوم النيروز، وذلك يوم الأحد لعشرين ليلة خلت من القعدة، فزعمت النصارى انهما لم يجتمعا فى الإسلام قط. وفيها توفى محمود ابن غيلان المروزى أبوأحمد، وهومن مشايخ البخارى ومسلم والترمذى.

ثم دخلت سنة أربعين ومائتين

ذكر وثوب أهل حمص بعاملهم والحرب بين المسلمين والفرنج بالأندلس.

ثم دخلت سنة إحدى وأربعين ومائتين

ذكر الفداء بين المسلمين والروم.

ذكر غارات البجاة بمصر

وفيها أغارت البجاة على أرض مصر، وكانت قبل ذلك لا تغزو بلاد الإسلام لهدنة قديمة، وقد ذكرناها فيما مضى، وفى بلادهم معادن يقاسمون المسلمين عليها، ويؤدون إلى عمال مصر نحوالخمس .

فلما كانت أيام المتوكل امتنعت عن أداء ذلك، فكتب صاحب البريد بمصر بخبرهم، وأنهم قتلوا عدة من المسلمين ممن يعمل فى المعادن، فهرب المسلمون منها خوفاً على أنفسهم، فأنكر المتوكل ذلك، فشاور فى أمرهم، فذكر له أنهم أهل بادية، أصحاب إبل وماشية، وأن الوصول إلى بلادهم صعب لأنه مفاوز، وبين أرض الإسلام وبينها مسيرة شهر فى أرض قفر وجبال وعرة، وأن كل من يدخلها من الجيوش يحتاج أن يتزود لمدة يتوهم أنه يقيمها إلى أن يخرج إلى بلاد الإسلام، فإن جاوز تلك المدة هلك، وأخذتهم البجاة باليد، وأن أرضهم لا ترد على سلطان شيئاً .

فأمسك المتوكل عنهم، فطمعوا وزاد شرهم حتى خاف أهل الصعيد على أنفسهم منهم، فولى المتوكل محمد بن عبد الله القمى محاربتهم، وولاه معونة تلك الكور، وهى قفط والأقصر وأسنا وأرمنت وأسوان، وأمره بمحاربة البجاة، وكتب إلى عنبسة بن إسحاق الضبى، عامل حرب مصر، بإزاحة علته وإعطائه من الجند ما يحتاج إليه، ففعل ذلك .

وسار محمد إلى أرض البجاة وتبعه ممن يعمل فى المعادن والمتطوعة عالم كثير، فبلغت عدتهم نحواً من عشرين ألفاً بين فارس وراجل، ووجه إلى القلزم، فحمل فى البحر سبعة مراكب موقورة بالدقيق، والزيت، والتمر، والشعير والسويق، وأمر أصحابه، أن يوافوه بها فى ساحل البحر مما يلى بلاد البجاة، وسار حتى جاوز المعادن التى يعمل فيها الذهب، وسار إلى حصونهم وقلاعهم، وخرج إليه ملكهم، واسمه على بابا، فى جيش كثير أضعاف من مع القمى، فكانت البجاة على الإبل، وهى إبل فره تشبه المهارى، فتحاربوا أياماً، ولم يصدقهم على بابا القتال لتطول الأيام، وتفنى أزواد المسلمين وعلوفاتهم، فيأخذهم بغير حرب، فأقبلت تلك المراكب التى فيها الأقوات فى البحر، ففرق القمى ما كان فيها فى أصحابه فامتنعوا فيها .

فلما رأى على بابا ذلك صدقهم القتال، وجمع لهم، فالتقوا واقتتلوا قتالاً شديداً، وكانت إبلهم ذعرة تنفر من كل شىء، فلما رأى القمى ذلك جمع كل جرس فى عسكره وجعلها فى أعناق خيله، ثم حملوا على البجاة، فنفرت إبلهم لأصوات الأجراس، فحملتهم على الجبال والأودية، وتبعهم المسلمون قتلاً وأسراً، حتى أدركهم الليل، وذلك أول سنة إحدى وأربعين ومائتين، ثم خرج إلى معسكره ولم يقدر على إحصاء القتلى لكثرتهم .

ثم إن ملكهم على بابا طلب الأمان فأمنه على أن يرد مملكته وبلاده، فأدى إليهم الخراج للمدة التى كان منعها، وهى أربع سنين، وسار مع القمى إلى المتوكل، واستخلف على مملكته ابنه بغش، فلما وصل إلى المتوكل خلع عليه وعلى أصحابه، وكسا جمله رحلاً مليحاً وجلال ديباج، وولى المتوكل البجاة طريق مصر، مابين مصر ومكة، سعداً الخادم الإيتاخى، فولى الإيتاخى محمداً القمى، فرجع إليها ومعه على بابا وهوعلى دينه، وكان معه صنم من حجارة كهيئة الصبى يسجد له.

ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين ومائتين

وفى هذ السنة سار المتوكل إلى دمشق فى ذى القعدة على طريق الموصل فضحى ببلد فقال يزيد بن محمد المهلبى :

أظن الشـام تشـمـت بالعـراق ... إذا عـزم الإمـام على انطلاق
فـإن يدعـو العـراق وسـاكنيـه ... فـقـد تبلى المليـحـة بالطلاق

وفـيـهـا مـات إبراهيم بن العباس بن محمد بن صول الصولى، وكـان أديباً شاعراً، فولى ديوان الضياع الحسن بن مخلد بن الجراح، خليفة إبرهيم .

ومات عاصم بن منجور، وحج بالناس عبد الصمد بن موسى، وحج جعفر بن دينار وهووالى الطريق وأحداث الموسم .

وفيها خرج أهل طليطلة بجمعهم إلى طليطة وعليها مسعود بن عبد الله العريف، فخرج إليهم فيمن معه من الجنود، فلقيهم، فقاتلهم، فانهزم أهل طليطلة، وقتل أكثرهم، وحمل إلى قرطبة سبع مائة رأس .

وفيها توفى سهيد بن عيسى بن سهيد الأندلسى، وكان من العلماء .

وفـيـهـا توفى يعقوب بن إسحاق بن يوسف المعروف بابن السكيت، النحوى اللغوى، وقيل سنة أربع، وقيل خمس، وقيل ست وأربعين، والحارث بن أسد المحاسبى أبوعبد الله الزاهد، وكان قد هجره الإمام أحمد بن حنبل لأجل الكلام، فاختفى لتعصب العامة لأحمد، فلم يصل عليه إلا أربعة نفر .

ثم دخلت سنة أربع وأربعين ومائتين

فى هذه السنة دخل المتوكل مدينة دمشق فى صفر، وعزم على المقام بها، ونقل دواوين الملك إليها، وأمر بالبناء بها، ثم استوبأ البلد وذلك بأن هواءه بارد ندى، والماء ثقيل، والريح تهب فيها مع العصر فلا تزال تشتد حتى يمضى عامة الليل، وهى كثيرة البراغيث، وغلت الأسعار، وحال الثلج بين السابلة والميرة، فرجع إلى سامراء وكان مقامه بدمشق شهرين وأياماً، فلما كان بها وجه بغا الكبير لغزوالروم، فغزا الصائفة فافتتح صملة .

وفيها عقد المتوكل لأبى الساج على طريق مكة مكان جعفر بن دينار، وعقد له سنة اثنتين وأربعين وهوالصواب .

وفيها أتى المتوكل بحربة كانت للنبى، صلى الله عليه وسلم، تسمى العنزة، فكانت للنجاشى، فأهداها للزبير بن العوام، وأهداها الزبير للنبى، صلى الله عليه وسلم، وهى التى كانت تركز بين يدى النبى، صلى الله عليه وسلم، فى العيدين، فكان يحملها بين يديه صاحب الشرطة .

وفيها غضب المتوكل على بختيشوع الطبيب، وقبض ماله، ونفاه إلى البحرين.

وفيها اتفق عيد الأضحى والشعانين للنصارى، وعيد الفطر لليهود، فى يوم واحد . وحج بالناس فيها عبد الصمد بن موسى .

وفيها توفى إسحاق بن موسى بن عبد الله بن موسى الأنصارى، وعلى بن حجر السعدى المروزى وهما إمامان فى الحديث، ومحمد بن عبد الملك بن أبى الشوارب، ومحمد بن عبد الله بن أبى عثمان بن عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبى العيص بن أمية القاضى فى جمادى الأولى .

(أسيد بفتح الهمزة)

ومرة الأحداث من سنة خمس وأربعين ومائتين إلى أن دخلت

سنة سبع وأربعين ومائتين

ذكر مقتل المتوكل

وفى هذه السنة قتل المتوكل، وكان سبب قتله أنه أمر بإنشاء الكتب بقبض ضياع وصيف بأصبهان والجبل، وإقطاعها الفتح بن خاقان، فكتبت وصارت إلى الخاتم، فبلغ، ذلك وصيفاً، وكان المتوكل أراد أن يصلى بالناس أول جمعة فى رمضان، وشاع فى الناس، واجتمعوا لذلك، وخرج بنوهاشم من بغداد لرفع القصص وكلامه إذا ركب .

فلما كان يوم الجمعة، وأراد الركوب للصلاة، قال له عبيد الله بن يحيى والفتح بن خاقان : إن الناس قد كثروا من أهل بيتك ومن غيرهم، فبعض متظلم وبعض طالب حاجة، وأمير المؤمنين يشكوضيق الصدر، وعلة به، فإن رأى أمير بعض ولاة العهود بالصلاة، ونكون معه، فليفعل .

فأمر المنتصر بالصلاة، فلما نهض للركوب قالا له : يا أمير المؤمنين، إن رأيت أن تأمر المعتز بالصلاة، فقد اجتمع الناس لتشرفه بذلك، وقد بلغ الله به، وكان قد ولد للمعتز قبل ذلك ولد، فأمر المعتز، فركب فصلى بالناس، وأقام المنتصر فى داره بالجعفرية، فزاد ذلك فى إغرائه .

فلما فرغ المعتز من خطبته قام إليه عبيد الله والفتح بن خاقان فقبلا يديه ورجليه، فلما فرغ من الصلاة انصرف ومعه الناس فى موكب الخلافة، حتى دخل على أبيه، فأثنوا عليه عنده، فسره ذلك .

فلما كان عيد الفطر قال : مروا المنتصر يصلى بالناس ! فقال له عبيد الله : قد كان الناس يتطلعون إلى رؤية أمير المؤمنين، واحتشدوا لذلك، فلم يركب، ولا يأمن إن هولم يركب اليوم، أن يرجف الناس بعلته، فإذا رأى أمير المؤمنين أن يسر الأولياء، ويكبت الأعداء بركوبه فليفعل .

فركب وقد صف له الناس نحوأربعة أميال، وترجلوا بين يديه، فصلى، ورجع، فأخذ حفنة من التراب، فوضعها على رأسه وقال : إنى رأيت كثرة هذا الجمع، ورأيتهم تحت يدى، فأحببت أن أتواضع لله، فلما كان اليوم الثالث افتصد، واشتهى لحم جزور، فأكله، وكان قد حضر عنده ابن الحفصى وغيره، فأكلوا بين يديه . قال : ولم يكن يوم أسر من ذلك اليوم، ودعا الندماء والمغنين، وأهدت له أم المعتز مطرف خز أخضر، لم ير الناس مثله، فنظر إليه، فأطال، وأكثر تعجبه منه، وأمر فقطع نصفين ورده عليها، وقال لرسولها : والله إن نفسى لتحدثنى أنى لا ألبسه، وما أحب أن يلبسه أحد بعدى ولهذا أمرت بشقه .

قال فقلنا : نعيذك بالله أن تقول هذا، قال : وأخذ فى اللهو.

ولج بأن يقول: أنا والله مفارقكم عن قليل! ولم يزل فى لهو وسرور إلى الليل.

وكان قد عزم هووالفتح أن يفتكا بكرة غد بالمنتصر ووصيف وبغا وغيرهم من قواد الأترك، وقد كان المنتصر واعد الأتراك ووصيفاً وغيره على قتل المتوكل .

وكثر عبث المتوكل، قبل ذلك بيوم، بابنه المنتصر، مرة يشتمه، ومرة يسقيه فوق طاقته، ومرة يأمر بصفعه، ومرة يتهدده بالقتل، ثم قال للفتح : برئت من الله ومن

قرابتى من رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إن لم تلطمه، يعنى المنتصر، فقام إليه فلطمه مرتين، ثم أمر يده على قفاه، ثم قال لمن حضره : اشهدوا على جميعاً أنى قد خلعت المستعجل، يعنى المنتصر، ثم التفت إليه فقال : سميتك المنتصر، فسماك الناس، لحمقك، المنتظر، ثم صرت الآن المستعجل .

فقال المنتصر : لوأمرت بضرب عنقى كان أسهل على مما تفعله بى، فقال : اسقوه، ثم أمر بالعشاء فأحضر، وذلك فى جوف الليل، فخرج المنتصر من عنده، وأمر بناناً غلام أحمد بن يحيى أن يلحقه، وأخذ بيد زرافة الحاجب، وقال له : امض معى ! فقال : إن أمير المؤمنين لم ينم، فقال : إنه قد أخذ منه النبيذ، والساعة يخرج بغا والندماء، وقد أحببت أن تجعل أمر ولدك إلى، فإن أوتامش سألنى أن أزوج ولده من ابنتك، وابنك من ابنته، فقال : نحن عبيدك فمر بأمرك ! فسار معه إلى حجرة هناك، وأكلا طعاماً فسمعا الضجة والصراخ، فقاما، وإذا بغا قد لقى المنتصر، فقال المنتصر : ما هذا ؟ فقال : خير يا أمير المؤمنين، قال : ما تقول ويلك ؟ قال : أعظم الله أجرك فى سيدنا أمير المؤمنين، كان عبد الله دعاه فأجابه .

فجلس المنتصر، وأمر بباب البيت الذى قتل فيه المتوكل فأغلق، وأغلقت الأبواب كلها، وبعث إلى وصيف يأمره بإحضار المعتز والمؤيد عن رسالة المتوكل .

وأما كيفية قتل المتوكل فإنه خرج المنتصر دعا المتوكل بالمائدة، وكان بغا الصغير المعروف بالشرابى قائماً عند الستر، وذلك اليوم كان نوبه بغا الكبير، وكان خليفته فى الدار ابنه موسى، وموسى هوابن خالة المتوكل، وكان أبوه يومئذ بسميساط، فدخل بغا الصغير إلى المجلس، فأمر الندماء بالانصراف إلى حجرهم، فقال له الفتح : ليس هذا وقت انصرافهم، وأمير المؤمنين لم يرتفع، فقال بغا : إن أمير المؤمنين أمرنى أنه إذا جاوز السبعة لا أترك أحد، وقد شرب أربعة عشر رطلاً، وحرم أمير المؤمنين خلف الستارة .

وأخرجهم، فلم يبق إلا الفتح وعثعث، وأربعة من خدم الخاصة، وأبوأحمد بن المتوكل، وهوأخو المؤيد لأمه .

وكان بغا الشرابى أغلق الأبواب كلها، إلا باب الشط، ومنه دخل القوم الذين قتلوه، فبصر بهم أبوأحمد، فقال : ما هذا يا سفل ! وإذا سيوف مسللة، فلما سمع المتوكل صوت أبى أحمد رفع رأسه، فرآهم فقال: ما هذا يا بغا ؟ فقال : هؤلاء رجال النوبة، فرجعوا إلى ورائهم عند كلامه، ولم يكن واجن وأصحابه وولد وصيف حضروا معهم، فقال لهم بغا : يا سفل ! أنتم مقتولون لا محالة، فموتوا كراماً ! فرجعوا، فابتدره بغلون فضربه على كتفه وأذنه فقده، فقال: مهلاً ! قطع الله يدك، وأراد الوثوب به، واستقبله بيده، فضربها فأبانها، وشاركه باغر، فقال الفتح : ويلكم ! أمير المؤمنين... ورمى بنفسه على المتوكل، فبعجوه بسيوفهم، فصاح : الموت ! وتنحى، فقتلوه .

وكانوا قالوا لوصيف ليحضر معهم، وقالوا : إنا نخاف، فقال : لا بأس عليكم، فقالوا له : أرسل معنا بعض ولدك، فأرسل معهم خمسة من ولده : صالحاً، وأحمد، وعبد الله، ونصراً، وعبيد الله .

وقيل إن القوم لما دخلوا نظر إليهم عثعث، فقال للمتوكل : قد فرغنا من الأسد، والحيات، والعقارب، وصرنا إلى السيوف، وذلك أنه ربما أسلى الحية والعقرب والأسد، فلما ذكر عثعث السيوف قال : يا ويلك ! أى سيوف، فما استتم كلامه حتى دخلوا عليه وقتلوه، وقتلوا الفتح، و خرجوا إلى المنتصر، فسلموا عليه بالخلافة، و قالوا : مات أمير المؤمنين، وقاموا على رأس زرافة بالسيوف، و قالوا: بايع، فبايع .

وأرسل المنتصر إلى وصيف : إن الفتح قد قتل أبى فقتله، فاحضر فى وجوه أصحابك ! فحضر هووأصحابه، فبايعوا . وكان عبيد الله بن يحيى فى حجرته ينفذ الأمور ولا يعلم، وبين يديه جعفر بن حامد، إذ طلع عليه بعض الخدم فقال: ما يحبسك والدار سيف واحد ؟ فأمر جعفر بالنظر، فخرج، وعاد وأخبره أن المتوكل والفتح قتلا، فخرج فيمن عنده من خدمه وخاصته، فأخبر أن الأبواب مغلقه، وأخذ نحوالشط، فإذا أبوابه مغلقه، فأمر بكسر ثلاثة أبواب، وخرج إلى

الشط، وركب في زورق، فأتى منزل المعتز، فسأل عنه، فلم يصادف، فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون، قتل نفسه وقتلني .

واجتمع إلى عبيد الله أصحابه غداة يوم الأربعاء، من الأبناء، والعجم، والأمن والزواقيل، وغيرهم، فكانوا زهاء عشرة آلاف، وقيل كانوا ثلاثة عشر ألفاً، وقيل ما بين خمسة آلاف إلى عشرة آلاف، فقالوا: ما اصطنعتنا إلا لهذا اليوم، فمرنا بأمرك، وأن لنا نمل على القوم ونقتل المنتصر ومن معه ! فأبى ذلك، وقال : المعتز في أيديهم.

وذكر عن على بن يحيى المنجم أنه قال : كنت أقر على المتوكل، قبل قتله بأيام، كتاباً من كتب الملاحم، فوقفت على موضع فيه أن الخليفة العاشر يقتل في مجلسة، فتوقفت عن قراءته، فقال : ما لك ؟ فقلت : خير ! قال : لا بد من أن تقرأه، فقرأته، وحدث عن ذكر الخلفاء، فقال : ليت شعرى من هذا الشقى المقتول؟ فقال أبوالوارث، قاضى نصبين : رأيت في النوم آتياً وهويقول :

يا نائم العين في جثمان يقظان ... ما بال عينك لا تبكي بتهتان

اما رأيت صروف الدهر ما فعلت ... بالهاشمي وبالفتح بن خاقان؟

فأتى البريد بعد أيام بقتلهما .

وكان قتله ليلة الأربعاء لأربع خلون من شوال، وقيل ليلة الخميس؛ وكانت خلافته أربع عشرة سنة وعشرة أشهر وثلاثة أيام، وكان مولده بفم الصلح في شوال سنة ست ومائتين، وكان عمره نحوأربعين سنة .

وكان أسمر، حسن العينين، نحيفاً، خفيف العارضين، ورثاه الشعراء فأكثروا، ومما قيل فيه قول على بن الجهم :

عبيد امير المؤمنين قتلنه ... وأعظم آفات الملوك عبيدها

بنى هاشم صبراً، فكل مصيبة ... سيبلى على وجه الزمان جديدها

ذكر بعض سيرته

ذكر أن أبا الشمط مروان بن أبي الجَنوب قال : أنشدت المتوكل شعراً ذكرت فيه الرافضة فعقد لي على البحرين واليمامة، وخلع على أربع خلع، وخلع على

المنتصر، وأمر لى المتوكل بثلاثة آلاف دينار، فنثرت على، وأمر ابنه المنتصر وسعدا الإيتاخى أن يلقطاها لى، ففعلا، والشعر الذى قلته :

ملك الخليفة جعفر	للدين والدنيا سلامة
لكم تراث محمد	وبعدلكم تنفى الظلامه
يرجو التراث بنو البنا	ت وما لهم فيها قلامة.
والصهر ليس بوارث	والبنت لا ترث الإمامه
ما للذين تنحلوا	ميراثكم إلا الندامه
أخذ الوراثة أهلها	فعلام لومكم علامه
لو كان حقكم لما	قامت على الناس القيامة
ليس التراث لغيركم	لا والإله، ولا كرامه
أصبحت بين محبكم	والمبغضين لكم علامه

ثم نثر على، بعد ذلك، لشعر قلته فى هذا المعنى عشرة آلاف درهم .

وقال يحيى بن أكثم : حضرت المتوكل، فجرى بينى وبينه ذكر المأمون، فقلت بتفضيله، وتقريظه، ووصف محاسنه وعلمه ومعرفته قولاً كثيراً، لم يقع لموافقة من حضر، فقال المتوكل : كيف كان يقول فى القرآن ؟ فقلت كان يقول : ما مع القرآن حاجة إلى علم فرض، ولا مع السنة وحشة إلى فعل أحد، ولا مع البيان والافهام حجة لتعلم، ولا بعد الجحود للبرهان والحق إلا السيف، لظهور الحجة.

فقال المتوكل : لم أرد منك ما ذهبت إليه، فقال يحيى : القول بالمحاسن فى المغيب فريضة على ذى نعمة .

قال : فما كان يقول خلال حديثه، فإن أمير المؤمنين المعتصم بالله، رحمه الله، كان يقول وقد أنسيته، قال كان يقول : اللهم إنى أحمدك على النعم التى لا يحصيها غيرك، وأستغفرك من الذنوب التى لا يحيط بها إلا عفوك .

قال : فما كان يقول إذا استحسن شيئاً، أوبشر بشىء ؟ فقد نسيناه، قال يحيى : كان يقول إن ذكر آلاء الله وكثرتها، وتعداد نعمه، والحديث بها فرض من

الله على أهلها، وطاعة لأمره فيها، وشكر له عليها، فالحمد لله العظيم الآلاء السابغ النعماء بما هوأهله ومستوجبه من محامده القاضية حقه، البالغة شكره، المانعة غيره، الموجبة مزيده على ما لا يحصيه تعدادنا، ولا يحيط به ذكرنا من ترادف منته، وتتابع فضله، ودوام طوله، حمد من يعلم أن ذلك منه، والشكر له عليه، فقال المتوكل : صدقت، هذا هوالكلام بعينه .

وقدم فى هذه السنة محمد بن عبد الله بن طاهر من مكة فى صفر فشكى ما ناله من الغم بما وقع من الخلاف فى يوم النحر، فأمر المتوكل بإنفاذ خريطة من الباب إلى أهل الموسم برؤية هلال ذى الحجة، وأمر أن يقام على المشعر الحرام، وسائر المشاعر، الشمع مكان الزيت والنفط .

وفيها ماتت أم المتوكل فى شهر ربيع الآخر، وصلى عليها المنتصر، ودفنت عند المسجد الجامع، وكان موتها قبل المتوكل بستة أشهر .

وذكر البيعة للمنصور.

ثم دخلت سنة ثمان وأربعين ومائتين

ذكر غزاة وصيف التركى إلى بلادالروم.

ذكر خلع المعتز والمؤيد

وفى هذه السنة خلع المعتز والمؤيد ابنا المتوكل من ولاية العهد، وكان سبب خلعهما أن المنتصر لما استقامت له الأمور، قال أحمد بن الخصيب لوصيف وبغا: إنا لا نأمن الحدثان، وأن يموت أمير المؤمنين، فيلى المعتز الخلافة، فيبيد خضراءنا، ولا يبقى منا باقية، والآن الرأى أن نعمل فى خلع المعتز والمؤيد .

فجد الأتراك فى ذلك، وألحوا على المنتصر ، وقالوا : نخلعهما من الخلافة، ونبايع لابنك عبد الوهاب، فلم يزالوا به حتى أجابهم، وأحضر المعتز والمؤيد، بعد أربعين يوماً من خلافته، وجملا فى دار، فقال المعتز للمؤيد : يا أخى، قد أحضرنا للخلع، فقال : لا أظن يفعل ذلك .

فبينما هما كذلك إذ جاءت الرسل بالخلع، فقال المؤيد : السمع والطاعة، فقال المعتز : ما كنت لأفعل، فإن أردتم القتل فشأنكم، فأعلموا المنتصر ، ثم عادوا بغلظة وشدة، وأخذوا المعتز بعنف، وأدخلوه بيتاً، وأغلقوا عليه الباب، فلما رأى المؤيد ذلك قال لهم بجرأة واستطالة : ما هذا يا كلاب ؟ قد ضريتم على دمائنا، تثبون على مولاكم هذا الوثوب، دعونى وإياه حتى أكلمه ! فسكتوا عنه، وأذنوا له فى الاجتماع به بعد إذن من المنتصر بذلك .

فدخل عليه المؤيد وقال : يا جاهل تراهم نالوا من أبيك، وهوهو، ما نالوا، ثم تمتنع عليهم ؟ اخلع ويلك، لا تراجعهم ! فقال : وكيف أخلع وقد جرى فى الآفاق؟ فقال : هذا الأمر قتل أباك، وهويقتلك، وإن كان فى سابق علم الله أن تلى لتلين. فقال : أفعل .

فخرج المؤيد وقال : قد أجاب إلى الخلع، فمضوا، وأعلموا المنتصر ، وعادوا فشكروه، ومعهم كاتب، فجلس، فقال للمعتز :اكتب بخطك خلعك ! فامتنع، فقال المؤيد للكاتب : هات قرطاسك ! أملل على ما شئت، فأملى عليه كتاباً إلى المنتصر يعلمه فيه ضعفه عن هذا الأمر، وأن لا يحل له أن يتقلده، وكره أن يأثم المتوكل بسببه، إذ لم يكن موضعاً له، ويسأله الخلع، ويعلمه أنه قد خلع نفسه، وأحل الناس من بيعته، فكتب ذلك، وقال للمعتز : اكتب ! فأبى، فقال : اكتب ويلك ! فكتب وخرج الكاتب عنهما، ثم دعاهما، فدخلا على المنتصر ، فأجلسهما وقال : هذا كتابكما ؟ فقالا : نعم يا أمير المؤمنين . فقال لهما، والأتراك وقوف : أترانى خلعتكما طمعاً فى أن أعيش حتى يكبر ولدى وأبايع له ؟ والله ما طمعت فى ذلك ساعةً قط، وإذا لم يكن لى فى ذلك طمع فوالله لأن يليها بنوأبى أحب إلى من أن يليها بنوعمى، ولكن هؤلاء، وأومأ إلى سائر الموالى ممن هوقائم عنده وقاعد، ألحوا على فى خلعكما، فخفت إن لم أفعل أن يعترضكما بعضهم بحديدة فيأتى عليكما، فما تريانى صانعاً إذن ؟ أقتله ! فوالله ماتفى دماؤهم كلهم بدم بعضكم، فكانت إجابتهم إلى ما سألوا أسهل على .

فقبلا يده وضمهما ثم إنه أشهدا على أنفسهما القضاة، وبنى هاشم، والقواد، ووجوه الناس، وغيرهم، بالخلع، وكتب بذلك المنتصر إلى محمد بن عبد الله بن طاهر وإلى غيره .

ذكر موت المنتصر، وبعض سيرته، ثم خلافة المستعين.

ثم دخلت سنة إحدى وخمسين ومائتين

ذكر قتل باغر التركى

وفى هذه السنة قتل باغر التركى، قتله وصيف وبغا .

وكان سبب أن باغراً كان أحد قتلة المتوكل، فيزيد فى أرزاقه، فأقطع قطائع، فكان مما أقطع قرى بسواد الكوفة، فتضمنها رجل من أهل باروسما بألفى دينار، فوثب رجل من أهل تلك الناحية، يقال له ابن مارمة، بوكيل لباغر، وتناوله، فحبس ابن مارمه، وقيد، ثم تخلص، وسار إلى سامراء، فلقى دليل بن يعقوب النصرانى، وهويومئذ صاحب أمر بغا الشرابى والحاكم فى الدولة، كان ابن مارمة صديقاً له، وكان باغر أحد قواد بغا، فمنعه دليل من ظلم أحمد بن مارمة، فانتصف له منه، فغضب باغر وباين دليلاً.

وكان باغر شجاعاً يتقيه بغا وغيره، فحضر عنده بغا فى ذى الحجة من سنة خمسين ومائتين وهوسكران، وبغا فى الحمام، فدخل إليه وقال : من قتل دليلاً يقتل به، فقال له بغا : لوأردت ولدى ما منعتك منه .

ولكن اصبر فإن أمور الخلافة بيد دليل، وأقيم غيره، ثم افعل به ما تريد .

وأرسل بغا إلى دليل يأمره ألا يركب، وعرفه الخبر، وأقام فى كتابته غيره، وتوهم باغر أنه قد عزله، فسكن باغر، ثم أصلح بينهما بغا، وباغر يتهدده، ولزم باغر خدمة المستعين، فقيل ذلك للمستعين .

فلما كان يوم نوة بغا فى منزله قال المستعين : أى شىء كان إلى إيتاخ من الخدمة ؟ فأخبره وصيف، فقال : له : أنت فى بيتك، وهم فى تدبير عزلك، فإذا عزلت قتلت.

فركب بغا إلى دار الخليفة فى يومه، وقال لوصيف : أردت أن تعزلنى ؟

فحلف أنه ما علم ما أردا الخليفة، فتعاقدا على تنحية باغر من الدار والحيلة عليه، فأرجفا له أنه يؤمر، ويخلع عليه، ويكون موضع بغا ووصيف، فأحسن باغر ومن معه بالشر، فجمع إليه الجماعة الذين كانوا بايعوه على قتل المتوكل، ومعهم غيرهم، فجدد العهد عليهم فى قتل المستعين وبغا ووصيف، وقال : نبايع على ابن المعتصم، أوابن الواثق، ويكون الأمر لنا كما هولهذين، فأجابوه إلى ذلك .

وانتهى الخبر إلى المستعين، فبعث إلى بغا ووصيف، وقال لهما : أنتما جعلتمانى خليفة، ثم تريدان قتلى ؟ فحلفا أنهما ما علما بذلك، فأعلمهما الخبر، فاتفق رأيهم على أخذ باغر ورجلين من الأتراك معه، وحبسهم، فأحضروا باغر فأقبل فى عدة، فعدل به إلى حمام وحبس فيه .

وبلغ الخبر الأتراك، فوثبوا على إصطبل الخليفة، فانتهبوه وركنوا ما فيه، وحصروا الجوسق بالسلاح، فأمر بغا ووصيف بقتل باغر فقتل .

ذكر مسير المستعين إلى بغداد

فلما قتل باغر وانتهى خبر قتله إلى الأتراك المشغبين أقاموا على ما هم عليه، فانحدر المستعين وبغا ووصيف وشاهك الخادم وأحمد بن صالح بن شيرزاد ودليل إلى بغداد فى حراقة، فركب جماعة من قواد الأتراك إلى هؤلاء المشغبين فسألوهم الانصراف، فلم يفعلوا، فلما علموا بانحدار المستعين وبغا ووصيف ندموا، ثم قصدوا دار دليل، ودور أهله وجيرانه، فنهبوها، حتى صاروا إلى أخذ الخشب وعليق الدواب، فلما قدموا بغداد مرض ابن مارمة، فعاده دليل وقال له : ما سبب علتك ؟

قال: انتقض عقر القيد، فقال دليل :

لئن عقرك القيد لقد نقضت الخلافة، وبغيت الفتنة، ومات ابن مارمة فى تلك الأيام، وقال بعض الشعراء فى ذلك :

لعمرى لئن قتلوا باغراً ... لقد هاج باغر حرباً طحونا
وفر الخليفة والقائدا ... ن بالليل يلتمسون السفينا
وصاحوا بمنشار ملاحهم، ... فجاءهم يسبق الناظرينا
فألزمهم بطن حراقة ... وصوت مجانيفهم سائرينا
وما كان قدر ابن مارمة ... فنكسب فيه الحروب الزبونا
ولكن دليل سعى سعية ... فأخزى الإله بها العالمينا
فحل ببغداد قبل الشروق ... فحل بها منه ما يكرهونا
فليت السفينة لم تأتنا ... وغرقها الله والراكبينا
وأقبلت الترك والمغربون ... وجاء الفراغنة الدارعونا
تسير كراديسهم فى السلاح ... يرجون خيلاً ورجلاً ببنينا
فقام بحربهم عالم ... بأمر الحروب تولاه حينا
فجدد سوراً على الجانبين ... حتى أحاطهم أجمعينا
وأحكم أبوابها المصمتات ... على السور يحمى بها المستعينا
وهيا مجانيق خطارة ... تفيت النفوس، تحمى العرينا

ومنع الأتراك الناس من الانحدار إلى بغداد، وأخذوا ملاحاً قد أكرى سفينته، فضربوه، وصلبوه على دقلها، فامتنع أصحاب السفن من الانحدار إلا سراً .

وكان وصول المستعين إلى بغداد لخمس خلون من المحرم من هذه السنة، فنزل على محمد بن عبد الله بن طاهر فى داره، ثم وافى بغداد القواد، سوى جعفر الخياط، وسليمان بن يحيى بن معاذ، وقدمها جلة الكتاب والعمال وبنى هاشم، وجماعة من أصحاب بغا ووصيف .

ذكر البيعة للمعتز بالله

وفى هذه السنة بويع للمعتز بالله، وكان سبب البيعة له أنه لما استقر المستعين ببغداد أتاه جماعة من قواد الأتراك المشغبين، فدخلوا عليه، وألقوا أنفسهم بين يديه، وجعلوا مناطقهم فى أعناقهم تذللاً وخضوعاً، وسألوه الصفح عنهم والرضا.

قال لهم : أنتم أهل بغى وفساد، واستقلال للنعم، ألم ترفعوا إلى فى أولادكم فألحقهم بكم، وهم نحومن ألفى غلام، وفى بناتكم فأمرت بتصييرهن فى عداد المتزوجات، وهن نحومن أربعة آلاف، وغير ذلك كله أجبتكم إليه، وأدررت عليكم الأرزاق، فعملتم آنية الذهب والفضة، ومنعت نفسى لذتها وشهوتها إرادة لصلاحكم ورضاكم، وأنتم تزدادون بغياً وفساداً، فعادوا وتضرعوا، وسألوه العفو، فقال المستعين : قد عفوت عنكم ورضيت .

فقال له أحدهم، واسمه بابى بك : فإن كنت قد رضيت فقم فاركب معنا إلى سامرا، فإن الأتراك ينتظرونك . فأمر محمد بن عبد الله بعض أصحابه فقام إليه فضربه، وقال محمد : هكذا يقال لأمير المؤمنين قم فاركب معنا !

فضحك المستعين وقال : هؤلاء قوم عجم لا يعرفون حدود الكلام، وقال لهم المستعين :

ترجعون إلى سامرا، فإن أرزقكم دارة عليكم، وأنظر أنا فى أمرى .

فانصرفوا آيسين منه، وأغضبهم ما كان من محمد بن عبد الله إلى بابى بك، وأخبروا من وراءهم خبرهم، وزادوا، وحرقوا تحريضاً لهم على خلعه، فاجتمع رأيهم على إخراج المعتز، وكان هووالمؤيد فى حبس الجوسق، وعليهما من يحفظهما، فأخرجوا المعتز من الحبس، وأخذوا من شعره، وكان قد كثر، وبايعوا له بالخلافة، وأمر للناس برزق عشرة أشهر للبيعة، فلم يتم المال، فأعطوا شهرين لقلة المال عندهم .

وكان المستعين خلف بيت المال بسامرا فيه نحوخمس مائة ألف دينار، وفى بيت مال أم المستعين قيمة ألف ألف دينار، وفى بيت مال العباس قيمة ستمائة ألف دينار .

وكان فيمن أحضر للبيعة أبوأحمد بن الرشيد وبه نقرس، فى محفة محمولاً، فأمر بالبيعة فامتنع، وقال للمعتز :

خرجت إلينا طائعاً، فخلعتها وزعمت أنك لا تقوم بها، فقال المعتز : أكرهت على ذلك، وخفت السيف. فقال أبوأحمد : ما علمنا أنك أكرهت، وقد بايعنا هذا الرجل، فتريد أن تطلق نساءنا، وتخرج عن أموالنا، ولا ندرى ما يكون إن تركتنى على أمرى حتى يجتمع الناس، وإلا فهذا السيف. فتركه المعتز .

وكان ممن بايع إبراهيم الديرج، وعتاب بن عتاب، فأما عتاب فهرب إلى بغداد، وأما الديرج فأقر على الشرط، واستعمل على الدواوين وبيت المال، والكتابة وغير ذلك .

ولما اتصل بمحمد بن عبد الله خبر بيعة المعتز وتوجيه العمال أمر بقطع الميرة عن أهل سامرا، وكتب إلى مالك بن طوق فى المسير إلى بغداد هووأهل بيته وجنده، وكتب إلى نجوبة بن قيس وهوعلى الأنبار فى الاحتشاد والجمع، وإلى سليمان بن عمران الموصلى فى منع السفن والميرة عن سامرا، فأخذت سفينة ببغداد فيها أرز وغيره، فهرب الملاح وبقيت السفينة حتى غرقت .

وأمر المستعين محمد بن عبد الله بتحصين بغداد، فتقدم فى ذلك، فأدير عليها السور من دجلة من باب الشماسية إلى سوق الثلاثاء، حتى أورده دجله وأمر بحفر الخنادق من الجانبين جميعاً، وجعل على كل باب قائداً، فبلغت النفقة على ذلك جميعه ثلاثمائة ألف وثلاثين ألف دينار، ونصب على الأبواب المنجنيقات والعرادات وشحن الأسوار، وفرض فرضاً للعيارين وجعل عليهم عريفاً اسمه بينويه، وعمل لهم تراساً من البوارى المقيرة، وأعطاهم المخالى ليجعلوا فيها الحجارة للرمى، وفرض أيضاً لقوم من خراسان قدموا حجاجاً فسئلوا المعونة فأعانوا .

وكتب المستعين إلى عمال الخراج بكل بلدة أن يكون حملهم الخراج والأموال إلى بغداد، لا يحمل منها إلى سامرا شىء، وكتب إلى الأتراك، والجند الذين بسامرا، يأمرهم بنقض بيعة المعتز، ومراجعة الوفاء له، ويذكرهم أياديه عندهم، وينهاهم عن المعصية والنكث .

ثم جرت بين المعتز ومحمد بن عبد الله مكاتبات ومراسلات يدعوالمعتز محمداً إلى المبايعة ويذكرهما ما كان المتوكل أخذ له البيعة من بعد المنتصر ، ومحمد يدعوالمعتز إلى الرجوع إلى طاعة المستعين، واحتج كل واحد منهما على صاحبه .

وأمر محمد بكسر القناطر، وشق المياه بسطوح الأنبار وبادوريا ليقطع الأتراك عن الأنبار، وكتب المستعين والمعتز إلى موسى بن بغا، كل واحد منهما يدعوه إلى نفسه، وكان بأطراف الشام، كان خرج لقتال أهل حمص، فانصرف إلى المعتز، وصار معه، وقدم عبد الله بن بغا الصغير من سامرا إلى المستعين، وكان قد تخلف بعد أبيه، فاعتذر، وقال لأبيه : إنما قدمت لأموت تحت ركابك، فأقام ببغداد أياماً، ثم هرب إلى سامرا، فاعتذر إلى المعتز، وقال : إنما سرت إلى بغداد لأعلم أخبارهم وآتيك بها . فقبله المعتز، ورده إلى خدمته .

وورد الحسن بن الأفشين بغداد، فخلع عليه المستعين، وضم إليه جمعاً من الأشروسنية وغيرهم .

وذكر حال الأنبار، وغزوالفرنج بالأندلس.

ثم دخلت سنة اثنتين وخمسين ومائتين

ذكر خلع المستعين

فى هذه السنة خلع المستعين أحمد بن المعتصم نفسه من الخلافة، وبايع للمعتز بالله بن المتوكل، وخطب للمعتز ببغداد يوم الجمعة لأربع خلون من المحرم، وأخذ له البيعة على كل من بها من الجند .

وكان ابن طاهر قد دخل على المستعين ومعه سعيد بن حميد، وقد كتب شروط الأمان، فقال له : يا أمير المؤمنين ! قد كتب سعيد كتاب الشروط، فأكده غاية التوكيد، فنقرأه عليك لتسمعه، فقال المستعين : لا حاجة لى إلى توكيدها، فما القوم بأعلم بالله منك، ولقد أكدت على نفسك قبلهم فكان ما علمت . فما رد عليه محمد شيئاً .

فلما بايع المستعين للمعتز، وأشهد عليه بذلك، نقل من الرصافة إلى قصر الحسن بن سهل بالمحرم ومعه عياله وأهله جميعاً، ووكل بهم، وأخذ منه البردة، والقضيب، والخاتم، ووجه مع عبد الله بن طاهر، ومنع المستعين من الخروج إلى مكة، فاختار المقام بالبصرة، فقيل له، إن البصرة وبية، فقال : هى أوبأ أو ترك الخلافة!.

ولست خلون من المحرم دخل بغداد أكثر من مائتى سفينة فيها صنوف التجارات وغنم كثير .

وفيها سير المستعين إلى واسط، واستوزر المعتز أحمد بن أبى إسرائيل، وخلع عليه، ورجع أبوأحمد إلى سامرا لاثنتى عشرة خلت من المحرم، فقال بعض الشعراء فى خلع المستعين :

خلع الخليفة أحمد بن محمد	وسيقتل التالى له أويخلع
ويزول ملك بنى أبيه ولا يرى	احد تملك منهم يستمتع
إيهاً بنى العباس إن سبيلكم	فى قتل أعبدكم سبيل مهيع
رقعتم دنياكم فتمزقت	بكم الحياة تمزقاً لا يرقع

وقال الشعراء فى خلعه كالبحترى، ومحمد بن مروان بن أبى الجنوب وغيرهما فأكثروا .

وفيها لسبع بقين من المحرم انصرف أبوالساج ديوداد بن ديودست إلى بغداد، فقلده محمد بن عبد الله معاون ما سقى الفرات من السواد، فسير نوابه إليها لطرد الأتراك والمغاربة عنها، ثم سار أبوالساج إلى الكوفة .

ذكر حال وصيف وبغا

وفيها كتب المعتز إلى محمد بن عبد الله فى إسقاط اسم وصيف وبغا ومن معهما من الدواوين، وكان محمد بن أبى عون، وهوأحد قواد محمد بن عبد الله، قد وعد أبا أحمد أن يقتل بغا ووصيفاً، فعقد له المعتز على اليمامة، والبحرين،

والبصرة، فكتب قوم من أصحاب بغا ووصيف إليهما بذلك، وحذروهما محمد بن عبد الله، فركبا إلى محمد، وعرفاه ما ضمنه ابن أبى عون من قتلهما، وقال بغا، إن القوم قد غدروا، وخافوا ما فارقونا عليه، والله لوأرادوا أن يقتلونا ما قدروا عليه .

فكفه وصيف وقال : نحن فى بيوتنا حتى يجىء من يقتلنا ! ورجعا إلى منزلهما، وجمعا جندهما، ووجه وصيف أخته سعاد إلى المؤيد، وكان فى حجرها، فكلم المؤيد المعتز فى الرضاء عنه، فرضى عن وصيف، وكتب إليه بذلك، وتكلم أبوأحمد بن المتوكل فى بغا، فكتب إليه بالرضاء عنه، وهما ببغداد، ثم تكلم الأتراك بإحضارهما إلى سامرا، فكتب إليهما بذلك، وكتب إلى محمد ليمنعهما من ذلك، فأتاهما كتاب إحضارهما، فأرسلاه إلى محمد بن عبد الله يستأذنانه، وخرج وصيف وبغا وفرسانهما وأولادهما فى نحو أربع مائة إنسان، وخلفا الثقل والعيال، فوجه ابن طاهر إلى باب الشماسية من يمنعهم، فمضوا إلى باب خراسان، وخرجوا منه، ووصلا سامرا، ورجعا إلى منزلهما من الخدمة، وخلع عيهما، وعقد لهما على أعمالهما، ورد البريد إلى موسى بن بغا الكبير .

ذكر خلع المؤيد وقتله،وقتل المستعين،وذكر الفتنة بين الأتراك والمغاربة.

ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين ومائتين

ذكر قتل وصيف

وفيها قتل وصيف، وكان سبب قتله أن الأتراك والفراغنة والأشروسنية شغبوا، وطلبوا أرزاقهم لأربعة أشهر، فخرج إليهم بغا ووصيف وسيما، فكلمهم وصيف فقال لهم : خذوا التراب، ليس عندنا مال، وقال بغا : نعم ! نسأل أمير المؤمنين ونتناظر فى دار أشناس . فدخلوا دار أشناس .

ومضى سيما وبغا إلى المعتز، وبقى وصيف فى أيديهم، فوثب عليه بعضهم فضربه بالسيف، ووجأه آخر بسكين، ثم ضربوه بالطبرزينات حتى قتلوه، وأخذوا

رأسه ونصبوه على محراك تنور، وجعل المعتز ما كان إلى وصيف إلى بغا الشرابى، وهوبغا الصغير، وألبسه التاج والوشاحين .

ذكر الفتنة بأعمال الموصل، وابتداء دولة يعقوب الصفار.

ثم دخلت سنة أربع وخمسين ومائتين

ذكر مقتل بغا الشرابى

وفيها قتل بغا الشرابى، وكان سبب قتله أنه كان يحرض المعتز على المسير إلى بغداد، والمعتز يأبى ذلكِ ويكرهه، فاتفق أن بغا اشتغل بتزويجه ابنته من صالح بن وصيف، فركب المعتز ومعه أحمد بن إسرائيل إلى كرخ سامرا، إلى بابكيال التركى ومن معه من المنحرفين عن بغا .

وكان سبب انحرافه عنه أنهما كانا على شراب لهما، فعربد أحدهما على الآخر، فاختفى بابكيال من بغا، فلما أتاه المعتز اجتمع معه أهل الكرخ وأهل الدور ثم أقبلوا مع المعتز إلى الجوسق بسامرا،، بلغ ذلك بغا، فخرج فى غلمانه وهم زهاء خمس مائة إنسان من ولده وقواده، فسار إلى السن، فشكا أصحابه بعضهم إلى بعض ما هم فيه من العسف، وأنهم خرجوا بغير مضارب ولا ما يلبسونه فى البرد، وأنهم فى شتاء، فأتاه بعض أصحابه وأخبره بقولهم، فقال : دعنى حتى أنظر الليلة .

فلما جن عليه الليل ركب فى زورق، ومعه خادمان، وشىء من المال الذى صحبه، وكان قد صحبه تسع عشرة بدرة دنانير، ومائة بدرة دراهم، ولم يحمل معه سلاحاً، ولا سكيناً، ولا شيئاً، ولم يعلم به أحد من عسكره .

وكان المعتز، فى غيبة بغا، لا ينام إلا فى ثيابه وعليه السلاح، فسار بغا إلى الجسر فى الثلث الأول من الليل، فبعث الموكلون بالجسر ينظرون من هو، فصاح بالغلام فرجع، وخرج بغا فى البستان الخاقانى، فلحقه عدة من الموكلين، فوقف لهم بغا وقال : أنا بغا، إما أن تذهبوا معى إلى صالح بن وصيف، وإما أن تصيروا

معى حتى أحسن إليكم، فتوكل به بعضهم، وأرسلوا إلى المعتز بالخبر، فأمر بقتله، فقتل، وحمل رأسه إلى المعتز، ونصب بسامرا، وببغداد، وأحرقت المغاربة جسده، وكان أراد أن يختفى عند صالح بن وصيف، فإذا اشتغل الناس بالعيد، وكان قد قرب، خرج هو وصالح، ووثبوا بالمعتز .

ذكر ابتداء حال أحمد بن طولون

كانت ديار مصر قد أقطعها بابكيال، وهومن أكابر قواد الأتراك، وكان مقيماً بالحضرة، واستخلف بها من ينوب عنه بها .

وكان طولون والد أحمد بن طولون أيضاً من الأتراك، وقد نشأ هو بعد والده، على طريقة مستقيمة، وسيرة حسنة، فالتمس بابكيال من يستخلفه، بمصر، فأشير عليه بأحمد بن طولون، لما ظهر عنه من حسنْ السيرة، فولاه وسيره إليها .

وكان بها ابن المدبر على الخراج، وقد تحكم فى البلد، فلما قدمها أحمد كف يد ابن المدبر، واستولى على البلد، وكان بابكيال قد استعمل أحمد بن طولون على مصر وحدها سوى باقى الأعمال كالإسكندرية وغيرها، فلما قتل المهتدى بابكيال وصارت مصر لياركوج التركى، وكان بينه وبين أحمد بن طولون مودة متأكدة، استعمله على ديار مصر جميعها، فقوى أمره، وعلا شأنه ودامت أيامه، ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (الجمعة/٤) .

ثم دخلت سنة خمس وخمسين ومائتين

ذكراستيلاء يعقوب بن الليث الصفار على كرمان.

ذكر خلع المعتز وموته

وفيها، فى يوم الأربعاء، لثلاث بقين من رجب، خلع المعتز، ولليلتين خلتا من شعبان ظهر موته .

وكان سبب خلعه أن الأتراك لما فعلوا بالكتاب ما ذكرناه، ولم يحصل منهم مال، ساروا إلى المعتز يطلبوا أرزاقهم، وقالوا : أعطنا أرزاقنا حتى نقتل صالح

بن وصيف، فلم يكن عنده ما يعطيهم، فنزلوا معه إلى خمسين ألف دينار، فأرسل المعتز إلى أمه يسألها أن تعطيه مالاً ليعطيهم، فأرسلت إليه : ما عند شيء .

فلما رأى الأتراك أنهم لا يحصل لهم من المعتز شيء، ولا من أمه، وليس فى بيت المال شيء، اتفقت كلمتهم، وكلمة المغاربة، والفراغنة، على خلع المعتز، فساروا إليه وصاحوا، فدخل إليه صالح، ومحمد بن بغا المعروف بأبى نصر، وبابكيال فى السلاح، فجلسوا على بابه، وبعثوا إليه أن اخرج إلينا، فقال : قد شربت أمس دواء، وقد أفرط فى العمل، فإن كان أمر لا بد منه فليدخل بعضكم! وهويظن أن أمره واقف على حاله، فدخل إليه جماعة منهم، فجروه برجله إلى باب الحجرة، وضربوه بالدبابيس، وخرقوا قميصه، وأقاموه فى الشمس فى الدار فكان يرفع رجلاً ويضع أخرى لشدة الحر، وكان بعضهم يلطمه وهويتقى بيده، وأدخلوه حجرة، وأحضروا ابن أبى الشوارب وجماعة أشهدوهم على خلعه، وشهدوا على صالح بن وصيف أن للمعتز وأمه وولد وأخته الأمان .

وكانت أمه قد اتخذت فى دارها سرداباً، فخرجت منه هى وأخت المعتز، وكانوا أخذوا عليها الطريق، ومنعوا أحداً يجوز إليها، وسلموا المعتز إلى من يعذبه، فمنعه الطعام والشراب ثلاثة أيام، فطلب حسوة من ماء البئر، فمنعوه، ثم أدخلوه سرداباً، وجصصوا عليه فمات، فلما مات أشهدوا على موته بنى هاشم والقواد، وأنه لا أثر فيه، ودفنوه مع المنتصر .

وكانت خلافته من لدن بويع إلى أن خلع أربع سنين وستة أشهر وثلاثة وعشرين يوماً، وكان عمره كله أربعاً وعشرين سنة، وكان أبيض، أسود الشعر، كثيفه، حسن العينين والوجه، أحمر الوجنتين، حسن الجسم طويلاً، وكان مولده بسر من رأى، وكان فصيحاً، فمن كلامه لما سار المستعين إلى بغداد، وقد أحضر جماعة للرأى، فقال لهم : أما تنظرون إلى هذه العصابة التى ذاع نفاقها؟ الهمج، العصاة، الأوغاد الذين لا مسكة بهم، ولا اختيار لهم، ولا تمييز معهم، قد زين لهم

تقحم الخطأ سوء أعمالهم، فهم الأقلون وإن كثروا، والمذمون إذا ذكروا، وقد علمت أنه لا يصلح لقواد الجيوش، وسد الثغور، وإبرام الأمور، وتدبير الأقاليم، إلا رجل قد تكاملت فيه خصال أربع حزم يتقى به عند موارد الأمور حقائق مصادرها، وعلم يحجره عن التهور والتغرير فى الأشياء إلا مع إمكان فرصتها، وشجاعة لا تفضها الملمات مع تواتر حوائجها، وجود يهون تبذير الأموال عند سؤالها، وسرعة مكافأة الإحسان، إلى صالح الأعوان، وثقل الوطأة على أهل الزيغ والعدوان، والاستعداد للحوادث إذا لا تؤمن حوادث الزمان .

وأما الاثنتان فإسقاط الحجاب عن الرعية، والحكم بين القوى والضعيف بالسوية.

وأما الواحدة فالتيقظ للأمور، وقد اخترت لهم رجلاً من موالى أحدهم شديد الشكيمة، ماضى العزيمة، لا تبطره السراء، ولا تدهشه الضراء، ولا يهاب ما وراء، ولا يهوله ما يلقاه، فهو كالحريش فى أصل الإسلام إن حرك حمل، وإن نهش قتل، عدته عتيدة، ونعمه شديدة، يلقى الجيش فى النفر القليل العديد، بقلب أشد من الحديد، طالب للثأر لا تفله العساكر، باسل البأس، ومقتضب الأنفاس، لا يعوزه ما طلب، ولا يفوته من هرب، وارى الزناد مضطلع العماد، لا تشرهه الرغائب، ولا تعجزه النوائب، وإن ولى كفى، وإن قال وفى، وإن نازل فبطل، وإن قال فعل، ظلمه لوليه ظليل، وبأسه فى الهياج عليه دليل، يفوق من ساماه، ويعجزه من ناواه، ويتعب من جاراه، وينعش من والاه .

ثم ذكر خلافة المهتدى، وذكر الشغب ببغداد.

ذكر ظهور قبيحة أم المعتز

قد ذكرنا استتارها عند قتل ابنها، وكان السبب فى هربها وظهورها أنها كانت قد واطأت النفر من الكتاب الذين أوقع بهم صالح، فلما أوقع بهم، وعذبهم، علمت أنهم لا يكتمون عنه شيئاً، فأيقنت بالهلاك، فعلمت فى الخلاص، وأخرجت ما فى الخزائن إلى خارج الجوسق من الأموال، والجواهر، وغيرها،

فأودعته، واحتالت، فحفرت سرداباً فى حجرة لها إلى موضع يفوت التفتيش، فلما خرجت الحادثة على المعتز بادرت فخرجت فى ذلك السرداب، فلما فرغوا من المعتز طلبوها فلم يجدها، ورأوا السرداب، فخرجوا منه، فلم يقفوا على خبرها، وبحثوا عنها فلم يظفروا بها .

ثم إنها فكرت أن ابنها قتل، وأن الذى تختفى عنده يطمع فى مالها وفى نفسها ويقترب بها إلى صالح، فأرسلت امرأة عطارة إلى صالح ابن وصيف، فتوسطت الحال بينهما، وظهرت فى رمضان، وكانت لها أموال ببغداد، فأحضرتها، وهى مقدار خمسمائة ألف دينار، وظفروا لها بخزائن تحت الأرض فيها أموال كثيرة، ومن جملتها دار تحت الأرض، وجدوا فيها ألف دينار وثلاثمائة ألف دينار، ووجدوا، فى سفط، قدر مكوك زمرد لم ير الناس مثله، وفى سفط آخر مقدار مكوك من اللؤلؤ الكبار، وفى سفط مقدار كيلجة من الياقوت الأحمر الذى لم يوجد مثله، فحمل الجميع إلى صالح، فسبها، وقال : عرضت ابنها للقتل فى خمسين ألف دينار، وعندها هذه الأموال كلها !

ثم سارت قبيحة إلى مكة، فسمعت وهى تدعو بصوت عال على صالح ابن وصيف، وتقول : اللهم أخز صالحاً كما هتك سترى، وقتل ولدى، وشتت شملى، وأخذ مالى، وغربتى عن بلدى، وركب الفاحشة منى، وأقامت بمكة .

وكان المتوكل سماها قبيحة لحسنها وجمالها، كما يسمى الأسود كافوراً .

قال : وكانت أم المهتدى قد ماتت قبل استخلافه، وكانت تحت المستعن، فلما قتل جعلها المعتز فى قصر الرصافة، فماتت، فلما ولى المهتدى قال : أما أنا فليس لى أم أحتاج لها غلة عشرة آلاف دينار فى كل سنة لجواريها، وخدمها، والمتصلين بها، وما أريد إلا القوت لنفسى وولدى، وما أريد فضلاً إلا لإخواتى، فإن الضائقة قد مستهم .

ثم دخلت سنة ست وخمسين ومائتين

ذكر خلع المهتدى وموته

فى رجب، الخامس عشر منه، خلع المهتدى، وتوفى لاثنتى عشرة ليلة بقيت منه.

وكان السبب فى ذلك أن أهل الكرخ والدور من الأتراك، الذين تقدم ذكرهم، تحركوا فى أول رجب لطلب أرزاقهم، فوجه المهتدى إليهم أخاه أبا القاسم، وكيغلغ وغيرهما، فسكتوهم، فرجعوا، وبلغ أبا نصر محمد بن بغا أن المهتدى قال للأتراك : إن الأموال عند محمد وموسى ابنى بغا، فهرب إلى أخيه وهوبالسن مقابل مساور الشارى، فكتب المهتدى إليه أربعة كتب يعطيه الأمان، فرجع هووأخوه حيسون، فحبسهما، ومعهما كيغلغ، وطولب أبونصر محمد بن بغا بالأموال، فقبض من وكيله خمسة عشر ألف دينار، وقتل لثلاث خلون من رجب، ورمى به فى بئر فأنتن، فأخرجوه إلى منزله، وصلى عليه الحسن بن المأمون .

وكتب المهتدى إلى موسى بن بغا، لما حبس أخاه، أن يسلم العسكر إلى بابكيال ويرجع إليه، وكتب إلى بابكيال أن يتسلم العسكر، ويقوم بحرب مساور الشارى، وقتل موسى بن بغا ومفلح، فسار بابكيال بالكتاب إلى موسى، فقرأه عليه وقال : لست أفرح بهذا، فإنه تدبير علينا جميعاً، فما ترى ؟ فقال موسى : أرى أن تسير إلى سامرا، وتخبره أنك فى طاعته ونصرته علىّ وعلى مفلح، فهو يطمئن إليك، ثم تدبر فى قتله .

فأقبل إلى سامرا، فوصلها ومعه ياركوج، وأسارتكين، وسيما الطويل، وغيرهم، فدخلوا دار الخلافة لاثنتى عشرة مضت من رجب، فحبس بابكيال وصرف الباقين، فاجتمع أصحاب بابكيال وغيرهم من الأتراك، وقالوا : لم حبس قائدنا، ولم قتل أبونصر بن بغا ؟

وكان عند المهتدى صالح بن على بن يعقوب بن المنصور، فشاوره فيه، فقال له: إنه لم يبلغ أحد من آبائك ما بلغته من الشجاعة، وقد كان أبومسلم أعظم شأناً عند أهل خرسان من هذا عند أصحابه، وقد كان فيهم من يعبده، فما كان إلا أن طرح رأسه حتى سكتوا، فلوفعلت مثل ذلك سكتوا .

فركب المهتدى، وقد جمع له جميع المغاربة، والأتراك، والفراغنة، فصير فى الميمنة مسروراً البلخى، وفى الميسرة ياركوج، ووقف هو فى القلب مع أسارتكين وطبايغوا، وغيرهما من القود، فأمر بقتل بابكيال، وألقى رأسه إلى عتاب بن عتاب، فحملوا على عتاب فقتلوه، وعطفت ميمنة المهتدى وميسرته بمن فيها من الأتراك، فصاروا مع إخوانهم الأتراك، فانهزم الباقون عن المهتدى، وقتل جماعة من الفريقين، فقيل : قتل سبع مائة وثمانون رجلاً، وقيل : قتل من الأتراك نحو أربعة آلاف، وقيل : ألفان، وقيل : ألف .

وقيل من أصحاب المهتدى خلق كثير، وولى منهزماً، وبيده السيف، وهوينادى: يا معشر المسلمين ! أنا أمير المؤمنين، قاتلوا عن خليفتكم ! فلم يجبه أحد من العامة إلى ذلك، فسار إلى باب السجن، فأطلق من فيه وهويظن أنهم يعينونه، فهربوا ولم يعنه أحد، فسار إلى دار أحمد بن جميل، صاحب الشرطة، فدخلها وهم فى أثره، فدخلوا عليه وأخرجوه، وساروا به إلى الجوسق على بغل فحبس عند أحمد بن خاقان، وقبل المهتدى يده، فيما قيل، مراراً عديدة، وجرى بينهم وبينه، وهومحبوس، كلام كثير أرادوه فيه على الخلع، فأبى واستسلم للقتل، فقالوا : إنه كتب بخطه رقعة لموسى بن بغا، وبابكيال، وجماعة من القواد، أنه لا يغدر بهم، ولايغتالهم، ولا يفتك بهم بذلك، وأنه متى فعل ذلك فهم فى حل من بيعته، والأمر إليهم يقعدون من شاءوا .

فاستحلوا بذلك تقضى أمره، فداسوا خصيتيه، وصفقوه فمات، وأشهدوا على موته أنه سليم ليس به أثر، ودفن بمقبرة المنتصر .

وقيل : كان سبب خلعه وموته أن أهل الكرخ والدور اجتمعوا وطلبوا أن يدخلوا إلى المهتدى، ويكلموه بحاجاتهم، فدخلوا الدار، وفيها أبونصر محمد بن بغا وغيره من القواد، فخرج أبونصر منها، ودخل أهل الكرخ والدور، وشكوا حالهم إلى المهتدى ، وهم فى أربعة آلاف، وطلبوا منه أن يعزل منهم أمراءهم، وأن يصير الأمر إلى إخوته، وأن يأخذ القواد وكتاب المال الذى صار إليهم، فوعدهم بإجابتهم إلى ما سألوه، فأقاموا يومهم بالدار، فحمل المهتدى إليهم ما يأكلون .

وسار محمد بن بغا إلى المحمدية، وأصبحوا من الغد يطلبون ما سألوه فقيل لهم : إن هذا أمر صعب، وإخراج الأمر عن يد هؤلاء القواد ليس بسهل، فكيف إذا جمع إليه مطالبتهم بالأموال ؟ فانظروا فى أموركم، فانظروا فى أموركم، فإن كنتم تصبرون على هذا الأمر إلى أن نبلغ غايته، وإلا فأمير المؤمنين يحسن لكم النظر، فأبوا إلا ما سألوه، فدعوا إلى أيمان البيعة على أن يقيموا على هذا القول، وأن يقاتلوا من قاتلهم، وينصحوا أمير المؤمنين، فأجابوا إلى ذلك، فأخذت عليهم أيمان البيعة .

ثم كتبوا إلى أبى نصر عن أنفسهم، وعن المهتدى ينكرون خروجه عن الدار بغير سبب، وأنهم إنما قصدوا ليشكوا حالهم، ولما رأوا الدار فارغة أقاموا فيها، فرجع فحضر عند المهتدى، فقبل رجله ويده ووقف، فسأله عن الأموال وما يقوله الأتراك، فقال : وما أنا والأموال ؟ قال : وهل هى إلا عندك وعند أخيك وأصحابكما ؟ ثم أخذوا بيد محمد وحبسوه، وكتبوا إلى موسى بن بغا ومفلح بالانصراف إلى سامرا، وتسليم العسكر إلى قواد ذكروهم، وكتبوا إلى الأتراك الصغار فى تسلم العسكر منهما، وذكروا ما جرى لهم، وقالوا : إن أجاب موسى ومفلح إلى ما أمر به من الإقبال إلى سامرا وتسليم العسكر، وإلا فشدوهما وثاقاً، واحملوهم إلى الباب .

وأجرى المهتدى على من أخذت عليه البيعة كل رجل درهمين، فلما وصلت الكتب إلى عسكر أخذها موسى، وقرئت عليه وعلى الناس، وأخذوا عليهم البيعة بالنصرة لهم، وساروا نحوسامرا، فنزلوا عند قنطرة الرقيق لإحدى عشرة ليلة خلت من رجب، وخرج المهتدى وعرض الناس .

وعاد من يومه، وأصبح الناس من الغد وقد دخل من أصحاب موسى زهاء ألف فارس، منهم كويكين وغيره، وعاد وخرج المهتدى فصف أصحابه، وفيهم من أتى من أصحاب موسى، وترددت الرسل بينهم وبين موسى يريد أن يولى ناحية

ينصرف إليها، وأصحاب المهتدى يريدون أن يجىء إليهم ليناظرهم على الأموال، فلم يتفقوا على شىء .

وانصرف عن موسى خلق كثير من أصحابه، فعدل هوومفلح يريدان طريق خراسان، وأقبل بابكيال وجماعة من القواد، فوصلوا إلى المهتدى ، فسلموا، وأمرهم بالانصراف، وحبس بابكيال، وقتله، ولم يتحرك أحد، ولا تغير شىء إلا تغيراً يسيراً، وكان ذلك يوم السبت .

فلما كان الأحد أنكر الأتراك مساواة الفراغنة لهم فى الدار، ودخولهم معهم، ورفع أن الفراغنة إنما تم لهم هذا بعدم رؤساء الأتراك، فخرجوا من الدار بأجمعهم، وبقيت الدار على الفراغنة، والمغاربة، فأنكر الأتراك ذلك، وأضافوا إليه طلب بابكيال، فقال المهتدى للفراغنة والمغاربة ما جرى من الأتراك، وقال لهم : إن كنتم تظنون فيكم قوة فما أكره قربكم، وإلا أرضيناهم من قبل تفاقم الأمر ! فذكروا أنهم يقومون به، فخرج بهم المهتدى وهم فى ستة آلاف، منهم من الأتراك نحوألف وهم أصحاب صالح بن وصيف، وكان الأتراك فى عشرة آلاف، فلما التقوا انهزم أصحاب صالح، وخرج عليهم كمين للأتراك، فانهزم أصحاب المهتدى ، وذكر نحو ما تقدم إلا أنه قال إنهم لما رأوا المهتدى بدار أحمد بن جميل قاتلهم، فأخرجوه، وكان به أثر طعنة، فلما رأى الجرح ألقى بيده إليهم، وأرادوه على خلع، فأبى أن يجيبهم، فمات يوم الأربعاء وأظهروه للناس يوم الخميس، وصلى عليه جعفر بن عبد الواحد .

وكانوا قد خلعوا أصابع يديه ورجليه من كعبيه، وفعلوا به غير شىء حتى مات، وطلبوا محمد بن بغا، فوجدوه ميتاً، فكسروا على قبره ألف سيف .

وكانت مدة خلافة المهتدى أحد عشر شهراً وخمس عشرة ليلة، وكان عمره ثمانياً وثلاثين سنة، وكان واسع الجبهة، أسمر، رقيقاً، أشهل، جهم الوجه، عريض البطن، عريض المنكبين، قصيراً، طويل اللحية، ومولده بالقاطول .

ذكر بعض سيرة المهتدى

كان المهتدى بالله من أحسن الخلفاء مذهباً، وأجملهم طريقة، وأظهرهم ورعاً، وأكثرهم عبادة .

قال عبد الله بن إبراهيم الإسكافى : جلس المهدى للمظالم، فاستعداه رجل على ابن له، فأمر بإحضاره، فأحضر وأقامه إلى جانب خصمه ليحكم بينهما، فقال الرجل للمهتدى : والله يا أمير المؤمنين ما أنت إلا كما قيل :

حكمتموه فقضى بينكم   أبلج مثل القمر الزهر
لايقبل الرشوة فى حكمه   ولا يبالى غبن الخاسر

فقال المهتدى : أما أنت أيها الرجل فأحسن الله مقالتك، وأما أنا فما جلست حتى قرأت : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ (الأنبياء/ ٤٧)، قال : فما رأيت باكياً أكثر من ذلك اليوم .

قال أبوالعباس بن هاشم بن القاسم الهاشمى : كنت عند المهتدى بعض عشايا شهر رمضان، فقمت لأنصرف، فأمرنى بالجلوس، فجلست حتى صلى المهتدى بنا المغرب، وأمر بالطعام فأحضر، وأحضر طبق خلاف عليه رغيفان، وفى إناء ملح، وفى آخر زيت، وفى آخر خل، فدعانى إلى الأكل، وأكلت مقتصراً ظناً منى أنه يحضر طعاماً جيداً، فلما رأى أكلى كذلك قال : أما كنت صائماً ؟ قلت : بلى .

قال : أفلست تريد الصوم غداً ؟ قلت : وكيف لا وهو شهر رمضان ؟ فقال : كل واستوف عشاءك، فليس هاهنا غير ما ترى .

فعجبت من قوله، وقلت : ولم يا أمير المؤمنين ؟ قد أسبغ الله عليك النعمة ووسع رزقه ! فقال : إن الأمر على ما وصفت، والحمد لله، ولكنى فكرت فى أنه كان من بنى أمية عمر بن عبد العزيز، فغرت لبنى هاشم أن لا يكون فى خلفائهم مثله وأخذت نفسى بما رأيت .

قال إبراهيم بن مخلد بن محمد بن عرفة عن بعض الهاشميين : إن المهتدى وجدوا له سفطاً فيه جبة صوف، وكساء، وبرنس كان يلبسه بالليل ويصلى فيه، ويقول : أما يستحى بنوالعباس أن لا يكون فيهم مثل عمر بن عبد العزيز ؟ وكان قد اطرح الملاهى، وحرم الغناء والشراب ومنع أصحاب السلطان عن الظلم، رحمه الله تعالى ورضى عنه .

ومرة الأحداث يذكرها ابن الأثير من سنة سبع وخمسين ومائتين، إلى وفاة أحمد بن طولون وولاية ابنه خمارويه، وذلك سنة سبعين ومائتين.

ذكر وفاة أحمد بن طولون وولاية ابنه خمارويه

فى هذه السنة توفى أحمد بن طولون، صاحب مصر، والشام، والثغور الشامية.

وكان سبب موته أن نائبه بطرسوس وثب عليه بازمار الخادم، وقبض عليه، وعصى على أحمد، وأظهر الخلاف، فجمع أحمد العساكر وسار إليه، فلما وصل أَذَنَة كاتبه وراسله يستميله، فلم يلتفت إلى رسالته فسار إليه أحمد، ونازله وحصره، فخرق بازمار نهر البلد على منزلة العسكر، فكاد الناس يهلكون، فرحل أحمد مغيظاً حنقاً، وكان الزمان شتاء، وأرسل إلى بازمار : إننى لم أرحل إلا خوفاً أن تنخرق حرمة هذا الثغر فيطمع فيه العدو.

فلما عاد إلى أنطاكية أكل لبن الجواميس، فأكثر منه، فأصابه منه هيضة، واتصلت حتى صار منها ذرب، وكان الأطباء يعالجونه، وهويأكل سراً، فلم ينج الدواء، فتوفى رحمه الله .

وكانت إمارته نحوست وعشرين سنة وكان عاقلاً، حازماً، كثير المعروف والصدقة متديناً، يحب العلماء وأهل الدين، وعمل كثيراً من أعمال البر ومصالح المسلمين، وهوالذى بنى قلعة يافا، وكانت المدينة بغير قلعة، وكان يميل إلى مذهب الشافعى، ويكرم أصحابه .

وولى بعده ابنه خمارويه، وأطاعه القواد، وعصى عليه نائب أبيه بدمشق، فسير إليه العساكر فأجلوه، وساروا من دمشق إلى شيزر .

وسنة إحدى وسبعين ومائتين.

ذكر وقعة الطواحين

وفى هذه السنة كانت وقعة الطواحين بين أبى العباس المعتضد وبين خمارويه ابن أحمد بن طولون .

وسبب ذلك أن المعتضد سار من دمشق، بعد أن ملكها، نحوالرملة إلى عساكر خمارويه، فأتاه الخبر بوصول خمارويه إلى عساكره، وكثرة من معه من الجموع، فهم بالعود، فلم يمكنه من معه من أصحاب خمارويه الذين صاروا معه، وكان المعتضد قد أوحش ابن كنداجيق، وابن أبى الساج، ونسبهما إلى الجبن، حيث انتظراه ليصل إليها، ففسدت نياتهما معه .

ولما وصل خمارويه إلى الرملة نزل على الماء الذى عليه الطواحين، فملكه، فنسبت الوقعة إليه، ووصل المعتضد وقد عبأ أصحابه، وكذلك أيضاً فعل خمارويه، وجعل له كميناً عليهم سعيداً الأيسر، وحملت ميسرة المعتضد على ميمنة خمارويه، فانهزمت، فلما رأى ذلك خمارويه، ولم يكن رأى مصافاً قبله، ولى منهزماً فى نفر من الأحداث الذين علم لهم بالحرب ولم يقف دون مصر .

ونزل المعتضد إلى خيام خمارويه، وهولا يشك فى تمام النصر، فخرج الذين عليهم سعيد الأيسر، وانضاف إليه من بقى من جيش خمارويه، ونادوا بشعارهم، وحملوا على عسكر المعتضد وهم مشغلون بنهب السواد، ووضع المصريون السيف فيهم، وظن المعتضد أن خمارويه قد عاد، فركب فانهزم ولم يلوعلى شىء، فوصل إلى دمشق، ولم يفتح له أهلها بابها، فمضى منهزماً حتى بلغ طرسوس، وبقى العسكران يضطربان بالسيوف، وليس لواحد منها أمير .

وطلب سعيد الأيسر خمارويه فلم يجده، فأقام أخاه أبا العشائر، وتمت الهزيمة على العراقيين، وقتل منهم خلق كثير وأسر كثير .

وقال سعيد للعساكر : إن هذا أخو صاحبكم، وهذه الأموال تنفق فيكم، ووضع العطاء، فاشتغل الجند عن الشغب بالأموال، وسيرت البشارة إلى مصر، ففرح

خمارويه بالظفر، وخجل للهزيمة، غير أنه أكثر الصدقة، وفعل مع الأسرى فعلة لم يسبق إلى مثلها أحد قبله، فقال لأصحابه : إن هؤلاء أضيافكم فأكرموهم، ثم أحضرهم بعد ذلك وقال لهم : من اختار المقام عندى فله الإكرام والمواساة، ومن أراد الرجوع جهزناه وسيرناه، فمنهم من أقام ومنهم من سار مكرماً، وعادت عسكر خمارويه إلى الشام ففتحته أجمع، فاستقر ملك خمارويه له .

وفى سنة خمس وسبعين ومائتين

ذكر قبض الموفق على ابنه المعتضد بالله

فى هذه السنة، فى شوال، قبض الموفق على ابنه المعتضد بالله أبى العباس أحمد.

وسبب ذلك أن الموفق دخل إلى واسط ونزل بها، ثم عاد إلى بغداد، وتخلف المعتمد علىَ الله بالمدائن، وأمر الموافق ابنه أن يسير إلى بعض الوجوه، فقال : لا أخرج إلا إلى الشام لأنها الولاية التى ولانيها أمير المؤمنين .

فلما امتنع عليه أمر بإحضاره، فلما حضر أمر بعض خدمه أن يحبسه فى حجرة فى داره، فلما قام المعتضد تقدم إليه الخادم وأمره بدخول تلك الدار، فدخل ووكل به فيها .

وثار القواد من أصحابه ومن تبعهم وركبوا، واضطربت بغداد لما رأوا السلاح والقواد، فركب الموفق إلى الميدان وقال لهم : ما شأنكم ؟ أترون أنكم أشفق على ولدى منى، وقد احتجت إلى تقويمه ! فانصرفوا .

فى هذه السنة سار الطائى إلى سامرا بسبب صديق، فراسله وأمنه، ودخل سامرا فى جماعة من أصحابه، فأخذهم الطائى وقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وحملهم إلى بغداد .

وفيها غزا بازمار فى البحر، فغنم من الروم أربعة مراكب .

وذكر الاختلاف بين خمارويه وابن أبى الساج،وذكر الحرب بين ابن كنداج وابن أبى الساج.

ثم دخلت سنة ثمان وسبعين ومائتين

ـ ذكر الفتنة ببغداد

فيها كانت الحرب ببغداد بين أصحاب وصيف الخادم والبربر، وأصحاب موسى ابن أخت مفلح، أربعة أيام من المحرم، ثم اصطلحوا، وقد قتل بينهم جماعة، ثم وقع بالجانب الشرقى وقعة بين أصحاب يونس قتل فيها رجل، ثم انصرفوا.

ذكر وفاة الموفق

وفيها توفى أبوأحمد الموفق بالله بن المتوكل، وكان قد مرض فى بلاد الجبل، فانصرف وقد اشتد به وجع النقرس، فلم يقدر على الركوب، فعمل له سرير عليه قبة، فكان يقعد عليه هو وخادم له يبرد رجله بالأشياء الباردة، حتى إنه يضع عليها الثلج، ثم صارت علة برجله، داء الفيل، وهوورم عظيم يكون فى الساق، يسيل منه ماء، وكان يحمل سريره أربعون رجلاً بالنوبة، فقال لهم يوماً : قد ضجرتم من حملى، بودى أن أكون كواحد منكم أحمل على رأسى، وآكل وأنا فى عافية .

وقال فى مرضه :أطبق ديوانى على مائة ألف مرتزق، ما أصبح فيهم أسوأ حالاً منى، فوصل إلى داره لليلتين خلتا من صفر، وشاع موته بعد انصراف أبى الصقر من داره، وكان تقدم بحفظ أبى العباس، فأغلقت عليه أبواب دون أبواب، وقرى الإرجاف بموته، وكان قد اعترته غشية، فوجه أبوالصقر إلى المدائن، فحمل منها المعتمد وأولاده، فجىء بهم إلى دراه، ولم يسر أبوالصقر إلى دار الموفق .

فلما رأى غلمان الموفق المائلون إلى أبى العباس والرؤساء من غلمان أبى العباس ما نزل بالموفق، كسروا الأقفال والأبواب المغلقة على أبى العباس، فلما سمع أبوالعباس ذلك ظن أنهم يريدون قتله، وأخذ سيفه بيده، وقال لغلام عنده : والله لا يصلون إلى وفى شىء من الروح ! فلما وصلوا إليه رأى فى أولهم غلامه وصيفاً موشكير، فلما رآه ألقى السيف من يده، وعلم أنهم ما يريدون إلا الخير، فأخرجوه وأقعدوه عند أبيه، فلما فتح عينه رآه، فقربه وأدناه إليه .

وجمع أبوالصقر عند القواد والجند، وقطع الجسرين، وحاربه قوم من الجانب الشرقى، فقتل بينهم قتلى، فلما بلغ الناس أن الموفق حى حضر عنده محمد بن أبى الساج، وفارق أبا الصقر، وتسلل القواد والناس عن أبى الصقر، فلما رأى أبوالصقر ذلك حضر هووابنه دار الموفق، فلما قال له الموفق شيئاً مما جرى، فاقام فى دار الموفق، فلما رأى المعتمد أنه بقى فى الدار نزل هووبنوه وبكتمر، فركبوا زورقاً، فلقيهم طيار لأبى ليلى بن عبد العزيز بن أبى دلف، فحمله فيه إلى دار على بن جهشيار .

وذكر أعداء أبى الصقر أنه أراد أن يتقرب إلى المعتمد بمال الموفق وأسبابه، وأشاعوا ذلك عنه عند أصحاب الموفق، فنهبت دار أبى الصقر، حتى أخرجت نساؤه منها حفاة بغير أزر، ونهب ما يجاورها من الدور، وكسرت أبواب السجن وخرج من كان فيها .

وخلع الموفق على ابنه أبى العباس، وعلى أبى الصقر، وركبا جميعاً، فمضى أبوالعباس إلى منزله، وأبوالصقر إلى منزله وقد نهب، فطلب حصيرة يقعد عليها عارية، فولى أبوالعباس غلامه بدراً الشرطة، واستخلف محمد بن غانم بن الشاه على الجانب الشرقى .

ومات الموفق يوم الأربعاء لثمان بقين من صفر من هذه السنة، ودفن ليلة الخميس بالرصافة، وجلس أبوالعباس للتعزية .

وكان الموفق عادلاً، حسن السيرة، يجلس للمظالم وعنده القضاة وغيرهم، فينتصف الناس بعضهم من بعض، وكان عالماً بالأدب، والنسب، والفقه، وسياسة الملك، وغير ذلك، قال يوماً : إن جدى عبد الله بن العباس قال : إن الذباب ليقع على جليسى فيؤذينى ذلك، وهذا نهاية الكرم، وأنا والله أرى جلسائى بالعين التى أرى بها إخوانى، والله لوتهيأ لى أن أغير أسماءهم لنقلتها من الجلساء إلى الأصدقاء والإخوان .

وقال يحيى بن على : دعا الموفق يوماً جلساءه، فسبقتهم وحدى، فلما رآنى وحدى أنشد يقول :

واستصحب الأصحاب حتى إذا دنوا ... وملوا من الإدلاج جئتكم وحدى

فدعوت له، واستحسنت إنشاده فى موضعه، وله محاسن كثيرة ليس هذا موضع ذكرها .

ثم دخلت سنة تسع وسبعين ومائتين

ذكر خلع جعفر بن المعتمد وولاية المعتضد

فى هذه السنة، فى المحرم، خرج المعتمد على الله، وجلس للقواد والقضاة ووجوه الناس، وأعلمهم أنه خلع ابنه المفوضَ إلى الله جعفراً من ولاية العهد، وجعل ولاية العهد للمعتضد بالله أبى العباس أحمد بن الموفق، وشهدوا على المفوض أنه قد تبرأ من العه، واسقط اسمه من السكة، والخطبة، والطراز، وغير ذلك، وخطب للمعتض، وكان يوماً مشهوداً . فقال يحيى بن على يهنئ المعتضد:

ليهنك عقد أنت فيه المقدم ... حباك به رب بفضلك أعلم

فإن كنت قد أصبحت والى عهدنا ... فأنت غداً فينا الإمام المعظم

مناه، ومن عاداك يشجى ويزعم ... ولا زال من ولاك فينا مبلغاً

وكان عمود الدين فيه تأود ... فعاد بهذا العهد وهو مقوم

وأصبح وجه الملك جذلان ضاحكاً ... يضىء لنا منه الذى كان يظلم

فدونك فاشدد عقد ما حويته ... فإنك دون الناس فيه المحكم

وفيها نودى بمدينة السلام أن لا يقعد على الطريق ولا فى المسجد الجامع، قاض، ولا منجم، ولا زاجر، وحلف الوراقون أن لا يبيعوا كتب الكلام والجدل والفلسفة .

وفيها قبض على جراد كاتب أبى الصقر إسماعيل بن بلبل .

وفيها انصرف أبوطلحة منصور بن مسام من شهرزور، وكانت له، فقبض عليه.

وذكر فيها الحرب بين الخوارج وأهل الموصل والأعراب، ووفاة المعتمد وخلافة أبى العباس المعتضد، وعزل رافع بن هرثمة عن خراسان وقتله .

ثم دخلت سنة ثمانين ومائتين إلى

سنة ثلاث وتسعين ومائتين

ذكر أول إمارة بنى حمدان بالموصل وما فعلوه بالأكراد

ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين ومائتين - ذكر أول إمارة بنى حمدان بالموصل وما فعلوه بالأكراد

فى هذه السنة ولى المكتفى بالله الموصل وأعمالها أبا الهيجاء عبد الله بن حمدان بن حمدون التغلبى العدوى، فسار إليها، فقدمها أول المحرم، فأقام بها يومه، وخرج من الغد لعرض الرجال الذين قدموا معه، والذين بالموصل، فأتاه الصريخ من نينوى بأن الأكراد الهذبانية، ومقدمهم محمد بن بلال، قد أغاروا على البلد، وغنموا كثيراً منه، فسار من وقته وعبر الجسر إلى الجانب الشرقى، فلحق الأكراد بالمعروبة على الخازر، فقاتلوه، فقتل رجل من أصحابه اسمه سيما الحمدانى، فعاد عنهم، وكتب إلى الخليفة يستدعى النجدة، فأتته النجدة بعد عدة شهور كثيرة، وقد انقضت سنة ثلاث وتسعين ودخلت سنة أربع وتسعين .

ففى ربيع الأول منها سار فيمن معه إلى الهذبانية، وكانوا قد اجتمعوا فى خمسة آلاف بيت، فلما رأوا جده فى طلبهم ساروا إلى البابة التى فى جبل السلق، وهومضيق فى جبل عال مشرف على شهرزور، فامتنعوا بها وأغار مقدمهم محمد بن بلال، وقرب من ابن حمدان، وراسله فى أن يطيعه، ويجعلهم عنده يكونون رهينة، ويتركون الفساد، فقبل ابن حمدان ذلك، فرجع محمد ليأتى بمن ذكر، فحث أصحابه على المسير نحوأذربيجان، وإنما أراد فى الذى فعله مع ابن حمدان أن يترك الجد فى الطلب ليأخذ أصحابه أهبتهم ويسيروا آمنين .

فلما تأخر عود محمد عن ابن حمدان علم مراده، فجرد معه جماعة من جملتهم إخوته سليمان، المعتضد، وداود، وسعيد وغيرهم ممن يثق به وبشجاعته،

وأمر النجدة التى جاءته من الخليفة أن يسيروا معه، فتثبطوا، فتركهم وسار يقفوأثرهم، فلحقهم وقد تعلقوا بالجبل المعروف بالقنديل، فقتل منهم جماعة، وصعدوا ذروة الجبل، وانصرف ابن حمدان عنهم، ولحق الأكراد بأذربيجان، وأنهى ابن حمدان ما كان من حالهم إلى الخليفة والوزير فأنجدوه بجماعة صالحة وعاد إلى الموصل فجمع رجاله وسار إلى جبل السلق، وفيه محمد بن بلال ومعه الأكراد، فدخله ابن حمدان، والجواسيس بين يديه، خوفاً من كمين يكون فيه، وتقدم من بين يدى أصحابه، وهم يتبعونه، فلم يتخلف منهم أحد، وجاوزوا الجبل، وقاربوا الأكراد، وسقط عليهم الثلج، واشتد البرد، وقلت الميرة والعلف عندهم، وأقام على ذلك عشرة أيام، وبلغ الحمل من التبن ثلاثين درهماً، ثم عدم عندهم وهو صابر .

فلما رأى الأكراد صبرهم وأنهم لا حيلة لهم فى دفعهم لجأ محمد بن بلال وأولاده ومن لحق به، واستولى ابن حمدان على بيوتهم، وسوادهم، وأهلهم، وأموالهم، وطلبوا الأمان فأمنهم، وأبقى عليهم، وردهم إلى بلد حزة، ورد عليهم أموالهم وأهليهم، ولم يقتل منهم غير رجل واحد، وهوالذى قتل صاحبه سيما الحمدانى، وأمنت البلاد معه، وأحسن السيرة فى أهلها .

ثم إن محمد بن بلال طلب الأمان من ابن حمدان فأمنه، وحضر عنده، وأقام بالموصل، وتتابع الأكراد الحميدية، وأهل جبل داسن إليه بالأمان، فأمنت البلاد واستقامت.

ثم دخلت سنة أربع وتسعين ومائتين

وفيها ذكر أخبار القرامطة وأخذهم الحاج، وذكر قتل زكروية لعنه الله لما فعله بالحجاج.

وهنا تنتهى الرحلة عبر ذلك الجزء ليعلم أحفادنا أبناء العرب، أن الحاضر والمستقبل له جذور فى الماضى.



وتبدأ رحلتنا الآن مع ابن الأثيرعبر الجزء الثامن، والذى يبدأ من سنة خمس وتسعين ومائتين حتى سنة تسع وستين وثلاثمائة.

ثم دخلت سنة خمس وتسعين ومائتين

ذكر وفاة إسماعيل بن أحمد الساماني، وولاية ابنه أحمد، وذكر وفاة المكتفى، وخلافة المقتدر بالله.

ثم دخلت سنة ست وتسعين ومائتين

ـ ذكر خلع المقتدر وولاية ابن المعتز

وفى هذه السنة اجتمع القواد، والقضاة، والكتاب، مع الوزير العباس بن الحسن، على خلع المقتدر، والبيعة لابن المعتز، وأرسلوا إلى ابن المعتز فى ذلك، فأجابهم على أن لا يكون فيه سفك دم، ولا حرب، فأخبروه باجتماعهم عليه، وأنهم ليس لهم منازع ولا محارب .

وكان الرأس فى ذلك العباس بن الحسن، ومحمد بن داود بن الجراح، وأبوالمثنى أحمد بن يعقوب القاضى، ومن القواد الحسين بن حمدان، وبدر الأعجمى، ووصيف بن صوراتكين .

ثم إن الوزير أمره صالحاً مع المقتدر، وأنه على ما يحب، فبدا له فى ذلك، فوثب به الآخرون فقتلوه، وكان الذى تولى قتله منهم الحسين بن حمدان، وبدر

الأعجمى، ووصيف، ولحقوه، وهوسائر إلى بستان له، فقتلوه فى طريقه، وقتلوا معه فاتكاً المعتضدى، وذلك فى العشرين من ربيع الأول، وخلع المقتدر من الغد، وبايع الناس لابن المعتز .

وركض الحسين بن حمدان إلى الحلبة ظناً منه أن المقتدر يلعب هناك بالكرة، فيقتله، فلم يصادفه، لأنه كان هناك، فبلغه قتل الوزير وفاتك، فركض دابته فدخل الدار، وغلقت الأبواب، فندم الحسين حيث لم يبدأ بالمقتدر .

وأحضروا ابن المعتز وبايعوه بالخلافة، وكان الذى يتولى أخذ البيعة له محمد ابن سعيد الأزرق، وحضر الناس، والقواد، وأصحاب الدواوين، سوى أبى الحسن ابن الفرات، وخواص المقتدر، فإنهم لم يحضروا، ولقب ابن المعتز المرتضى بالله، واستوزر محمد بن داود الجراح، وقلد على بن عيسى الدواوين، وكتبت الكتب إلى البلاد من أمير المؤمنين المرتضى بالله أبى العباس عبد الله بن المعتز بالله، ووجه إلى المقتدر يأمره بالانتقال إلى دار ابن طاهر التى كان مقيما فيها، لينتقل هوإلى دار الخلافة، فأجابه بالسمع والطاعة، وسأل الإمهال إلى الليل .

وعاد الحسين بن حمدان بكرة غد إلى دار الخلافة، فقاتله الخدم والغلمان والرجالة من وراء الستور عامة النهار، فانصرف عنهم آخر النهار، فلما جنه الليل سار عن بغداد بأهله وماله وكل ما له إلى الموصل، لا يدرى لم فعل ذلك، ولم يكن بقى مع المقتدر من القواد غير مؤنس الخادم، ومؤنس الخازن، وغريب الخال وحاشية الدار .

فلما هم المقتدر بالانتقال عن الدار قال بعضهم لبعض : لا نسلم الخلافة من غير أن نبلى عذراً، ونجتهده فى دفع ما أصابنا، فأجمع رأيهم على أن يصعدوا فى الماء إلى الدار التى فيها ابن المعتز بالحرم يقاتلونه، فأخرج لهم المقتدر السلاح والزرديات وغير ذلك، وركبوا السميريات، وأصعدوا فى الماء، فلما رآهم من عند ابن المعتز هالهم كثرتهم، واضطربوا وهربوا على وجوههم من قبل أن يصلوا إليهم، وقال بعضهم لبعض : إن الحسن بن حمدان عرف ما يريد أن يجرى فهرب من الليل، وهذه مواطأة بينه وبين المقتدر، وهذا كان سبب هربه.

ولما رأى ابن المعتز ذلك ركب ومعه وزيره محمد بن داود وهربا، وغلام له ينادى بين يديه : يا معشر العامة، ادعوا لخليفتكم السنى البربهارى، وإنما نسبت هذه النسبة لأن الحسين بن القاسم بن عبيد الله البربهارى كان مقدم الحنابلة والسنة من العامة، ولهم فيها اعتقاد عظيم، فأراد استمالتهم بهذا القول .

ثم إن ابن المعتز ومن معه ساروا نحوالصحراء، ظناً منهم أن من بايعه من الجند يتبعونه، فلم يلحقه منهم أحد، فكانوا عزموا أن يسيروا إلى سر من رأى بمن يتبعهم من الجند، فيشتد سلطانهم، فلما رأوا أنهم لم يأتهم أحد رجعوا عن ذلك الرأى، واختفى محمد بن داود فى داره ونزل ابن المعتز عن دابته ومعه غلامه يمن، وانحدر إلى دار أبى عبد الله بن الجصاص، فاستجار به، واستتر أكثر من بايع ابن المعتز، ووقعت الفتنة والنهب والقتل ببغداد، وثار العيارون والسفل ينهبون الدور .

وكان ابن عمرويه، صاحب الشرطة، ممن بايع ابن المعتز، فلما هرب جمع ابن عمرويه أصحابه، ونادى بشعار المقتدر، يدلس بذلك فناداه العامة: يا مرائى، يا كذاب ! وقاتلوه، فهرب واستتر، وتفرق أصحابه، فهجاه يحيى بن على بأبيات منها :

بايعـــــوه فلم يكن عند الأنـ	وك إلا التغيير والتخبيط
رافضيــون بايعـوا انصب الأ	مـة هذا لعمـرى التخليط
ثم ولى من زعقة ومحامو	ه ومن خلفهم لهم تضريط

وقلد المقتدر، تلك الساعة، الشرطة مؤنساً الخازن، وهوغير مؤنس الخادم، وخرج بالعسكر، وقبض على وصيف بن صوارتكين وغيره، فقتلهم، وقبض على القاضى أبى عمر، وعلى بن عيسى، والقاضى محمد ابن خلف وكيع، ثم أطلقهم، وقبض على القاضى المثنى أحمد بن يعقوب، فقتله لأنه قيل له : بايع المقتدر، فقال : لا أبايع صبياً، فذبح .

وأرسل المقتدر إلى أبى الحسن بن الفرات، وكان مختفياً، فأحضره، واستوزره، وخلع عليه .

وكان فى هذه الحادثة عجائب منها : أن الناس كلهم أجمعوا على خلع المقتدر والبيعة لابن المعتز، فلم يتم ذلك، بل كان على العكس من إرادتهم، وكان أمر الله مفعولاً .

ومنها أن ابن حمدان، على شدة تشيعه وميله إلى على، عليه السلام، وأهل بيته، يسعى فى البيعة لابن المعتز على انحرافه عن على وغلوه فى النصب إلى غير ذلك .

ثم إن خادماً لابن الجصاص، يعرف بسوسن، اخبر صافياً الحرمى بأن ابن المعتز عند مولاه، ومعه جماعة، فكبست دار ابن الجصاص، وأخذ ابن المعتز منها، وحبس إلى الليل، وعصرت خصيتاه حتى مات، ولف فى كساء، وسلم إلى أهله .

وصودر ابن الجصاص على مال كثير، وأخذ محمد بن داود وزير ابن المعتز، وكان مستتراً، فقتل، ونفى على بن عيسى إلى واسط، فأرسل إلى الوزير ابن الفرات يطلب منه أن يأذن له فى المسير إلى مكة، فأذن له فى ذلك فسار إليها على طريق البصرة وأقام بها .

وصودر القاضى أبوعمر على مائة ألف دينار، وسيرت العساكر من بغداد فى طلب الحسين بن حمدان فتبعوه إلى الموصل، ثم إلى البلد فلم يظفروا به فعادوا إلى بغداد فكتب الوزير إلى أخيه أبى الهيجاء بن حمدان، وهوالأمير على الموصل، يأمره بطلبه، فسار إليه إلى بلد، ففارقها الحسين إلى سنجار وأخوه فى أثره، فدخل البرية فتبعه أخوه عشرة أيام، فأدركه فاقتتلوا فظفر أبوالهيجاء، وأسر بعض أصحابه، واخذ منه عشرة آلاف دينار، وعاد عنه إلى الموصل، ثم انحدر إلى بغداد، فلما كان فوق تكريت أدركه أخوه الحسين، فبيته، فقتل منهم قتلى، وانحدر أبوالهيجاء إلى بغداد .

وأرسل الحسين إلى ابن الفرات، وزير المقتدر، يسأله الرضى عنه، فشفع فيه إلى المقتدر بالله ليرضى عنه، وعن إبراهيم بن كيغلغ وابن عمرويه صاحب

الشرطة وغيرهم، فرضى عنهم، ودخل الحسين بغداد، فرد عليه أخوه ما أخذ منه، وأقام الحسين ببغداد إلى أن ولى قم فسار إليها، وأخذ الجرائد التى فيها أسماء من أعان على المقتدر، فغرقها فى دجلة، وبسط ابن الفرات العدل والإحسان وأخرج الإدرارات للعباسيين والطالبيين، وأرضى القواد بالأموال، ففرق معظم ما كان فى بيوت الأموال .

ذكر ولاية أبى مضر إفريقيا وهربه من العراق،وذكر ابتداء الدولة العلوية بإفريقيا، وذكر قتل أبى عبدالله الشيعى وأخيه العباس.

ثم دخلت سنة سبع وتسعين ومائتين

ذكر استيلاء الليث بن على بن الليث على فارس وقتله.

ومرت الأحداث إلى .

سنة ثمان وثلاثمائة

فى هذه السنة خلع المقتدر على أبى الهيجاء عبد الله بن حمدان، وقلد طريق خراسان والدينور، وخلع على أخويه أبى العلاء وأبى السرايا .

وفيها وصل رسول أخى صعلوك بالمال، والهدايا، والتحف، ويخبر باستمراره على الطاعة للمقتدر بالله .

وفيها توفى إبراهيم بن حمدان فى المحرم .

وفيها قلد بدر الشرابى دقوقاً، وعكبرا، وطريق الموصل . وفيها توفى إبراهيم بن محمد بن سفيان صاحب مسلم بن الحجاج ، ومن طريقة يروى صحيح مسلم إلى اليوم .

ثم دخلت سنة تسع وثلاثمائة

ـ ذكر قتل ليلى بن النعمان الديلمى، وذكر قتل الحسين الحلاج.

ثم دخلت سنة عشر وثلاثمائة

ذكر وفاة محمد بن جرير الطبرى

وفى هذه السنة تفى محمد بن جرير الطبرى، صاحب التاريخ، ببغداد، ومولده سنة أربع وعشرين ومائتين، ودفن ليلاً بداره، لأن العامة اجتمعت، ومنعت من دفنه نهاراً، وادعوا عليه الرفض، ثم ادعوا عليه الإلحاد، وكان على بن عيسى يقول: والله لوسئل هؤلاء عن معنى الرفض والإلحاد ما عرفوه، ولا فهموه، هكذا ذكره ابن مسكويه صاحب تجارب الأمم، وحوشى ذلك الإمام عن مثل هذه الأشياء .

وأما ما ذكره عن تعصب العامة، فليس الأمر كذلك، وإنما بعض الحنابلة تعصبوا عليه، ووقعوا فيه، فتبعهم غيرهم، ولذلك سبب، وهو أن الطبرى جمع كتاباً ذكر فيه اختلاف الفقهاء، لم يصف مثله، ولم يذكر فيه أحمد بن حنبل ، فقيل له فى ذلك، فقال : لم يكن فقيهاً، وإنما كان محدثاً، فاشتد ذلك على الحنابلة، وكانوا لا يحصون كثرة ببغداد، فشبعوا عليه، وقالوا ما أرادوا :

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه	فالناس أعداء له وخصوم
كضرائر الحسناء قلن لوجهها	حسداً وبغياً إنه لدميم

وقد ذكرت شيئاً من كلام الأئمة فى أبى جعفر يعلم منه محله فى العلم، والثقة، وحسن الاعتقاد، فمن ذلك ما قاله الإمام أبوبكر الخطيب، بعد أن ذكر من روى الطبرى عنه، ومن روى عن الطبرى ، فقال : وكان أحد أئمة العلماء يحكم بقوله، ويرجع إلى رأيه لمعرفته وفضله، وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره، وكان حافظاً لكتاب الله، عارفاً بالقراءات، بصيراً بالمعانى، فقيهاً فى أحكام القرآن، عالماً بالسنن وطرقها، صحيحها وسقيمها، ناسخها ومنسوخها، عارفاً بأقاويل الصحابة والتابعين، ومن بعدهم فى الأحكام، ومسائل الحلال والحرام، خبيراً بأيام الناس وأخبارهم، وله الكتاب المشهور فى تاريخ الأمم والملوك، والكتاب الذى فى التفسير لم يصف مثله، وله فى أصول الفقه وفروعه كتب كثيرة، وأخبار من أقاويل الفقهاء، وتفرد بمسائل حفظت عنه.

وقال أبوأحمد الحسين بن على بن محمد الرازى : أول ما سألنى الإمام أبوبكر بن خزيمة قال لى : كتبت عن محمد بن جرير الطبرى ؟ قلت : لا ! قال: لم ؟ قلت : لا يظهر، وكانت الحنابلة تمنع من الدخول عليه، فقال بئس ما فعلت! ليتك لم تكتب عن كل من كتبت عنه، وسمعت عن أبى جعفر، وقال حسينك، واسمه الحسين بن على التميمى، عن ابن خزيمة نحو ما تقدم . وقال ابن خزيمة حين طالع كتاب التفسير للطبرى: ما أعلم على أديم الأرض أعلم من أبى جعفر، ولقد ظلمته الحنابلة.

وقال أبومحمد عبد الله بن أحمد الفرغانى، بعد أن ذكر تصانيفه : وكان أبوجعفر ممن لا يأخذه فى الله لومة لائم، ولا يعدل، فى علمه وتبيانه، عن حق يلزمه لربه وللمسلمين، إلى باطل لرغبة ولا رهبة، مع عظيم ما كان يلحقه من الأذى والشناعات من جاهل، وحاسد، وملحد .

وأما أهل الدين والورع فغير منكرين علمه، وفضله، وزهده، وتركه الدنيا مع إقبالها عليه، وقناعته بما كان يرد عليه من قرية خلفها له أبوه بطبرستان يسيرة، ومناقبه كثيرة لا يحتمل هاهنا أكثر من هذا .

ثم دخلت سنة إحدى عشرة وثلاثمائة

ذكر عزل حامد بن العباس وولاية ابن الفرات، وذكر القرامطة، واستيلاء ابن أبى الساج على الرى .

ثم دخلت سنة اثنتى عشرة وثلاثمائة

وذكر القبض على الزير ابن الفرات وولده المحسن وقتلهما ودخول القرامطة الكوفة.

ثم دخلت سنة سبع عشرة وثلاثمائة

- ذكر خلع المقتدر

فى هذه السنة خلع المقتدر بالله من الخلافة، وبويع أخوه القاهر بالله محمد بن المعتضد، فبقى يومين ثم أعيد المقتدر .

وكان سبب ذلك ما ذكرنا فى السنة التى قبلها من استيحاش مؤنس ونزوله بالشماسية، وخرج إليه نازوك، صاحب الشرطة، فى عسكره، وحضر عنده أبوالهيجاء بن حمدان فى عسكره، من بلد الجبل، وبنى بن نفيس، وكان المقتدر قد أخذ منه الدينور، فأعادها إليه مؤنس عند مجيئه إليه .

وجمع المقتدر عنده، فى داره، هارون بن غريب، وأحمد بن كيغلغ، والغلمان الحجرية، والرجالة المصافية، وغيرهم، فلما كان آخر النهار ذلك اليوم انفض أكثر من عند المقتدر، وخرجوا إلى مؤنس، وكان ذلك أوائل المحرم .

ثم كتب مؤنس إلى المقتدر رقعة يذكر فيها أن الجيش عاتب منكر للسرف فيما يطلق باسم الخدم والحرم من الأموال والضياع، ولدخولهم فى الرأى وتدبير المملكة، ويطالبون بإخراجهم من الدار، وأخذ ما فى أيديهم من الأموال والأملاك، وإخراج هارون بن غريب من الدار .

فأجابه المقتدر أنه يفعل من ذلك ما يمكنه فعله، ويقتصر على ما لا بد له منه، واستعطفهم، وذكرهم بيعته فى أعناقهم مرة بعد أخرى، وخوفهم عاقبة النكث، وأمر هارون بالخروج من بغداد، وأقطعه الثغور الشامية والجزرية، وخرج من بغداد تاسع المحرم من هذه السنة، وراسلهم المقتدر، وذكرهم نعمه عليهم وإحسانه إليهم، وحذرهم كفر إحسانه، والسعى فى الشر والفتنة .

فلما أجابهم إلى ذلك دخل مؤنس وابن حمدان ونازوك إلى بغداد، وأرجف الناس بأن مؤنساً ومن معه قد عزموا على خلع المقتدر وتولية غيره، فلما كان الثانى عشر من المحرم خرج مؤنس والجيش إلى باب الشماسية، فتشاوروا ساعة، ثم رجعوا إلى دار الخليفة بأسرهم، فلما زحفوا إليها، وقربوا منها، هرب المظفر بن ياقوت، وسائر الحجاب والخدم وغيرهم، والفراشون، وكل من فى الدار، وكان الوزير أبوعلى بن مقلة حاضراً، فهرب ودخل مؤنس والجيش دار الخليفة، وأخرج المقتدر، ووالدته، وخالته، وخواص جواريه، وأولاده، من دار الخلافة، وحملوا إلى دار مؤنس، فاعتقلوا بها .

وبلغ الخبر هارون بن غريب ، وهويقطربل، فدخل بغداد واستتر، ومضى ابن حمدان إلى دار ابن طاهر، فأحضر محمد بن المعتضد، وبايعوه بالخلافة، ولقبوه القاهر بالله، وأحضروا القاضى أبا عمر عند المقتدر ليشهد عليه بالخلع، وعنده مؤنس، ونازوك، وابن حمدان، وبنى بن نفيس، فقال مؤنس للمقتدر ليخلع نفسه من الخلافة، فأشهد عليه القاضى بالخلع، فقام ابن حمدان، وقال للمقتدر: يا سيدى يعز على أن أراك على هذه الحال، وقد كنت أخافها عليك، وأحذرها، وأنصح لك، واحذرك عاقبة القبول من الخدم، والنساء، فتؤثر أقوالهم على قولى، وكأنى كنت أرى هذا، وبعد فنحن عبيدك وخدمك .

ودمعت عيناه وعينا المقتدر، وشهد الجماعة على المقتدر بالخلع، وأودعوا الكتاب بذلك عند القاضى أبى عمر، فكتمه ولم يظهر عليه أحداً، فلما عاد المقتدر إلى الخلافة سلمه إليه، وأعلمه أنه لم يطلع عليه غيره، فاستحسن ذلك منه، وولاه قضاء القضاة .

ولما استقر الأمر للقاهر أخرج مؤنس المظفر على بن عيسى من الحبس، ورتب أبا على بن مقلة فى الوزارة، وأضاف إلى نازوك مع الشرطة حجبة الخليفة، وكتب إلى البلاد بذلك، وأقطع ابن حمدان، مضافاً إلى ما بيده من أعمال طريق خراسان، حلوان، والدينور، وهمذان، وكنكور، وكرمان، وشاهان، والراذنات، ودقوقا، وخانيجار، ونهاوند، والصيمرة، والسيروان، وماسبذان وغيرها، ونهبت دار الخليفة، ومضى بنى بن نفيس إلى تربة لوالدة المقتدر، فأخرج من قبر فيها ستمائة ألف دينار، وحملها إلى دار الخليفة .

وكان خلع المقتدر النصف من المحرم، ثم سكن النهب، وانقطعت الفتنة، ولما تقلد نازوك حجبة الخليفة أمر الرجالة المصافية بقلع خيامهم من دار الخليفة، وأمر رجاله وأصحابه أن يقيموا بمكان المصافية، فعظم ذلك عليهم، وتقدم إلى خلفاء الحجاب أن لا يمكنوا أحداً من الدخول إلى دار الخليفة، إلا من له مرتبة، فاضطربت الحجبة من ذلك .

ثم ذكر عود المقتدر إلى الخلافة

لما كان يوم الاثنين سابع عشر من المحرم بكر الناس إلى دار الخليفة لأنه يوم موكب دولة جديدة، فامتلأت الممرات، والمراحات، والرحاب، وشاطئ دجلة من الناس، وحضر الرجالة المصافية فى السلاح الشاك، يطالبون بحق البيعة، ورزق سنة، وهم حنقون بما فعل بهم نازوك، ولم يحضر مؤنس المظفر ذلك اليوم .

وارتفعت زعقات الرجالة، فسمع بها نازوك، فأشفق أن يجرى بينهم وبين أصحابه فتنة وقتال، فتقدم إلى أصحابه، وأمرهم أن لا يعرضوا لهم، ولا يقاتلوهم، وزاد شغب الرجالة، وهجموا يريدون الصحن التسعينى، فلم يمنعهم أصحاب نازوك، ودخل من كان على الشط بالسلاح، وقربت زعقاتهم من مجلس القاهر بالله، وعنده أبوعلى بن مقلة الوزير، ونازوك، وأبوالهيجاء بن حمدان، فقال القاهر لنازوك : اخرج إليهم فسكنهم، وطيب قلوبهم ! فخرج إليهم نازوك وهومخمور، قد شرب طول ليلته، فلما رآه الرجالة تقدموا إليه ليشكوا حالهم إليه فى معنى أرزاقهم، فلما رآهم بأيدهم السيوف يقصدونه خافهم على نفسه فهرب، فطمعوا فيه، فتبعوه، فانتهى به الهرب إلى باب كان هوسده أمس، فأدركوه عنده، فقتلوه عند ذلك الباب، وقتلوا قبله خادمه عجيباً، وصاحوا : يا مقتدر، يا منصور ! فهرب كل من كان فى الدار من الوزير، والحجاب، وسائر الطبقات وبقيت الدار فارغة، وصلبوا نازوك وعجيباً بحيث يراهما من على شاطئ دجلة.

ثم صار الرجالة إلى دار مؤنس يصيحون، ويطالبونه بالمقتدر، وبادر الخدم فأغلقوا أبواب دار الخليفة، وكانوا جميعهم خدم المقتدر، ومماليكه، وصنائعه، وأراد أبوالهيجاء بن حمدان أن يخرج من الدار، فتعلق به القاهر وقال : أنا فى ذمامك، فقال : والله لا أسلمك أبداً، وأخذ بيد القاهر وقال : قم بنا نخرج جميعاً، وأدعوا أصحابى وعشيرتى فيقاتلون معك ودونك .

فقاما ليخرجا، فوجدا الأبواب مغلقة، فتبعهما فائق وجه القصعة يمشى معهما، فأشرف القاهر من سطح، فرأى كثرة الجمع، فنزل هو وابن حمدان

وفائق، فقال ابن حمدان للقاهر : قف حتى أعود إليك، ونزع سواده وثيابه، وأخذ جبة صوف لغلام هناك، فلبسها ومشى نحوباب النوبى، فرآه مغلقاً والناس من ورائه، فعاد إلى القاهر، وتأخر عنهما وجه القصعة ومن معه من الخدم، فأمرهم وجه القصعة بقتلهما أخذاً بثأر المقتدر وما صنعا به، فعاد إليهما عشرة من الخدم بالسلاح، فعاد إليهم أبوالهيجاء وسيفه بيده، ونزع الجبة الصوف، وأخذها بيده الأخرى، وحمل عليهم، فانجفلوا بين يديه، وغشيهم، فرموه بالنشاب ضرورة، فعاد عنهم، وانفرد عنه القاهر ومشى إلى آخر البستان فاختفى منه .

ودخل أبوالهيجاء إلى بيت من ساج، وتقدم الخدم إلى ذلك البيت، فخرج إليهم أبوالهيجاء، فولوا هاربين، ودخل إليهم بعض أكابر الغلمان الحجرية، ومعه أسودان بسلاح، فقصدوا أبا الهيجاء، فخرج إليهم فرمى بالسهام فسقط، فقصده بعضهم فضربه بالسيف فقطع يده اليمنى، وأخذ رأسه فحمله بعضهم، ومشى وهومعه .

وأما الرجالة فإنهم لما انتهوا إلى دار مؤنس وسمع زعقاتهم قال : ما الذى تريدون ؟ فقيل له : نريد المقتدر، فأمر بتسليمه إليهم، فلما قيل للمقتدر ليخرج خاف على نفسه أن تكون حيلة عليه، فامتنع، وحمل وأخرج إليهم، فحمله الرجالة على رقابهم حتى أدخلوه دار الخلافة، فلما حصل فى الصحن التسعينى اطمأن وقعد، فسأل عن أخيه القاهر، وعن ابن حمدان، فقيل : هما حيان، فكتب لهما أماناً بخطه، وأمر خادماً بالسرعة بكتاب الأمان لئلا يحدث على أبى الهيجاء حادث، فمضى بالخط إليه، فلقيه الخادم الآخر ومعه رأس، فعاد معه، فلما رآه المقتدر، وأخبره بقتله، قال : إنا لله وإنا إليه راجعون ! من قتله ؟ فقال الخدم : ما نعرف، وعظم عليه قتله، وقال : ما كان يدخل على ويسلينى، ويذهب عنى الغم هذه الأيام غيره .

ثم أخذ القاهر وأحضر عند المقتدر، فاستدناه، فأجلسه عنده وقبل جبينه وقال له : يا أخى قد علمت أنه لا ذنب لك، وأنك قهرت، ولولقبوك بالمقهور لكان

أولى من القاهر، والقاهر يبكى ويقول : يا أمير المؤمنين ! نفسى، نفسى، اذكر الرحم التى بينى وبينك ! فقال له المقتدر : وحق رسول الله لا جرى عليك سوء منى أبداً، ولا وصل أحد إلى مكروهك وأنا حى ! فسكن وأخرج رأس نازوك، ورأس أبى الهيجاء، وشهرا، ونودى عليهما : هذا جزاء من عصى مولاه .

وأما بنى بن نفيس فإنه كان من أشد القوم على المقتدر، فأتاه الخبر برجوعه إلى الخلافة، فركب جواداً وهرب عن بغداد، وغير زيه، وسار حتى بلغ الموصل، وسار منها إلى أرمينية، وسار حتى دخل القسطنطينية وتنصر .

وهرب أبوالسرايا نصر بن حمدان أخو أبى الهيجاء إلى الموصل، وسكنت الفتنة، وأحضر المقتدر أبا على بن مقلة، وأعاده إلى وزارته، وكتب إلى البلاد بما تجدد له، وأطلق للجند أرزاقهم وزادهم، وباع ما فى الخزائن من الأمتعة والجواهر، وأذن فى بيع الأملاك من الناس، فبيع ذلك بأرخص الأثمان، ليتم أعطيات الجند .

وقد قيل إن مؤنساً المظفر لم يكن مؤثراً لما جرى على المقتدر من الخلع، وإنما وافق الجماعة مغلوباً على رأيه، ولعلمه أنه إن خالفهم لم ينتفع به المقتدر، ووافقهم ليؤمنوه، وسعى مع الغلمان المصافية والحجرية، ووضع قوادهم على أن عملوا ما عملوا، وأعادوا المقتدر إلى الخلافة، وكان هوقد قال للمقتدر، لما كان فى داره : ما تريدون أن نصنع ؟ فلهذا أمنه المقتدر، ولما حملوه إلى دار الخلافة من دار مؤنس ورأى فيها كثرة الخلق والاختلاف عاد إلى دار مؤنس لثقته به، واعتماده عليه، ولولا هوى مؤنس مع المقتدر لكان حضر عند القاهر مع الجماعة، فإنه لم يكن معهم كما ذكرناه، ولكان أيضاً قتل المقتدر لما طلب من داره ليعاد إلى الخلافة.

وأما القاهر فإن المقتدر حبسه عند والدته، فأحسنت إليه، وأكرمته، ووسعت عليه النفقة، واشترت له السرارى والجوارى للخدمة، وبالغت فى إكرامه والإحسان إليه بكل طريق .

ثم ذكر مسير القرامطة إلى مكة وما فعلوه بأهلها وبالحجاج وأخذهم الحجر الأسود.

ثم دخلت سنة ثمان عشرة وثلاثمائة

وفيها عزل ابن مقلة ووزارة سليمان بن الحسن، والقبض على أولاد البريدى.

ثم دخلت سنة تسع عشرة وثلاثمائة

ذكر تجدد الوحشة بين مؤنس والمقتدر وحرب بين هارون وعسكر مرداويج، وعزل أبوالقاسم الكلوذانى ووزارة الحسين بن القاسم، والحرب بين المسلمين والروم.

ثم دخلت سنة عشرين وثلاثمائة

ذكر مسير مؤنس إلى الموصل واستيلائه عليها.

ذكر قتل المقتدر

لما اجتمعت العساكر على مؤنس بالموصل قالوا له : اذهب بنا إلى الخليفة فإن أنصفنا، وأجرى أرزاقنا . وإلا قاتلناه، فانحدر مؤنس من الموصل فى شوال، وبلغ خبره جند بغداد فشغبوا وطلبوا أرزاقهم، ففرق المقتدر فيهم أموالاً كثيرة، إلا أنه لم يسعهم، وأنفذ أبا العلاء سعيد بن حمدان وصافياً البصرى فى خيل إلى سر من رأى، وأنفذ أبا بكر محمد بن ياقوت فى ألفى فارس، ومعه الغلمان الحجرية، إلى المعشوق .

فلما وصل مؤنس إلى تكريت أنفذ طلائعه، فلما قربوا من المعشوق جعل العسكر الذين مع ابن ياقوت يتسللون ويهربون إلى بغداد، فلما رأى ذلك رجع إلى عكبرا، وسار مؤنس، فتأخر ابن ياقوت وعسكره، وعادوا إلى بغداد، فنزل بباب الشماسية ونزل ابن ياقوت وغيره مقابلهم، واجتهد المقتدر بابن خاله هارون بن غريب ليخرج، فلم يفعل، وقال : أخاف من عسكرى، فإن بعضهم أصحاب مؤنس وبعضهم قد انهزم أمس من مرداويج، فأخاف أن يسلمونى وينهزموا عنى، فأنفذ

إليه الوزير فلم يزل به حتى أخرجه، وأشاروا على المقتدر بإخراج المال منه ومن والدته ليرضى الجند، ومتى سمع أصحاب مؤنس بتفريق الأموال تفرقوا عنه واضطر إلى الهرب، فقال : لم يبق لى ولا لوالدتى جهة شيء .

وأراد المقتدر أن ينحدر إلى واسط، ويكاتب العساكر من جهة البصرة، والأهواز، وفارس، وكرمان، وغيرها، ويترك بغداد لمؤنس إلى أن يجتمع عليه العساكر، ويعود إلى قتاله، فرده ابن ياقوت عن ذلك، وزين له اللقاء، وقوى نفسه بأن القوم متى رأوه عادوا بأجمعهم إليه، فرجع إلى قوله وهو كاره .

ثم أشار عليه بحضور الحرب، فخرج وهو كاره، وبين يديه الفقهاء والقراء معهم المصاحف مشهورة، وعليه البردة والناس حوله، فوقف على تل عال بعيد عن المعركة، فأرسل قواد أصحابه يسألونه التقدم مرة بعد أخرى، وهو واقف، فلما ألحوا عليه تقدم من موضعه، فانهزم أصحابه قبل وصوله إليهم، وكان قد أمر فنودي : من جاء بأسير فله عشرة دنانير، ومن جاء برأس فله خمسة دنانير فلما انهزم أصحابه لقيه على بن بليق، وهو من أصحاب مؤنس، فترجل وقبل الأرض وقال له : إلى أين تمضى ؟ ارجع، فلعن الله من أشار عليك بالحضور ! فأراد الرجوع، فلقيه قوم من المغاربة والبربر، فتركه على معهم وسار عنه، فشهروا عليه سيوفهم، فقال : ويحكم أنا الخليفة ! فقالوا : قد عرفناك يا سفلة، أنت خليفة إبليس، تبذل فى كل رأس خمسة دنانير، وفى كل أسير عشرة دنانير! وضربه أحدهم بسيفه على عاتقه فسقط إلى الأرض وذبحه بعضهم، فقيل إن على بن بليق غمز بعضهم فقتله .

وكان المقتدر ثقيل البدن، عظيم الجثة، فلما رفعوا رأسه على خشبة وهم يكبرون ويلعنونه، وأخذوا جميع ما عليه حتى سراويله، وتركوه مكشوف العورة، إلى أن مر به رجل من الأكرة، فستره بحشيش، ثم حفر له موضعه، ودفن، وعفى قبره.

وكان مؤنس فى الراشدية لم يشهد الحرب، فلما حمل رأس المقتدر إليه بكى، ولطم وجهه ورأسه، وقال : يا مفسدون ! ما هكذا أوصيتكم، وقال : قتلتموه،

وكان هذا آخر أمره، والله لنقتلن كلنا، وأقل ما فى الأمر أنكم تظهرون أنكم قتلتموه خطأ، ولم تعرفوه .

وتقدم مؤنس إلى الشماسية، وأنفذ إلى دار الخليفة من يمنعها من النهب، ومضى عبد الواحد بن المقتدر، وهارون بن غريب، ومحمد بن ياقوت، وابنا رائق إلى المدائن، وكان ما فعله مؤنس سبباً لجرأة أصحاب الأطراف على الخلفاء وطمعهم فيما لم يكن يخطر لهم ببال، وانخرقت الهيبة وضعف أمر الخلافة حتى صار الأمر إلى ما نحكيه .

على أن المقتدر أهمل من أحوال كثيراً، وحكم فيها النساء والخدم، وفرط فى الأموال، وعزل من الوزراء وولى مما أوجب طمع أصحاب الأطراف والنواب، وخروجهم عن الطاعة .

وكان جملة ما أخرجه من الأموال، تبذيراً وتضييعاً فى غير وجه، نيفاً وسبعين ألف ألف دينار، سوى ما أنفقه فى الوجوه الواجبة، وإذا اعتبرت أحوال الخلافة فى أيامه وأيام أخيه المكتفى ووالده المعتضد، رأيت بينهم تفاوتاً بعيداً، وكانت مدة خلافته أربعاً وعشرين سنة وأحد عشر شهراً وستة عشر يوماً، وكان عمره ثمانياً وثلاثين سنة ونحواً من شهرين .

ذكر خلافة القاهر بالله

ثم دخلت سنة إحدى وعشرين ومائتين

ذكر حال عبد الواحد بن المقتدر ومن معه وذكر استيحاش مؤنس وأصحابه من القاهر والقبض على مؤنس ويلبق.

ذكر قتل مؤنس وبليق وولده على والنوبختى

وفيها، فى شعبان، قتل القاهر مؤنساً المظفر، وبليقاً، وعلى بن بليق .

وكان سبب قتلهم أن أصحاب مؤنس شغبوا وثاروا، وتبعهم سائر الجند، وأحرقوا روشن دار الوزير أبى جعفر، ونادوا بشعار مؤنس، وقالوا : لا نرضى إلا بإطلاق مؤنس .

وكان القاهر قد ظفر بعلى بن بليق، وأفرد كل واحد منهم فى منزل، فلما شغب الجند دخل القاهر إلى على بن بليق، فأمر به فذبح واجتز رأسه، فوضعوه فى طشت، ثم مضى القاهر والطشت يحمل بين يديه حتى دخل على بليق فوضع الطشت بين يديه، وفيه رأس ابنه، فلما رآه بكى، وأخذه يقبله ويترشفه، فأمر به القاهر فذبح أيضاً، وجعل رأسه فى طشت، وحمل بين يدى القاهر، ومضى حتى دخل على مؤنس فوضعهما بين يديه، فلما رأى الرأسين تشهد، واسترجع، ولعن قاتلهما، فقال القاهر : جروا برجل الكلب الملعون ! فجروه وذبحوه وجعلوا رأسه فى طشت، وأمر فطيف بالرؤوس فى جانبى بغداد، ونودى عليها : هذا جزاء من يخون الإمام، ويسعى فى فساد دولته، ثم أعيدت ونظفت وجعلت فى خزانة الرؤوس، كما جرت العادة .

وقيل إنه قتل بليقاً وابنه مستخف، ثم ظفر بابنه بعد ذلك، فأمر به فضرب، فأقبل ابن بليق على القاهر، وسبه أقبح سب، وأعظم شتم، فأمر به القاهر فقتل، وطيف برأسه فى جانبى بغداد، ثم أرسل إلى ابن يعقوب النويختى، وهوفى مجلس وزيره محمد بن القاسم، فأخذه وحبسه، ورأى الناس من شدة القاهر ما علموا معه أنهم لا يسلمون من يده، وندم كل من أعانه من سبك، والساجية، والحجرية، حيث لم ينفعهم الندم .

ذكر ابتداء دولة بنى بويه

وهم عماد الدولة أبوالحسن على، وركن الدولة أبوعلى الحسن، ومعز الدولة أبوالحسن أحمد، أولاد أبى شجاع بويه بن فناخسرو بن تمام بن كوهى بن شيرزيل الأصغر بن شيركنده بن شيرزيل الأكبر بن شيزان شاه ابن شيرويه بن سشتان شاه بن سيس فيروز بن شيروزيل بن سنباد بن بهرام جور الملك ابن يزدجرد الملك ابن هرمز الملك ابن شابور الملك ابن شابور ذى الأكتاف، وباقى النسب قد تقدم فى أول الكتاب عند ذكر ملوك الفرس، هكذا ساق نسبهم الأمير أبونصر بن ماكولا، رحمه الله .

وأما ابن مسكويه فإنه قال إنهم يزعمون أنهم من ولد يزدجرد بن شهريار، آخر ملوك الفرس، إلا أن النفس أكثر ثقة بنقل ابن ماكولا لأنه الإمام العالم بهذه الأمور، وهذا نسب عريق فى الفرس، ولا شك أنهم نسبوا إلى الديلم حيث طال مقامهم ببلادهم .

وأما ابتداء أمرهم، فإن والدهم أبا شجاع بويه كان متوسط الحال، فماتت زوجته وخلفت له ثلاثة بنين، وقد تقدم ذكرهم، فلما ماتت اشتد حزنه عليها، فحكى شهريار بن رستم الديلمى قال : كنت صديقاً لأبى شجاع بويه، فدخلت إليه يوماً فعذلته على كثرة حزنه، وقلت له : أنت رجل يحتمل الحزن، وهؤلاء المساكين أولادك يهلكهم الحزن، وربما مات أحدهم، فيجدد ذلك من الأحزان ما ينسيك المرأة، وسليته بجهدى، وأخذته ففرجته، وأدخلته ومعه أولاده إلى منزلى ليأكلوا طعاماً، وشغلته عن حزنه .

فبينما هم كذلك اجتاز بنا رجل يقول عن نفسه : إنه منجم، ومعزم، ومعبر للمنامات، ويكتب الرقى والطلسمات، وغير ذلك، فأحضره أبوشجاع وقال له: رأيت فى منامى كأننى أبول، فخرج من ذكرى نار عظيمة استطالت وعلت حتى كادت تبلغ السماء، ثم انفجرت فصارت ثلاث شعب، وتولد من تلك الشعب عدة شعب، فأضاءت الدنيا بتلك النيران، ورأيت البلاد والعباد خاضعين لتلك النيران .

فقال المنجم : هذا منام عظيم لا أفسره إلا بخلعة، وفرس، ومركب، فقال أبوشجاع : والله ما أملك إلا الثياب التى على جسدى، فإن أخذتها بقيت عرياناً، فقال المنجم : فعشرة دنانير، قال : والله ما أملك ديناراً فكيف عشرة، فأعطاه شيئاً، فقال المنجم : اعلم أنه يكون لك ثلاثة أولاد يملكون الأرض ومن عليها، ويعلوذكرهم فى الآفاق كما علت تلك النار، ويولد لهم جماعة ملوك ما رأيت من تلك الشعب .

فقال أبوشجاع : أما تستحى تسخر منا ؟ أنا رجل فقير وأولادى هؤلاء فقراء مساكين كيف يصيرون ملوكاً ؟

فقال المنجم : أخبرنى بوقت ميلادهم، فأخبره، فجعل يحسب، ثم قبض على يد أبى الحسن على فقبلها وقال : هذا والله الذى يملك البلاد، ثم هذا من بعده، وقبض على يد أخيه أبى على الحسن، فاغتاظ منه أبوشجاع، وقال لأولاده : اصفعوا هذا الحكيم، فقد أفرط فى السخرية بنا فصفعوه، وهويستغيث، ونحن نضحك منه، ثم أمسكوا، فقال لهم : اذكروا لى هذا إذا قصدتكم وأنتم ملوك، فضحكنا منه وأعطاه أبوشجاع عشرة دراهم .

ثم خرج من بلاد الديلم جماعة تقدم ذكرهم ليملك البلاد منهم ماكان بن بالى، وليلى بن النعمان، وأسفار بن شيرويه، ومرداويج بن زيار، وخرج مع كل واحد منهم خلق كثير من الديلم، وخرج أولاد أبى شجاع فى جملة من خرج، وكانوا من جملة قواد ماكان بن كالى، فلما كان من أمر ماكان ما ذكرناه فى الاتفاق ثم الاختلاف، بعد قتل أسفار، واستيلاء مرداويج على ما كان بيد ماكان من طبرستان وجرجان، وعود ماكان مرة أخرى إلى جرجان والدامغان، وعوده إلى نيسابور مهزوماً .

فلما رأى أولاد بويه ضعفه وعجزه قال له عماد الدولة وركن الدولة : نحن فى جماعة، وقد صرنا ثقلاً عليك وعيالاً، وأنت مضيق، والأصلح لك أن نفارقك لنخفف عنك مؤونتنا، فإذا صلح أمرنا عدنا إليك، فأذن لهما، فسارا إلى مرداويج، واقتدى بهما جماعة من قواد ماكان وتبعوهما، فلما صاروا إليه قبلهم أحسن قبول، وخلع على ابنى بويه، وأكرمهما، وقلد كل واحد من قواد ماكان الواصلين إليه ناحية من نواحى الجبل، فأما على بن بويه فإنه قلده كرج .

ثم دخلت سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة

ذكر استيلاء ابن بويه على شيراز، واستيلاء نصر بن أحمد على كرمان، وذكر خلع القاهر بالله.

ذكر خلافة الراضى بالله

هوأبوالعباس أحمد بن المقتدر بالله، ولما قبض القاهر سألوا الخدم عن المكان الذى فيه أبوالعباس بن المقتدر، فدلوهم عليه، وكان هو ووالدته محبوسين،

فقصدوه، وفتحوا عليه ودخلوا فسلموا عليه بالخلافة، وأخرجوه وأجلسوه على سرير القاهر يوم الأربعاء لست خلون من جمادى الأولى، ولقبوه بالراضى بالله، وبايعه القواد والناس، وأمر بإحضار على بن عيسى وأخيه عبد الرحمن، وصدر عن رأيهما فيما يفعله، واستشارهما وأراد على بن عيسى على الوزارة، فامتنع لكبره، وعجزه، وضعفه، وأشار بابن مقلة .

ثم إن سيما قال للراضى : إن الوقت لا يحتمل أخلاق على، وابن مقلة أليق بالوقت، فكتب له أماناً وأحضره واستوزره، فلما وزر أحسن إلى كل من أساء إليه، وأحسن سيرته، وقال : عاهدت الله عند استتارى بذلك، فوفى به، وأحضر الشهود والقضاة وأرسلهم إلى القاهر ليشهدوا عليه بالخلع، فلم يفعل، فسمل من ليلته، فبقى أعمى لا يبصر .

وأرسل ابن مقلة إلى الخصيبى المتطبب بالأمان فظهرا وأحسن إليهما واستعمل الخصيبى وولاه، واستعمل الراضى بالله على الشرطة بدراً الخرشنى، واستعمل ابن مقلة أبا الفضل بن جعفر بن الفرات، فى جمادى الأولى، نائباً عنه على سائر العمال بالموصل، وقردى، وبازيدى، وماردين، وطور عبدين، وديار الجزيرة، وديار بكر، وطريق الفرات، والثغور الجزرية والشامية، وأجناد الشام، وديار مصر، يصرف من يرى، ويستعمل من يرى فى الخراج، والمعاون، والنفقات، والبريد وغير ذلك .

وأرسل إلى محمد بن رائق يستدعيه ليوليه الحجبة، وكان قد استولى على الأهواز وأعمالها، ودفع عنها ابن ياقوت، ولم يبق بيد ابن ياقوت من تلك الولاية إلا السوس، وجنديسابور، وهو يريد المسير إلى أصبهان أميراً عليها، على ما ذكرناه، وكان ذلك آخر أيام القاهر، فلما ولى الراضى، واستحضره، سار إلى واسط، وأرسل محمد بن ياقوت يخطب الحجبة، فأجيب إليها، فسار فى أثر ابن رائق، وبلغ ابن رائق الخبر، فلم يقف، وسار من واسط مصعداً إلى بغداد يسابق ابن ياقوت، فلما وصل إلى المدائن لقيه توقيع الراضى يأمره بترك دخول بغداد، وتقليده الحرب، والمعاون بواسط، مضافاً إلى ما بيده من البصرة وغيرها، فعاد

منحدراً فى دجلة، ولقيه ابن ياقوت مصعداً فيها أيضاً، فسلم بعضهم على بعض، وأصعد ابن ياقوت إلى بغداد فتولى الحجبة على ما نذكره .

ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة

ذكر قتل مرداويج

فى هذه السنة قتل مرداويج الديلمى صاحب بلاد الجبل وغيرها .

وكان سبب قتله أنه كان كثير الإساءة للأتراك، وكان يقول إن روح سليمان بن داود، عليه السلام، حلت فيه، وإن الأتراك هم الشياطين والمردة فإن قهرهم، وإلا أفسدوا، فثقلت وطأته عليهم وتمنوا هلاكه .

فلما كان ليلة الميلاد من هذه السنة، وهى ليلة الوقود، أمر بأن يجمع الحطب من الجبال والنواحى وأن يجعل على جانبى الوادى المعروف برندروذ كالمنابر والقباب العظيمة، ويعمل مثل ذلك على الجبل المعوف بكريم كوه المشرف على أصبهان، من أسفله إلى أعلاه، بحيث إذا اشتغلت تلك الأحطاب يصير الجبل كله ناراً، وعمل مثل ذلك بجميع الجبال والتلال التى هناك، وأمر فجمع له النفط ومن يلعب به، وعمل من الشموع ما لا يحصى، وصيد له من الغربان والحدإ زيادة على ألفى طائر ليجعل فى أرجلها النفط وترسل لتطير بالنار فى الهواء، وأمر بعمل سماط عظيم كان من جملة ما فيه : مائة فرس ومائتان من البقر مشوية صحاحاً، سوى ما شوى من الغنم فإنها كانت ثلاثة آلاف رأس، سوى المطبوخ، وكان فيه من الدجاج وغيره من أنواع الطير زيادة على عشرة آلاف عدد، وعمل من ألوان الحلواء ما لا يحد، وعزم على أن يجمع الناس على ذلك السماط، فإذا فرغوا قام إلى مجلس الشراب ويشعل النيران فيتفرج .

فلما كان آخر النهار ركب وحده، وغلمانه رجالة، وطاف بالسماط ونظر إليه وإلى تلك الأحطاب، فاستحقر الجميع لسعة الصحراء، فتضجر وغضب، ولعن من صنعه ودبره، فخافه من حضر، فعاد ونزل ودخل خركاة له فنام، فلم يجسر أحد أن يكلمه .

واجتمع الأمراء والقواد وغيرهم، وأرجفوا عليه، فمن قائل إنه غضب لكثرته لأنه كان بخيلاً، ومن قائل إنه قد اعتراه جنون، وقيل بل أوجعه فؤاده، وقيل غير ذلك، وكادت الفتنة تثور .

وعرف العميد وزيره صورة الحال فأتاه ولم يزل حتى استيقظ وعرفه ما الناس فيه، فخرج وجلس على الطعام، وأكل ثلاث لقم ثم قام ونهب الناس الباقى، ولم يجلس للشراب، وعاد إلى مكانه، وبقى فى معسكره بظاهر أصبهان ثلاثة أيام لا يظهر .

فلما كان اليوم الرابع تقدم بإسراج الدواب ليعود من منزلته إلى داره بأصبهان، فاجتمع ببابه خلق كثير، وبقيت الدواب مع الغلمان، وكثر صهيلها ولعبها، والغلمان يصيحون بها لتسكن من الشغب وكانت مزدحمة فارتفع من الجميع أصوات هائلة .

وكان مرداويج نائماً، فاستيقظ، فصعد فنظر فرأى، فسأل فعرف الحال، فازداد غضباً، وقال : أما كفى من خرق الحرمة ما فعلوه فى ذلك الطعام، وما أرجفوا به، حتى انتهى أمرى إلى هؤلاء الكلاب ؟ ثم سأل عن أصحاب الدواب، فقيل : إنها للغلمان الأتراك، وقد نزلوا إلى خدمتك، فأمر أن تحط السروج عن الدواب وتجعل على ظهور أصحابها الأتراك، ويأخذوا بأرسان الدواب إلى الإسطبلات، ومن امتنع من ذلك ضربه الديلم بالمقارع حتى يطيع ففعلوا ذلك بهم وكانت صورة قبيحة يأنف منها أحقر الناس .

ثم ركب هوبنفسه مع خاصته، وهو يتوعد الأتراك، حتى صار إلى داره قرب العشاء، وكان قد ضرب قبل ذلك جماعة من أكابر الغلمان الأتراك فحقدوا عليه، وأرادوا قتله، فلم يجدوا أعواناً، فلما جرت هذه الحادثة انتهزوا الفرصة، وقال بعضهم : ما وجه صبرنا على هذا الشيطان فاتفقوا، وتحالفوا على الفتك به، فدخل الحمام، وكان كورتكين يحرسه فى خلواته وحمامه فأمره ذلك اليوم أن لا يتبعه، فتأخر عنه مغضباً، وكان هوالذى يجمع الحرس فلشدة غضبه لم يأمر أحداً أن يحضر حراسته، وإذا أراد الله أمراً هيأ أسبابه .

وكان له أيضاً خادم أسود يتولى خدمته بالحمام، فاستمالوه فمال إليهم فقالوا للخادم ألا يحمل معه سلاحاً، وكانت العادة أن يحمل معه خنجراً طوله نحو ذراع ملفوفاً فى منديل، فلما قالوا ذلك للخادم قال : ما اجسر، فاتفقوا على أن كسروا حديد الخنجر وتركوا النصاب فى الغلاف بغير حديد، فلفوه فى المنديل كما جرت العادة لئلا ينك الحال .

فلما دخل مرداويج الحمام فعل الخادم ما قيل له، وجاء خادم آخر وهو أستاذ داره، فجلس على باب الحمام، فهجم الأتراك إلى الحمام، فقام أستاذ داره ليمنعهم، وصاح بهم، فضربه بعضهم بالسيف فقطع يده فصاح بالأسود وسقط، وسمع مرداويج الضجة فبادر إلى الخنجر ليدفع به عن نفسه، فوجده مكسوراً، فأخذ سريراً من خشب كان يجلس عليه إذا اغتسل فترس به باب الحمام من داخل، ودفع الأتراك الباب فلم يقدروا على فتحه، فصعد بعضهم إلى السطح، وكسروا الجامات، ورموه بالنشاب، فدخل البيت الحار، وجعل يتلطفهم على الإحسان، فلم يلتفتوا إليه، وكسروا باب الحمام ودخلوا عليه فقتلوه .

وكان الذين ألبوا الناس عليه وشرعوا فى قتله توزون، وهو الذى صار أمير العساكر ببغداد وياروق، وابن بغرا، ومحمد بن ينال الترجمان، ووافقهم بجكم، وهوالذى ولى أمر العراق قبل توزون، وسيرد ذكر ذلك إن شاء الله تعالى . فلما قتلوه بادروا فأعلموا أصحابهم، فركبوا ونهبوا قصره وهربوا، ولم يعلم بهم الديلم لأن أكثرهم كانوا قد دخلوا المدينة ليلحق بهم وتخلف الأتراك معه لهذا السبب .

فلما علم الديلم والجيل ركبوا فى أثرهم، فلم يلحقوا منهم إلا نفراً يسيراً وقفت دوابهم، فقتلوهم، وعادوا لينهبوا الخزائن، فرأوا العميد قد ألقى النار فيها، فلم يصلوا إليها، فبقيت بحالها .

ومن عجيب ما يحكى أن العساكر فى ذلك اليوم لما رأوا غضب مرداويج قعدوا يتذاكرون ما هم فيه معه من الجور، وشدة عتوه وتمرده عليهم ودخل بينهم

رجل شيخ لا يعرفه منهم أحد، وهوراكب، فقال : قد زاد أمر هذا الكافر، واليوم تكفنونه ويأخذه الله، ثم سار، فلحقت الجماعة دهشة، ونظر بعضهم فى وجوه بعض، ومر الشيخ فقالوا : المصلحة أننا نتبعه ونأخذه ونستعيده الحديث، لئلا يسمع مرداويج ما جرى، فلا نلقى منه خيراً، فتبعوه فلم يروا أحداً .

وكان مرداويج قد تجبر قبل أن يقتل وعتا، وعمل له كرسياً من ذهب يجلس عليه، وعمل كراسى من فضة يجلس عليها أكابر قواده، وكان قد عمل تاجاً مرصعاً على صفة تاج كسرى وقد عزم على قصد العراق والاستيلاء عليه وبناء المدائن ودور كسرى ومساكنه، وأن يخاطب، إذا فعل ذلك بشاهنشاه، فأتاه أمر الله وهو غافل عنه، واستراح الناس من شره، ونسأل الله تعالى أن يريح الناس من كل ظالم سريعاً، ولما قتل مرداويج اجتمع أصحابه الديلم والجيل وتشاوروا، وقالوا : إن بقينا بغير رأس هلكنا، فاجتمعوا على طاعة أخيه وشمكير بن زيار، وهووالد قابوس، وكان بالرى، فحملوا تابوت مرداويج وساروا نحوالرى فخرج من بها من أصحابه مع أخيه وشمكير، فالتقوه على أربعة فراسخ مشاة حفاة، وكان يوماً مشهوداً .

وأما أصحابه الذين كانوا بالأهواز وأعمالها فإنهم لما بلغهم الخبر كتموه، وساروا نحوالرى، فأطاعوا وشمكير أيضاً، واجتمعوا عليه .

ولما قتل مرداويج كان ركن الدولة بن بويه رهينة عنده، كما ذكرناه فبذل للموكلين مالاً فأطلقوه، فخرج إلى الصحراء ليفك قيوده فأقبلت بغال عليها تبن، وعليها أصحابه وغلمانه، فألقى التبن، وكسر أصحابه قيوده وركبوا الدواب، ونجوا إلى أخيه عماد الدولة بفارس .

ذكر مافعله الأتراك بعد قتله

لما قتل الأتراك مرداويج هربوا وافترقوا فرقتين، ففرقة سارت إلى عماد الدولة بن بويه مع خجخج الذى سلمه توزون فيما بعد، وسنذكره .

وفرقة سارت نحوالجبل مع بجكم، وهى أكثرها، فجبوا خراج الدينور وغيرها، وساروا إلى النهروان، فكاتبوا الراضى فى المسير إلى بغداد فأذن لهم، فدخلوا

بغـداد، فظن الحـجـرية أنهـا حـيلة عليـهم، فطلبـوا رد الأتراك إلى بلد الجـبل، فـأمرهـم ابن مقلة بذلك، وأطلق لهم مـالاً، فلم يرضـوا به، وغضـبـوا، فكاتبهم ابن رائق، وهوبواسـط، وله البـصـرة أيضـاً فـاسـتـدعـاهم، فـمضـوا إليه، وقـدم عليهم بجكم، وأمره بمكاتبة الأتراك والديلم من أصحـاب مرداويج، فكاتبهم، فأتاه منهم عدة وافـرة، فاحسن إليهم، وخلع عليهم وإلى بجكم خاصـة، وأمـره أن يكتب إلى الناس بجكم الرائقى، فأقام عنده، وكان من أمرهما ما نذكره .

ذكر حال وشمكير بعد قتل أخيه والقبض على ابنى ياقوت.

ذكر فتنة الحنابلة ببغداد

وفيهـا عظم أمـر الحـابلة، وقـويت شـوكتـهم، وصـاروا يكسبـون من دور القـواد والعـامة، وإن وجـدوا نبيذاً أراقوه، وإن وجـدوا مغنـية ضـربوهـا وكسـروا آلة الغناء، واعترضـوا فـى البيع والشراء، ومشـى الـرجال مع النساء والصبيان، فإذا رأوا ذلك سالوه عن الذى معه من هو، فأخبرهم، وإلا ضربوه وحملوه إلى صاحب الشرطة، وشهدوا عليه بالفاحشة، فأرهجوا بغداد .

فركب بدر الخـرلاشنى، وهوصـاحب الشرطة، عـاشر جمـادى الآخرة ونادى فى جانبى بغداد، فى أصـحـاب أبى مـحـمـد البربهـارى الحنابلة، ألا يجتـمع منهم اثنان ولا يتناظـروا فـى مـذهـبـهم ولا يصـلـى منهم إمـام إلا إذا جُـهـر ببـسم الله الرحـمن الرحـيم فـى صـلاة الصـبـح والعـشـاءين، فلم يـفـد فـيـهم، وزاد شـرهـم وفـتنتـهم ، واسـتظهـروا بـالعـمـيـان الذين كانوا يأوون المسـاجـد، وكانوا إذا مـر بهم شـافـعى المذهب أغروا به العميان، فيضربونه بعصيهم، حتى يكاد يموت .

فـخـرج توقـيع الراضـى بما يقـرأ على الحنـابلة ينكـر عليـهم فـعلهم، ويوبخـهم باعتقـاد التشـبيـه وغيـره، فمنه تارة أنكم تزعـمون أن صـورة وجـوهـكم القـبيـحة السـمـجـة على مـثـال رب العـالمين، وهيـئتكم الرذلة على هيـئتـه، وتذكـرون الكف والأصـابع والـرجلين والنعلين المذهبين، والشـعـر القطط، والصـعود إلى السـمـاء، والنزول إلى الدنـيـا، تبـارك الله عمـا يقـول الظالمون والجـاحدون، علواً كبـيراً، ثم

طعنكم على خيار الأئمة، ونسبتكم شيعة آل محمد، صلى الله عليه وسلم، إلى الكفر والضلال، ثم استدعاؤكم المسلمين إلى الدين بالبدع الظاهرة والمذاهب الفاجرة التى لا يشهد بها القرآن، وإنكاركم زيارة قبور الأئمة، وتشنيعكم على زوارها بالابتداع، وأنتم مع ذلك تجتمعون على زيارة قبر رجل من العوام ليس بذى شرف، ولا نسب، ولا سبب برسول الله، صلى الله عليه وسلم، وتأمرون بزيارته، وتدعون له معجزات الأنبياء، وكرامات الأولياء، فلعن الله شيطاناً زين لكم هذه المنكرات، وما أغواه .

وأمير المؤمنين يقسم بالله قسماً جهداً إليه يلزمه الوفاء به لئن لم تنتهوا عن مذموم مذهبكم ومعوج طريقتكم ليوسعنكم ضرباً وتشريداً، وقتلاً وتبديداً، وليستعملن السيف فى رقابكم، والنار فى منازلكم ومحالكم .

ثم دخلت سنة أربع وعشرين وثلاثمائة

ذكر القبض على ابن مقلة ووزارة عبد الرحمن بن عيسى، والقبض عليه ووزارة أبى جعفر الكرخى، وقتل ياقوت، واستيلاء ابن رائق على أمر العراق وتفرق البلاد ،ومسير معز الدولة بن بويه إلى كرمان.

ثم دخلت سنة خمس وعشرين وثلاثمائة

ذكر مسير الراضى بالله إلى حرب أبى عبدالله بن البريدى، والحرب بينه وبين ابن رائق، وذكر استيلاء بجكم على الأهواز، والفتنة بين أهل صقلية وأمرائهم.

ثم دخلت سنة ست وعشرين وثلاثمائة

ذكر الحرب بين البريدى وبجكم.

ذكر قطع يد ابن مقلة ولسانه

فى هذه السنة، فى منتصف شوال، قطعت يد الوزير أبى على بن مقلة .

وكان سبب قطعها أن الوزير أبا الفتح بن جعفر بن الفرات لما عجز عن الوزارة

وسار إلى الشام استوزر الخليفة الراضى بالله أبا على بن مقلة، وليس له من الأمر شيء إنما الأمر جميعه إلى ابن رائق، وكان ابن رائق قبض أموال ابن مقلة وأملاكه، وأملاك ابنه، فخاطبه فلم يردها، فاستمال أصحابه، وسألهم مخاطبته فى ردها، فوعدوه، فلم يقضوا حاجته، فلما رأى ذلك سعى بابن رائق، فكاتب بجكم يطمعه فى موضع بن رائق، وكتب إلى وشمكير بمثل ذلك، وهويالرى، وكتب إلى الراضى يشير عليه بالقبض على ابن رائق وأصحابه ويضمن أنه يستخرج منهم ثلاثة آلاف ألف دينار، وأشار عليه باستدعاء بجكم وإقامته مقام ابن رائق، فأطمعه الراضى وهوكاره لما قاله، فعجل ابن مقلة وكتب إلى بجكم يعرفه إجابة الراضى، ويستحثه على الحركة والمجيء إلى بغداد .

وطلب ابن مقلة من الراضى أن ينتقل ويقيم عنده بدار الخلافة إلى أن يتم على ابن رائق ما اتفقا عليه، فأذن له فى ذلك، فحضر متنكراً آخر ليلة من رمضان، وقال : إن القمر تحت الشعاع، وهويصلح للأسرار، فكانت عقوبته حين نظر إلى غير الله أن ذاع سره وشهر أمره، فلما حصل بدار الخليفة لم يوصله الراضى إليه، واعتقله فى حجرة، فلما كان الغد أنفذ إلى ابن رائق يعرفه الحال، ويعرض عليه خط ابن مقلة، فشكر الراضى، وما زالت الرسل تتردد بينهما فى معنى ابن مقلة إلى منتصف شوال، فأخرج ابن مقلة من محبسه، وقطعت يده ثم عولج فبرأ، فعاد يكاتب الراضى، ويخطب الوزارة، ويذكر أن قطع يده لم يمنعه من عمله، وكان يشد القلم على يده المقطوعة ويكتب .

فلما قرب بجكم من بغداد سمع الخدم يتحدثون بذلك، فقال : إن وصل بجكم فهو يستخلصنى، وأكافئ ابن رائق، وصار يدعوعلى من ظلمه وقطع يده، فوصل خبره إلى الراضى وابن رائق، فأمرا بقطع لسانه، ثم نقل إلى محبس ضيق، ثم لحقه ذرب فى الحبس، ولم يكن عنده من يخدمه، فآل الحال إلى أن كان يستقى الماء من البئر بيده اليسرى ويمسك الحبل بفيه، ولحقه شقاء شديد إلى أن مات ودفن بدار الخليفة، ثم إن أهله سألوا فيه، فنبش وسلم إليهم، فدفنوه فى داره، ثم نبش فنقل إلى دار أخرى .

ومن العجب أنه ولى الوزارة ثلاث دفعات، ووزر لثلاثة خلفاء، وسافر ثلاث سفرات، اثنين منفياً إلى شيراز، وواحدة فى وزارته إلى الموصل، ودفن بعد موته ثلاث مرات وخص به من خدمه ثلاثة .

وذكراستيلاء بجكم على بغداد، واستيلاء لشكرى بن مردى على أذربيجان، واختلال أمور القرامطة.

وسنة تسع وعشرين وثلاثمائة

وفيها ذكر موت الراضى بالله.

ذكر خلافة المتقى لله

لما مات الراضى بالله بقى الأمر فى الخلافة موقوفاً انتظاراً لقدوم أبى عبد الله الكوفى، كاتب بجكم، من واسط، وكان بجكم بها .

واحتيط على دار الخلافة فورد كتاب بجكم مع الكوفى يأمر فيه بأن يجتمع مع أبى القاسم سليمان بن الحسن وزير الراضى، كل من تقلد الوزارة، وأصحاب الدواوين، والعلويون، والقضاة، والعباسيون، ووجوه البلد، ويشاورهم الكوفى فيمن ينصب للخلافة ممن يرتضى مذهبه وطريقته، فجمعهم الكوفى واستشارهم، فذكر بعضهم إبراهيم بن المقتدر، وتفرقوا على هذا، فلما كان الغد اتفق الناس عليه، فأحضر فى دار الخلافة، وبويع له فى العشرين من ربيع الأول، وعرضت عليه ألقاب، فاختار المتقى لله، وبايعه الناس كافة، وسير الخلع واللواء إلى بجكم بواسط .

وكان بجكم، بعد موت الراضى وقبل استخلاف المتقى قد أرسل إلى دار الخلافة فأخذ فرشاً وآلات كان يستحسنها، وجعل سلامة الطولونى حاجبه، وأقر سليمان على وزارته، وليس له من الوزارة إلا اسمها، وإنما التدبير كله إلى الكوفى كاتب بجكم .

ذكرقتل بجكم،وإصعاد البريدى إلى بغداد،ثم عود ابن رائق إليها .

ثم دخلت سنة ثلاثين وثلاثمائة

ذكر ما فعله البريدى ببغداد، وقتل ابن رائق وولاية ابن حمدان أمرة الأمراء، وعودة المتقى إلى بغداد وهرب البريدى منها.

سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة

ذكر خلافة المستكفى بالله

هوالمستكفى بالله أبوالقاسم عبد الله بن المكتفى بالله على بن المعتضد بالله أبى العباس أحمد بن أبى أحمد الموفق بن المتوكل على الله، يجتمع هووالمتقى لله فى المعتضد، لما قبض توزون على المتقى لله أحضر المستكفى إلى السندية، وبايعه هووعامة الناس .

وكان سبب البيعة له ما حكاه أبوالعباس التميمى الرازى، وكان من خواص توزون، قال : كنت أنا السبب فى البيعة للمستكفى، وذلك أننى دعانى إبراهيم بن الزوبيندار الديلمى، فمضيت إليه، فذكر لى أنه تزوج إلى قوم وأن امرأة منهم قالت له : إن المتقى هذا قد دعاكم وعاديتموه، وكاشفكم ولا يصفوا قلبه لكم، وها هنا رجل من أولاد الخلفاء من ولد المكتفى . وذكرت عقله، وأدبه، ودينه، تنصبونه للخلافة فيكون صنيعتكم وغرسكم ويدلكم على أموال جليلة لا يعرفها غيره، وتستريحون من الخوف والحراسة .

قال : فعلمت أن هذا أمر لا يتم إلا بك، فدعوتك له، فقلت : أريد أن أسمع كلام المرأة، فجاءنى بها، فرأيت امرأة عاقلة، جزلة فذكرت لى نحواً من ذلك، فقلت : لا بد أن ألقى الرجل، فقالت : تعود غداً إلى ها هنا حتى أجمع بينكما، فعدت إليها من الغد، فوجدته قد أخرج من دار ابن طاهر فى زى امرأة فعرفنى نفسه، وضمن إظهار ثمانمائة ألف دينار منها مائة ألف لتوزون، وذكر وجوهها وخاطبنى خطاب رجل فهم عاقل، ورأيته يتشيع، قال : فأتيت توزون فأخبرته، فوقع كلامى بقلبه وقال : أريد أن أبصر الرجل، فقلت : لك ذلك، ولكن اكتم أمرنا من ابن شيرزاد، فقال : أفعل، وعدت إليهم وأخبرتهم الذى ذكر، ووعدتهم حضور توزون من الغد .

فلما كان ليلة الأحد لأربع عشرة خلت من صفر مشيت مع توزون مستخفيين، فاجتمعا به، وخاطبه توزون وبايعه تلك الليلة، وكتم الأمر فلما وصل المتقى قلت لما لقيه : أنت على ذلك العزم ؟ قال : نعم، قلت : فافعله الساعة، فإنه إن دخل الدار بعد عليك مرامه، فوكل به وسمله، وجرى ما جرى .

وبويع المستكفى بالخلافة يوم خلع المتقى . وأحضر المتقى، فبايعه وأخذ منه البردة والقضيب، وصارت تلك المرأة قهرمانة المستكفى، وسمت نفسها علماً، وغلبت على أمره كله .

واستوزر المستكفى بالله أبا الفرج محمد بن على السارى يوم الأربعاء لست بقين من صفر، ولم يكن له إلا اسم الوزارة، والذى يتولى الأمور ابن شـرزاد وحبس المتقى، وخلع المستكفى بالله على توزون خلعه وتاجاً، وطلب المستكفى بالله أبا القاسم الفضل بن المقتدر بالله، وهوالذى ولى الخلافة، ولقب المطيع لله، لأنه كان يعرفه يطلب الخلافة، فاستتر مدة خلافة المستكفى، فهدمت داره التى على دجلة عند دار ابن طاهر، حتى لم يبق منها شىء .

ذكر خلع أبى يزيد الخارجى بإفريقيا، وحصاره المهدية ثم رحيله عنها، ثم قتله فى تلك السنة، وقتل أبى الحسين البريدى وإحراقه.

ثم دخلت سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة

ذكر استيلاء معز الدولة على بغداد،وذكر خلع المستكفى بالله،ثم خلافة المطيع لله، والحرب بين ناصر الدولة ومعز الدولة.

ذكر موت الإخشيد وملك سيف الدولة دمشق.

فى هذه السنة، فى ذى الحجة، مات الإخشيد أبوبكر محمد بن طغج، صاحب ديار مصر، وكان مولده سنة ثمان وستين ومائتين ببغداد، وكان موته بدمشق، وقيل مات سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة، وولى الأمر بعده ابنه أبوالقاسم أنوجور، فاستولى على الأمر كافور الخادم الأسود، وهومن خدم الإخشيد، وغلب أبا القاسم واستضعفه وتفرد بالولاية، وكافور هذا هوالذى مدحه المتنبى ثم هجاه.

وكان أبوالقاسم صغيراً، وكان كافور أتابكه، فلهذا استضعفه، وحكم عليه، فسار كافور إلى مصر، فقصد سيف الدولة دمشق، فملكها وأقام بها، فاتفق أنه كان يسير هو والشريف العقيلي بنواحي دمشق، فقال سيف الدولة : ما تصلح هذه الغوطة إلا لرجل واحد، فقال له العقيلي : هي لأقوام كثيرة، فقال سيف الدولة : لئن أخذتها القوانين السلطانية لينبرون منها، فأعلم العقيلي أهل دمشق بذلك، فكاتبوا كافوراً يستدعونه، فجاءهم، فأخرجوا سيف الدولة عنهم سنة ست وثلاثين وثلاثمائة، وكان أنوجور مع كافور فتبعوا سيف الدولة إلى حلب فخافهم سيف الدولة فعبر إلى الجزيرة، وأقام أنوجور على حلب، ثم استقر الأمر بينهما، وعاد أنوجور إلى مصر وعاد سيف الدولة إلى حلب، وأقام كافور بدمشق يسيراً وولى عليها بدر الإخشيدى، ويعرف ببدير، وعاد إلى مصر، فبقى بدير على دمشق سنة، ثم وليها أبوالمظفر بن طغج وقبض على بدير .

ومرت الأحداث إلى.

سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة

. ذكر ملك المعز العلوى مصر

فى هذه السنة سير المعز لدين الله أبوتميم معد بن إسماعيل المنصور بالله القائد أبا الحسن جوهراً، غلام والده المنصور، وهو رومى، فى جيش كثيف إلى الديار المصرية، فاستولى عليها .

وكان سبب ذلك أنه لما مات كافور الإخشيدى، صاحب مصر، اختلفت القلوب فيها، ووقع بها غلاء شديد، حتى بلغ الخبر كل رطل بدرهمين، والحنطة كل ويبة بدينار وسدس مصرى فلما بلغ الخبر بهذه الأحوال إلى المعز، وهوبإفريقيا، سير جوهراً إليها، فلما اتصل خبر مسيره إلى العساكر الإخشيدية بمصر هربوا عنها جميعهم قبل وصوله .

ثم إنه قدمها سابع عشر شعبان، وأقيمت الدعوة للمعز بمصر فى الجامع العتيق فى شوال، وكان الخطيب أبا محمد الله بن الحسين الشمشاطى .

وفي جماد الأولى من السنة تسع وخمسين وثلاثمائة سار جوهر إلى جامع ابن طولون، وأمر المؤذن فأذن بحى على خير العمل، وهو أول ما أذن بمصر ثم أذن بعده فى الجامع العتيق، وجهر فى الصلاة ولما استقر جوهر بمصر شرع فى بناء القاهرة .

سنة تسع وخمسين وثلاثمائة

ذكر ملك الروم مدينة أنطاكية وحلب، ومسير ابن العميد إلى بلد حسنويه بن الحسين الكردى.

ذكر قتل نقفور ملك الروم

فى هذه السنة قتل نقفور ملك الروم، ولم يكن من أهل بيت المملكة، وإنما كان دمستقاً، والدمستق عندهم الذى كان يلى بلاد الروم التى هى شرقى خليج القسطنطينية، وأكثرها اليوم بيد أولاد قلج أرسلان، وكان كل من يليها يلقب بالدمستق، وكان نقفور هذا شديداً على المسلمين، وهوالذى أخذ حلب أيام سيف الدولة فعظم شأنه عند الروم، وهو أيضاً الذى فتح طرسوس، والمصيصة، وأذنة، وعين زربة، وغيرها .

ولم يكن نصرانى الأصل، وإنما هومن ولد رجل مسلم من أهل طرسوس يعرف بابن الفقاس تنصر، وكان ابنه هذا شهماً، شجاعاً، حسن التدبير لما يتولاه. فلما عظم أمره وقوى شأنه قتل الملك الذى كان قبله، وملك الروم بعده. وقد ذكرنا هذا جميعه. فلما ملك تزوج امرأة الملك المقتول على كره منها، وكان لها من الملك المقتول ابنان، وجعل نقفور همته قصد بلاد الإسلام والاستيلاء عليها، وتم له ما أراد باشتغال ملوك الإسلام بعضهم ببعض، فدوخ البلاد وكان قد بنى أمره على أن يقصد سواد البلاد فينهبه ويخربه، فيضعف البلاد فيملكها، وغلب على ثغور الجزرية والشامية وسبى، وأسر ما يخرج عن الحصر، وهابه المسلمون هيبة عظيمة، ولم يشكوا فى أنه يملك جميع الشام، ومصر، والجزيرة وديار بكر لخلو الجميع من مانع .

فلما استفحل أمره أتاه أمر الله من حيث لم يحتسب، وذلك أنه عزم على أن يخصى ابنى الملك المقتول لينقطع نسلهما، ولا يعارض أحد أولاده فى الملك، فلما علمت أمهما ذلك قلقت منه، واحتالت على قتله، فأرسلت إلى ابن الشمشيق، وهو الدمستق حينئذ، ووافقته على أن يصير إليها فى زى النساء ومعه جماعة، وقالت لزوجها إن نسوة من أهلها قد زاروها، فلما صار إليها هوومن معه جعلهم فى بيعة تتصل بدار الملك، وكان الشمشيق شديد الخوف منه لعظم هيبته، فاستجاب للمرأة إلى ما دعته إليه، فلما كان ليلة الميلاد من هذه السنة نام، واستقل فى نومه، ففتحت امرأته الباب ودخلوا إليه فقتلوه، وثار بهم جماعة من أهله وخاصته، فقتل منهم نيف وسبعون رجلاً، وأجلس فى الملك الأكبر من ولدى الملك المقتول، وصار المدبر له ابن الشمشيق، ويقال إن نقفور ما بات قط إلا بسلاح إلا تلك الليلة لما يريده الله تعالى من قتله وفناء أجله .

ثم دخلت سنة إحدى وستين وثلاثمائة

ذكر مسير المعز لدين الله العلوى من الغرب إلى مصر

فى هذه السنة سار المعز لدين الله العلوى من إفريقيا يريد الديار المصرية .

وكان أول مسيرة أواخر شوال من سنة إحدى وستين وثلاثمائة، وكان أول رحيله من المنصورية، فأقام بسردانية، وهى قرية قريبة من القيروان، ولحقه بها رجاله، وعماله وأهل بيته وجميع ما كان له فى قصره من أموال وأمتعة وغير ذلك، حتى إن الدنانير سكبت وجعلت كهيئة الطواحين وحمل كل طاحونتين على جمل.

وسار عنها واستعمل على بلاد إفريقيا يوسف بلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى الحميرى، إلا أنه لم يجعل له حكماً على جزيرة صقلية، ولا على مدينة طرابلس الغرب، ولا على أجدابية، وسرت، وجعل على صقلية حسن بن على بن أبى الحسين، على ما قدمنا ذكره، وجعل على طرابلس عبد الله بن

يخلف الكتامى، وكان أثيراً عنده وجعل على جباية أموال إفريقيا زيادة الله بن زياد بن القديم، وعلى الخراج عبد الجبار الخراسانى، وحسين بن خلف الموصدى، وأمرهم بالانقياد ليوسف بن زيرى .

فأقام بسردانية أربعة أشهر حتى فرغ من جميع ما يريد، ثم رحل عنها، ومعه يوسف بلكين وهويوصيه بما يفعله، ونحن نذكر من سلف يوسف بلكين وأهله ما تمس الحاجة إليه، ورد يوسف إلى أعماله، وسار إلى طرابلس ومعه جيوشه وحواشيه، فهرب منه بها جمع من عسكره إلى جبال نفوسة فطلبهم فلم يقدر عليهم .

ثم سار إلى مصر، فلما وصل إلى برقة ومعه محمد بن هانىء الشاعر الأندلسى، قتل غيلة، فرؤى ملقى على جانب البحر قتيلا يدرى من قتله، وكان قتله أواخر رجب من سنة اثنتين وستين وثلاثمائة، وكان من الشعراء المجيدين إلا أنه غالى فى مدح المعز حتى كفره العلماء، فمن ذلك قوله :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار

وقوله :

ولطال ما زاحمت حول ركابه جبريلا

ومن ذلك ما ينسب إليه ولم أجدها فى ديوانه قوله :

حل برقادة المسيح حل بها آدم ونوح
حل بها الله ذو المعالى فكل شىء سواه ريح

ورقادة اسم مدينة بالقرب من القيروان، إلى غير ذلك، وقد تأول ذلك من يتعصب له، والله أعلم، وبالجملة فقد جاز حد المديح .

ثم سار المعز حتى وصل إلى الإسكندرية أواخر شعبان من السنة، وأتاه أهل مصر وأعيانها، فلقيهم، وأكرمهم، وأحسن إليهم، وسار فدخل القاهرة خامس شهر رمضان سنة اثنتين وستين وثلاثمائة، وأنزل عساكره مصر فى القاهرة فى الديار، وبقى كثير منهم فى الخيام .

وأما يوسف بلكين فإنه لما عاد من وداع المعز أقام بالمنصورية يعقد الولايات للعمال على البلاد، ثم سار فى البلاد، وباشر الأعمال، وطيب قلوب الناى، فوثب

أهل باغاية على عامله فقاتلوه فهزموه، فسير إليهم يوسف جيشاً فقاتلهم فلم يقدر عليهم، فأرسل إلى يوسف يعرفه الحال فتأهب يوسف، وجمع العساكر ليسير إليهم، فبينما هوفى التجهز أتاه الخبر عن تاهرت أن أهلها قد عصوا، وخالفوا، وأخرجوا عامله، فرحل إلى تاهرت فقاتلها، فظفر بأهلها، وجربها، فأتاه الخبر بها أن زناتة قد نزلوا على تلمسان، فرحل إليهم، فهربوا منه وأقام على تلمسان فحصرها مدة ثم نزلوا على حكمه فعفا عنهم، إلا أنه نقلهم إلى مدينة أشير، فبنوا عندها مدينة سموها تلمسان ثم إن زيادة الله بن القديم جرى بينه وبين عامل آخر كان معه، اسمه عبد الله بن محمد الكاتب، منافسة صارت إلى محاربة، واجتمع مع كل واحد منهما جماعة، وكان بينهما حروب عدة دفعات، وكان يوسف بلكين مائلاً مع عبد الله لصاحبه قديمة بينهما، ثم إن أبا عبد الله قبض على ابن القديم وسجنه واستبد بالأمور، وبقى ابن القديم محبوساً حتى توفى المعز بمصر، وقوى أمر يوسف بلكين .

وفى السنة أربع وستين وثلاثمائة طلع خلف بن حسين إلى قلعة منيعة، فاجتمع إليه خلق كثير من البربر وغيرهم، وكان من أصحاب ابن القديم المساعدين له، فسمع يوسف بذلك، فسار إليه ونازل القلعة وحاربه، فقتل بينها عدة قتلى، وافتتحها، وهرب خلف بن حسين، وقتل ممن كان بها خلق كثير، وبعث إلى القيروان من رءوسهم سبعة آلاف رأس، ثم أخذ خلف وأمر به فطيف به على جمل، ثم صلب وسير رأسه إلى مصر، فلما سمع أهل باغاية بذلك خافوا، فصالحوا يوسف ونزلوا على حكمه، فأخرجهم من باغاية وخرب سورها .

ومرت الأحداث إلى

سنة تسع وستين وثلاثمائة

وذكر فيها قتل أبى تغلب بن حمدان، ومحاربة الحسن بن عمران مع جيوش عضد الدولة،ووصول ورد الرومى إلى ديار بكر وما كان منه،وعمارة عضد الدولة بغداد،ووفاة حسنويه الكردى.

ذكر عدة حوادث

فى هذه السنة ورد رسول العزيز بالله صاحب مصر إلى عضد الدولة برسائل أداها .

وفيها قبض عضد الدولة على محمد بن عمر العلوى وأنفذه إلى فارس، وكان سبب قبضه ما تكلم به المطهر فى حقه عند موته، وأرسل إلى الكوفة فقبض أمواله، فوجد له من المال والسلاح والذخائر ما لا يحصى، واصطنع عضد الدولة أخاه أبا الفتح أحمد، وولاه الحج بالناس .

وفيها تجددت وصلة بين الطائع لله وبين عضد الدولة، فتزوج الطائع ابنته، وكان غرض عضد الدولة أن تلد ابنته ولداً ذكراً فيجعله ولى عهده، فتكون الخلافة فى ولد لهم فيه نسب، وكان الصداق مائة ألف دينار .

وفيها كانت فتنة عظيمة بين عامة شيراز من المسلمين وبين المجوس، نهبت فيها دور المجوس، وضربوا، وقتلوا منهم جماعة، فسمع عضد الدولة الخبر، فسير إليهم من جمع كل من له أثر فى ذلك، وضربهم، وبالغ فى تأديبهم وزجرهم .

وفيها أرسل سرية إلى عين التمر، وبها ضبة بن محمد الأسدى، وكان يسلك سبيل اللصوص وقطاع الطريق، فلم يشعر إلا والعساكر معه، فترك أهله وماله ونجا بنفسه فريداً، وأخذ ماله وأهله، وملكت عين التمر، وكان قبل ذلك قد نهب مشهد الحسين، صلوات الله عليه، فعوقب بهذا .

وفيها قبض عضد الدولة على النقيب أبى أحمد الحسين الموسوى، والد الشريف الرضى، وعلة أخيه أبى عبد الله، وعلى قاضى القضاة أبى محمد وسيرهم إلى فارس، واستعمل على قضاء القضاة أبا سعد بشر بن الحسين، وهوشيخ كبير، وكان مقيماً بفارس، واستناب على القضاء ببغداد .

وفيها توفى أبوعبد الله أحمد بن عطاء بن سبكتين بن محمد بن عطاء الروذبارى، الصوفى، بنواحى عكا، وكان قد انتقل من بغداد إلى الشام .

وفيها، فى ذى الحجة، توفى محمد بن عيسى بن عرويه أبوأحمد الجلودى الزاهد، راوى صحيح مسلم عن ابن سفيان، ودفن بالحيرة فى نيسابور وله ثمانون سنة .

(الجلودى بفتح الجيم، وقيل بضمها، وهوقليل، والحيرة بكسر الحاء المهملة وبالراء المهملة، وهى محلة بنيسابور) .

وفيها توفى أبوالحسين أحمد بن زكرياء بن فارس اللغوى، صاحب كتاب المجمل وغيره، وله شعر، فمن ذلك قوله قبل وفاته بيومين :

يا رب إن ذنوبى قد أحطت بها علماً، وبى وبإعلامى وإسرارى
أنا الموحد لكنى المقر بها، فهب ذنوبى لتوحيدى وإقرارى

وفى شوال توفى أبوالحسن ثابت بن إبراهيم الحرانى المتطبب، الصابى، ومولده بالرقة سنة ثلاث وثمانين ومائتين، وكان عارفاً حاذقاً فى الطب .

وهنا تنتهى بنا تلك الرحلة بانتهاء الجزء الثامن .

٩

ونستعد الآن للقيام بتلك الرحلة عبر رياض ابن الأثير، لنتعلم منها الدروس، ونحاول من خلالها تحليل الأحداث، لنقف على الحاضر ونستعد للمستقبل، وتبدأ أحداث ذلك الجزء من سنة سبعين وثلاثمائة إلى سنة خمسين وأربعمائة.

ثم دخلت سنة سبعين وثلاثمائة

ذكر إقطاع مؤيد الدولة همذان، وملك عضد الدولة قلعة سندة وغيرها، والحرب بين عسكر العزيز وابن جراح وعزل قسام عن دمشق.

ثم دخلت سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة

ذكر عزل ابوالحسن محمد بن إبراهيم بن سيمجور، واستيلاء عضد الدولة على جرجان، ومسير حسام الدولة وقابوس إلى جرجان، وقتل الأمير أبى القاسم أمير صقلية وهزيمة الفرنج.

ذكر عدة حوادث

فى هذه السنة وقع حريق بالكرخ ببغداد فاحترق فيها مواضع كثيرة هلك فيها خلق كثير من الناس، وبقى الحريق أسبوعاً

وفيها قبض عضد الدولة على القاضى أبى على المحسن بن على التنوخى، وألزمه منزله، وعزله عن أعماله التى كان يتولاها وكان حنفى المذهب شديد التعصب على الشافعى يطلق لسانه فيه، قاتله الله !

وفيها أفرج عضد الدولة عن أبى إسحاق إبراهيم بن هلال الصابى الكاتب. وكان القبض عليه سنة سبع وستين وثلاثمائة .

وكان سبب قبضه أنه كان يكتب عن نجتيار كتباً فى معنى الخلف الواقع بينه وبين عضد الدولة، فكان ينصح صاحبه، فمما كتبه عن الخليفة الطائع إلى عضد الدولة فى المعنى، وقد لقب عز الدولة بشاهنشاه، فتزحزح له عن سنن المساواة، فنقم عليه عضد الدولة ذلك، وهذا من أعجب الأشياء، فإنه كان ينبغى أن يعظم فى عينه لنصحه لصاحبه، فلما أطلقه أمره بعمل كتاب يتضمن أخبارهم ومحاسنها، فعمل التاجى فى دولة الديلم .

وفيها أرسل عضد الدولة القاضى أبا بكر محمد بن الطيب الأشعرى المعروف بابن الباقلانى إلى ملك الروم فى جواب رسالة وردت منه، فلما وصل إلى الملك قيل له ليقبل الأرض بين يديه، فلم يفعل، فقيل: لا سبيل إلى الدخول إلا مع تقبيل الأرض فأصر على الامتناع، فعمل الملك بابا صغيراً يدخل منه القاضى منحنيا ليوهم الحاضرين أنه قبل الأرض، فلما رأى القاضى الباب علم ذلك، فاستدبره ودخل منه، فلما جازه استقبل الملك وهوقائم، فعظم عندهم محله.

وفيها فتح المارستان العضدى، غربى بغداد، ونقل إليه جميع ما يحتاج إليه من الأدوية .

وفى هذه السنة توفى الإمام أبوبكر أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل الإسماعيلى الجرجانى، الفقيه الشافعى، وكان عالماً بالحديث وغيره من العلوم والإمام محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد أبوزيد المروزى الفقيه الشافعى الزاهد، يروى صحيح البخارى عن الفربرى، وتوفى فى رجب وأبوعبد الله محمد بن خفيف الشيرازى ، شيخ الصوفية فى وقته، صحب الجريرى وابن عطاء وغيرهما .

وفيها توفى أبوالحسن على بن إبراهيم الصوفى المعروف بالحصرى.

ثم دخلت سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة

ذكر ولاية بكجور دمشق.

ذكر وفاة عضد الدولة

فى هذه السنة، فى شوال، اشتدت علة عضد الدولة، وهوما كان يعتاده من الصرع فضعفت قوته عن دفعه، فخنقه، فمات منه ثامن شوال ببغداد، وحمل إلى مشهد أمير المؤمنين على ، عليه السلام فدفن به .

وكانت ولايته بالعراق خمس سنين ونصفاً . ولما توفى جلس ابنه صمصام الدولة أبوكاليجار للعزاء، فأتاه الطائع لله معزيا، وكان عمر عضد الدولة سبعاً وأربعين سنة. وكان قد سير ولده شرف الدولة أبا الفوارس إلى كرمان مالكاً لها، قبل أن يشتد مرضه، وقيل إنه لما احتضر لم ينطلق لسانه إلا بتلاوة ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ (الحاقة /٢٨، ٢٩).

وكان عاقلاً، فاضلاً، حسن السياسة، كثير الإصابة، شديد الهيبة، بعيد الهمة، ثاقب الرأى، محباً للفضائل وأهلها، باذلاً فى مواضع العطاء، مانعاً فى أماكن الحزم ناظراً فى عواقب الأمور .

قيل : لما مات عضد الدولة بلغ خبره بعض العلماء، وعنده جماعة من أعيان الفضلاء، فتذاكروا الكلمات التى قالها الحكماء عند موت الإسكندر، وقد ذكرتها فى أخباره، فقال بعضهم : لوقلتم أنتم مثلها لكان ذلك يؤثر عنكم .

فقال أحدهم : لقد وزن هذا الشخص الدنيا بغير مثقالها وأعطاها فوق قيمتها، وطلب الربح فيها فخسر روحه فيها .

وقال الثانى : من استيقظ للدنيا فهذا نومه، ومن حلم فيها فهذا انتباهه .

وقال الثالث : ما رأيت عاقلاً فى عقله، ولا غافلاً فى غفلته مثله، لقدكان ينقض جانباً وهويظن أنه مبرم، ويغرم وهويظن أنه غانم .

وقال الرابع : من جد للدنيا هزلت به، ومن هزل راغباً عنها جدت له .

وقال الخامس : ترك هذا الدنيا شاغرة، ورحل عنها بلا زاد ولا راحلة .

وقال السادس : إن ماء أطفأ هذه النار لعظيم، وإن ريحاً زعزعت هذا الركن لعصوف.

وقال السابع : إنما سلبك من قدر عليك .

وقال الثامن : أما إنه لوكان معتبراً فى حياته لما صار عبرةً فى مماته .

وقال التاسع : الصاعد فى درجات الدنيا إلى استفال، والنازل فى درجاتها إلى تعال .

وقال العاشر : كيف غفلت عن كيد هذا الأمر حتى نفذ فيك، وهلا اتخذت دونه جنةً تقيك، إن فى ذلك لعبرة للمعتبرين، وإنك لآية للمستبصرين .

وبنى على مدينة النبى، صلى الله عليه سلم، سوراً. له شعر حسن، فمن شعره لما أرسل إليه أبوتغلب بن حمدان يعتذر من مساعدته نجتيار، يطلب الأمان، فقال عضد الدولة :

أفاق حين وطئت ضيق خناقه	يبغى الأمان، وكان يبغى صارما
فلأركبن عزيمةً عضديةً	تاجيةً، تدع الأنوف رواغماً

وقال أبياتًا منها بيت لم يفلح بعده، وهى هذه :

ليس شرب الكأس إلا فى المطر	وغناء من جوار فى السحر
غانيات، سالبات للنهى	ناغمات فى تضاعيف الوتر
مبرزات الكأس من مطلعها	ساقيات الراح من فاق البشر
عضد الدولة وابن ركنها	لك الأملاك غلاب القدر

وهذا البيت هوالمشار إليه .

وحكى عنه أنه كان فى قصره جماعة من الغلمان يحمل إليهم مشاهراتهم من الخزانة، فأمر أبا نصر خواشاذه أن يتقدم إلى الخازن بأن يسلم جامكية الغلمان

إلى نقيبهم فى شهر قد بقى منه ثلاثة أيام . قال أبونصر : فأنسيت ذلك أربعة أيام، فسألنى عضد الدولة عن ذلك فقلت : أنسيته فاغلظ لى، فقلت :

أمس استهل الشهر، والساعة نحمل المال، وما هاهنا ما يوجب شغل القلب.

فقال : المصيبة بما لا تعلمه من الغلط أكثر منها فى التفريط، ألا تعلم أنا إذا أطلقنا لهم مالهم قبل محله كان الفضل لنا عليهم، فإذا أخرنا ذلك عنهم، حتى استهل الشهر الآخر، حضروا عند عارضهم وطالبوه، فيعدهم فيحضرونه فى اليوم الثانى، فيعدهم، ثم يحضرونه فى اليوم الثالث، ويبسطون ألسنتهم، فتضيع المنة، وتحصل الجرأة، ونكون إلى الخسارة أقرب منا إلى الربح .

وكان لا يعول فى الأمور إلا على الكفاة، ولا يجعل للشفاعات طريقاً إلى معارضة من ليس من جنس الشافع، ولا فيما يتعلق به .

حكى عنه أن مقدم جيشه أسفار بن كردويه شفع فى بعض أبناء العدول ليتقدم إلى القاضى ليسمع تزكيته ويعدله، فقال : ليس هذا من أشغالك، إنما الذى يتعلق بك الخطاب فى زيادة قائد، ونقل مرتبة جندى، وما يتعلق بهم، وأما الشهادة وقبولها فهوإلى القاضى وليس لنا ولا لك الكلام فيه، ومتى عرف القضاة من إنسان ما يجوز معه قبول شهادته، فعلوا ذلك بغير شفاعة .

وكان يخرج فى ابتداء كل سنة شيئاً كثيراً من الأموال للصدقة والبر فى سائر بلاده، ويأمر بتسليم ذلك إلى القضاة ووجوه الناس ليصرفوه إلى مستحقيه .

وكان يوصل إلى العمال المتعطلين ما يقوم بهم ويحاسبهم به إذا عملوا .

وكان محباً للعلوم وأهلها، مقرباً لهم، محسناً إليهم، وكان يجلس معهم يعارضهم فى المسائل، فقصده العلماء من كل بلد، وصنفوا له الكتب منها الإيضاح فى النحو، و الحجة فى القراءات ، و الملكى فى الطب ، و التاجى فى التاريخ ، إلى غير ذلك، وعمل المصالح فى سائر البلاد كالبيمارستانات والقناطر وغير ذلك من المصالح العامة، إلا أنه أحدث فى آخر أيامه رسوماً جائرة فى المساحة، والضرائب على بيع الدواب، وغيرها من الأمتعة، وزاد على ما تقدم،

ومنع من عمل الثلج، والقز، وجعلهما متجراً للخاص، وكان يتوصل إلى أخذ المال بكل طريق .

ولما توفى عضد الدولة قبض على نائبه أبى الريان من الغد، فأخذ من كمه رقعة فيها :

أيا واثقاً بالدهر عند انصرافه	رويدك إنى بالزمان أخو خبر
ويا شامتاً مهلاً، فكم ذى شماتة	تكون له العقبى بقاصمة الظهر

ثم ذكر ولاية صمصام الدولة بن عضد الدولة العراق وملك أخيه شرف الدولة بلاد فارس، وقتل الحسين بن عمران بن شاهين، وعود بن سيمجور إلى خراسان.

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة

ذكر موت مؤيد الدولة وعود فخر الدولة إلى مملكته وعزل أبى الباس عن خراسان وولاية ابن سيمجور، وانهزام أبى العباس إلى جرجان ووفاته وقتل أبى الفرج محمد بن عمران وملك أبى المعالى ابن أخيه الحسن، وذكر استيلاء المظفر على البطيحة، وعزوة ابن أبى عامر إلى الفرنج بالأندلس ووفاة يوسف بلكين صاحب أفريقيا وولاية ابنه المنصور.

ثم دخلت سنة أربع وسبعين وثلاثمائة

ذكر عودة الديلم إلى الموصل وانهزام باذ الكردى.

ثم دخلت سنة خمس سبعين وثلاثمائة

ذكر الفتنة ببغداد وأخبار القرامطة وذكر الإفراج عن ورد الرومى وما صار أمره إليه وذكر ملك شرف الدولة الأهواز.

ثم دخلت سنة ست وسبعين وثلاثمائة

ذكر ملك شرف الدولة العراق.

ذكر الفتنة بين الأتراك والديلم

فى هذه السنة جرت فتنة بين الديلم والأتراك الذين مع شرف الدولة ببغداد.

وسببها أن الديلم اجتمعوا مع شرف الدولة فى خلق كثير بلغت عدتهم خمسة عشر ألف رجل، وكان الأتراك فى ثلاثة آلاف، فاستطال عليهم الديلم، فجرت منازعة بين بعضهم فى دار وإصطبل، ثم صارت إلى المحاربة، فاستظهر الديلم لكثرتهم، وأرادوا إخراج صمصام الدولة وإعادته إلى ملكه .

وبلغ شرف الدولة الخبر، فوكل بصمصام الدولة من يقتله إن هم الديلم بإخراجه . ثم إن الديلم لما استظهروا على الأتراك تبعوهم، فتشوشت صفوفهم، فعادت الأتراك عليهم من أمامهم خلفهم، فانهزموا وقتل منهم زيادة على ثلاثة آلاف، ودخل الأتراك البلد، فقتلوا من وجدوه منهم، ونهبوا أموالهم، وتفرق الديلم، فبعضهم اعتصم بشرف الدولة، وبعضهم سار عنه .

فلما كان الغد دخل شرف الدولة بغداد والديلم المعتصمون به معه، فخرج الطائع لله ولقيه وهنأه بالسلامة، وقبل شرف الدولة الأرض، وأخذ الديلم يذكرون صمصام الدولة، فقيل لشرف الدولة : اقتله، وإلا ملكوه الأمر .

ثم إن شرف الدولة أصلح بين الطائفتين، وحلف بعضهم لبعض، وحمل صمصام الدولة إلى فارس، فاعتقل فى قلعة هناك، فرد شرف الدولة على الشريف محمد بن عمر جميع أملاكه وزاده عليها، وكان خراج أملاكه كل سنة ألفى ألف وخمس مائة ألف درهم، ورد على النقيب أبى أحمد الموسوى أملاكه، وأقر الناس على مراتبهم، ومنع الناس من السعايات ولم يقبلها، فأمنوا وسكنوا ووزر له أبومنصور بن صالحان .

ثم دخلت سنة سبع وسبعين وثلاثمائة

ذكر الحرب بين بدر بن حسونة وعسكر شرف الدولة، وذكر مسير المنصور بن يوسف لحرب كُتامة.

ثم دخلت سنة ثمانين وثلاثمائة

ذكر قتل باذ الكردى صاحب ديار بكر.

ذكر ابتداء دولة بنى مروان

لما قتل باذ سار ابن أخته أبوعلى بن مروان فى طائفة من الجيش إلى حصن كيفا، وهوعلى دجلة، وهومن أحصن المعاقل، وكان به امرأة باذ وأهله، فلما بلغ الحصن قال لزوجة خاله : قد أنفذنى خالى إليك فى مهم فظننته حقاً، فلما صعد إليها أعلمها بهلاكه، وأطمعها فى التزوج بها، فوافقته على ملك الحصن وغيره، ونزل وقصد حصناً حصناً، حتى ملك ما كان لخاله، وسار إلى ميافارقين وسار إليه أبوطاهر وأبوعبد الله ابنا حمدان وطمعا فيه، ومعهما رأس باذ، فوجدا أبا على قد أحكم أمره، فتصافوا واقتتلوا، وظفر أبوعلى وأسر أبا عبد الله بن حمدان، فأكرمه وأحسن إليه، ثم أطلقه فسار إلى أخيه أبى طاهر، وهوبآمد يحصرها، فأشار عليه بمصالحة ابن مروان، فلم يفعل، واضطر أبوعبد الله إلى موافقته، وسارا إلى ابن مروان فواقعاه، فهزمها، وأسر أبا عبد الله أيضاً فأساء إليه وضيق عليه، إلى أن كاتبه صاحب مصر وشفع فيه فأطلقه، ومضى إلى مصر وتقلد منها ولاية حلب، وأقام بتلك الديار إلى أن توفى .

وأما أبوطاهر فإنه لما وصل إلى نصيبين قصده أبوالذواد فأسره وعلياً ابنه، والمزعفر أمير بنى نمير، وقتلهم صبرا .

وأقام ابن مروان بديار بكر وضبطها، وأحسن إلى أهلها، وألان جانبه لهم، فطمع فيه أهل ميافارقين، فاستطالوا على أصحابه، فأمسك عنهم إلى يوم العيد، وقد خرجوا إلى المصلى، فلما تكاملوا فى الصحراء وافى إلى البلد، وأخذ أبا الصقر شيخ البلد فألقاه من على السور، وقبض على من كان معه، وأخذ الأكراد ثياب الناس خارج البلد، وأغلق أبواب البلد، وأمر أهله أن ينصرفوا حيث شاءوا، ولم يمكنهم من الدخول فذهبوا كل مذهب .

وكان قد تزوج ست الناس بنت سعد الدولة بن سيف الدولة بن حمدان، فأتته من حلب، فعزم على زفافها بآمد، فخاف شيخ البلد، واسمه عبد البر، أن يفعل به مثل فعله بأهل ميافارقن، فأحضر ثقاته وحلفهم على كتمان سره، وقال لهم : قد صح عزم الأمير على أن يفعل بكم مثل فعله بأهل ميافارقين، وهويدخل من باب الماء ويخرج من باب الجهاد، فقفوا له فى الدركاه، وانثروا عليه هذه الدراهم، ثم اعتمدوا بها وجهه، فإنه سيغطيه بكمه، فاضربوه بالسكاكن فى مقتله ففعلوا.

وجرت الحال كما وصف، وتولى قتله إنسان يقال له ابن دمنة كان فيه إقدام وجرأة، فاختبط الناس وماجوا، فرمى برأسه إليهم، فأسرعوا السير إلى ميافارقين.

وحدث جماعة من الأكراد نفوسهم بملك البلد، فاستراب بهم مستحفظ ميافارقين لإسراعهم، وقال : إن كان الأمير حياً فادخلوا معه، وإن كان قتل فأخوه مستحق لموضعه . فما كان بأسرع من أن وصل ممهد الدولة أبومنصور بن مروان أخوأبى على إلى ميافارقين، ففتح له باب البلد فدخله وملكه، ولم يكن له فيه إلا السكة والخطبة لما نذكره .

وأما عبد البر فاستولى على آمد، وزوج ابن دمنة، الذى قتل أبا على ابنته فعمل له ابن دمنة دعوة وقتله، وملك آمداً، وعمر البلد وبنى لنفسه قصراً عند السور، وأصلح أمره مع ممهد الدولة، وهادى ملك الروم، وصاحب مصر، وغيرهما من الملوك وانتشر ذكره .

وأما ممهد الدولة فإنه كان معه إنسان من أصحابه يسمى شروة، حاكما فى مملكته، وكان لشروة غلام قد ولاه الشرطة، وكان ممهد الدولة يبغضه، ويريد قتله، ويتركه احراماً لصاحبه، ففطن الغلام لذلك، فأفسد ما بينهما، فعمل شروة طعاماً بقلعة الهتاخ، وهى إقطاعه، ودعا إليها ممهد الدولة، فلما حضر عنده قتله، وذلك سنة اثنتين وأربعمائة، وخرج من الدار إلى بنى عم ممهد الدولة، فقبض عليهم وقيدهم، وأظهر أن ممهد الدولة أمره بذلك، ومضى إلى ميافارقين

وبين يديه المشاعل، ففتحوا له ظنا منهم أنه ممهد الدولة، فملكها، وكتب إلى أصحاب القلاع يستدعيهم، وأنفذ إنساناً إلى أرزن ليحضر متوليها، ويعرف بخواجه أبى القاسم، فسار خواجه نحو ميافارقين، ولم يسلم القلعة إلى القاصد إليه.

فلما توسط الطريق سمع بقتل ممهد الدولة فعاد إلى أرزن، وأرسل إلى أسعرد، فأحضر أبا نصر بن مروان أخا ممهد الدولة، وكان أخوه قد أبعده عنه، وكان يبغضه لمنام رآه، وهوأنه رأى كأن الشمس سقطت فى حجره، فنازعه أبونصر عليها وأخذها، فأبعده لهذا، وتركه بأسعرد مضيقا عليه، فلما استدعاه خواجه قال له دبير : تفلح ؟ قال : نعم .

وكان شروة قد أنفذ إلى أبى نصر، فوجدوه قد سار إلى أرزن، فعلم حينئذ انتقاض أمره. وكان مروان والد ممهد الدولة قد أضر، وهو بأرزن، عند قبر ابنه أبى على، وهو وزوجته، فأحضر خواجه أبا نصر عندهما، وحلفه على القبول منه، والعدل، وأحضر القاضى الشهود على اليمين وملكه أرزن، ثم ملك سائر بلاد ديار بكر، فدامت أيامه، وأحسن السيرة، وكان مقصداً للعلماء من سائر الآفاق، وكثروا ببلاده .

وممن قصده أبوعبد الله الكازرونى ، وعنه انتشر مذهب الشافعى بديار بكر، وقصده الشعراء وأكثروا مدحه وأجزل جوائزهم، وبقى كذلك من سنة اثنتين وأربعمائة إلى سنة ثلاث وخمسين، فتوفى فيها وكان عمره نيفا وثمانين سنة، وكانت الثغور معه آمنة، وسيرته فى رعيته أحسن سيرة، فلما مات ملك بلاده ولده .

ذكر ملك آل المسيب الموصل، ومسير بهاء الدولة إلى الأهواز وما كان منه ومن صمصام الدولة.

ثم دخلت سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة

ذكر القبض على الطائع لله.

ذكر خلافة القادر بالله

لما قبض على الطائع لله ذكر بهاء الدولة من يصلح للخلافة، فاتفقوا على القادر بالله وهوأبوالعباس أحمد بن إسحاق بن المقتدر بن المعتضد، وأمه أم ولد اسمها دمنة، وقيل تمنى، وكان بالبطيحة، كما ذكرناه، فارسل إليه بهاء الدولة خواص أصحابه ليحضروه إلى بغداد ليتولى الخلافة، فانحدروا إليه، وشغب الديلم ببغداد، ومنعوا من الخطبة، فقيل على المنبر: اللهم أصلح عبدك وخليفتك القادر بالله، ولم يذكروا اسمه، وأرضاهم بهاء الدولة .

ولما وصل الرسل إلى القادر بالله كان تلك الساعة يحكى مناماً رآه تلك الليلة، وهوما حكاه هبة الله بن عيسى كاتب مهذب الدولة قال : كنت أحضر عند القادر بالله كل أسبوع مرتين، فكان يكرمنى، فدخلت عليه يوماً فوجدته قد تأهب تأهباً لم تجر به عادته، ولم أر منه مما ألفته من إكرامه، واختلفت بى الظنون فسألته عن سبب ذلك، فإن كان لزلة منى اعتذرت عن نفسى .

فقال : بل رأيت البارحة فى منامى كأن نهركم هذا، نهر الصليق، قد اتسع، فصار مثل دجلة، دفعات، فسرت على حافته متعجباً منه، ورأيت قنطرة عظيمة، فقلت : من قد حدث نفسه بعمل هذه القنطرة على هذا البحر العظيم ؟ ثم صعدتها، وهى محكمة، فبينما أنا عليها أتعجب منها إذ رأيت شخصا قد تأملنى من ذلك الجانب، فقال: أتريد أن تعبر؟ قلت: نعم فمد يده حتى وصلت إلى، فأخذنى وعبرنى، فهالنى وتعاظمنى فعله، قلت :

من أنت ؟ قال : على بن أبى طالب هذا الأمر صائر إليك، ويطول عمرك فيه، فأحسن إلى ولدى، وشيعتى . فما انتهى القادر إلى هذا القول حتى سمعنا صياح الملاحين وغيرهم، وسألنا عن ذلك، وإذا هم الواردون إليه لإصعاده ليتولى الخلافة، فخاطبته بإمرة المؤمنين وبايعته، وقام مهذب الدولة بخدمته أحسن قيام، وحمل إليه من المال وغيره ما يحمله كبار الملوك للخلفاء وشيعه. فسار القادر بالله إلى بغداد، فلما دخل جبل انحدر بهاء الدولة وأعيان الناس

لاستقباله، وساروا فى خدمته، فدخل دار الخلافة ثانى عشر رمضان، وبايعه بهاء الدولة والناس، وخطب له ثالث عشر رمضان، وجدد أمر الخلافة، وعظم ناموسها، وسيرد من أخباره، إن شاء الله تعال، ما يعلم به ذلك، وحمل إليه بعض ما نهب من دار الخلافة، وكانت مدة مقامه فى البطيحة سنتين وأحد عشر شهراً ولم يخطب له فى جميع خراسان، كانت الخطبة فيها للطائع لله .

ذكر ملك خلف بن أحمد كرمان، وبكجور على سعد الولة بن حمدان وقتله، ووفاة سعدالدولة.

ثم دخلت سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة

ذكر عود الديلم إلى الموصل، وذكر تسليم الطائع إلى القادر وما فعله معه.

ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة

ذكر خروج أولاد بختيار وملك صمصام الدولة خوزستان.

ذكر ملك الترك بخارى

فى هذه السنة ملك مدينة بخارى شهاب الدولة هارون بن سليمان أيلك المعروف ببغراخان التركى، وكان له كاشغر بلاساغون إلى حد الصين .

وكان سبب ذلك أن أبا الحسن بن سيمجور لما مات ولى ابنه أبوعلى خراسان بعده، كاتب الأمير الرضى نوح بن منصور يطلب أن يقره على ما كان أبوه يتولاه، فأجيب إلى ذلك، وحملت إليه الخلع، وهو لا يشك أنها له، فلما بلغ الرسول طريق هراة عدل إليها، وبها فائق، فأوصل الخبر والعهد بخراسان إليه، فعلم أبوعلى أنهم مكروا به، وأن هذا دليل سوء يريدونه به، فلبس فائق الخلع وسار عن هراة نحوأبى على يبلغه الخبر، فسار جريدة فى نخبة أصحابه، وطوى المنازل حتى سبق خبره، فأوقع بفائق فيما بين بوشنج وهراة، فهزم فائقاً أصحابه، وقصدوا مروالروذ .

وكتب أبوعلى إلى الأمير نوح يجدد طلب ولاية خراسان، فأجابه إلى ذلك، وجمع له ولاية خراسان جميعها بعد أن كانت هراة لفائق، فعاد أبوعلى إلى نيسابور ظافراً، وجبى أموال خراسان، فكتب إليه نوح يستنزله عن بعضها ليصرفه فى أرزاق جنده، فاعتذر إليه ولم يفعل، وخاف عاقبة المنع، فكتب إلى بغراخان المذكور يدعوه إلى أن يقصد بخارى ويملكها على السامانية، وأطمعه فيهم، واستقر الحال بينهما على أن يملك بغراخان ما وراء النهر كله، ويملك أبوعلى خراسان، فطمع بغراخان فى البلاد، وتجدد له إليها حركة .

وأما فائق فإنه أقام بمروالروذ حتى انجبر كسره واجتمع إليه أصحابه وسار نحو بخارى من غير إذن، فارتاب الأمير نوح به، فسير إليه الجيوش وأمرهم بمنعه، فلما لقوه قاتلوه، فانهزم فائق وأصحابه، وعاد على عقبيه، وقصد ترمذ. فكتب الأمر نوح إلى صاحب الجوزجان من قبله، وهوأبوالحرث أحمد بن محمد الفريغونى، وأمره بقصد فائق فجمع جمعاً كثيراً وسار نحوه، فأوقع بهم فائق فهزمهم وغنم أموالهم .

وكاتب أيضا بغراخان يطمعه فى البلاد، فسار نحونجارى وقصد بلاد السامانية، فاستولى عليها شيئا بعد شىء فسير إليه نوح جيشاً كثيراً، واستعمل عليهم قائداً كبيراً من قواده اسمه انج، فلقيهم بغراخان، فهزمهم، وأسر انج وجماعة من القواد، فلما ظفر بهم قوى طمعه فى البلاد، وضعف نوح وأصحابه، وكاتب الأمير نوح أبا على بن سيمجور يستنصره، ويأمره بالقدوم إليه بالعساكر، فلم يجبه إلى ذلك، ولا لبى دعوته، وقوى طمعه فى الاستيلاء على خراسان .

وسار بغراخان نحو بخارى، فلقيه فائق، واختص به، وصار فى جملته ونازلوا بخارى، فاختفى الأمير نوح، وملكها بغراخان ونزلها، وخرج نوح منها مستخفياً فعبر النهر إلى آمل الشط، وأقام بها ولحق بن أصحابه، فاجتمع عنده منهم جمع كثير، وأقاموا هناك .

وتابع نوح كتبه إلى أبى على ورسله يستجده ويخضع له، فلم يصغ إلى ذلك وأما فائق فإنه استأذن بغراخان فى قصد بلخ والاستيلاء عليها، فامره بذلك، فسار نحوها ونزلها .

ثم دخلت سنة أربع وثمانين وثلاثمائة

ذكر ولاية محمود بن سبكتكين خراسان وإجلاء أبى على عنها، وعود الأهواز إلى بهاء الدولة.

ثم دخلت سنة خمس وثمانين وثلاثمائة

ذكر عود أبى على إلى خراسان،وقبض أبى على بن سيمجور وموته.

ذكر وفاة الصاحب بن عباد

فى هذه السنة مات الصاحب أبوالقاسم إسماعيل بن عباد، وزير فخر الدولة بالرى، وكان واحد زمانه علمًا وفضلاً، وتدبيرا، وجودة رأى، وكرماً، عالماً بأنواع العلوم، وعارفاً بالكتابة وموادها، ورسائله مشهورة مدونة، وجمع من الكتب ما لم يجمعه غيره حتى إنه كان يحتاج فى نقلها إلى أربع مائة جمل .

ولما مات وزر بعده لفخر الدولة أبوالعباس أحمد بن إبراهيم الضبى الملقب بالكافى .

ولما حضره الموت قال لفخر الدولة : قد خدمتك خدمةً استفرغت فيها وسعى وسرت سيرةً جلبت لك حسن الذكر، فإن أجريت الأمور على ما كانت عليه نسب ذلك الجميل إليك وتركت أنا، وإن عدلت عنه كنت أنا المشكور ونسبت الطريقة الثانية إليك وقدح ذلك فى دولتك. فكان هذا نصحه له إلى أن مات .

فلما توفى أنفذ فخر الدولة من احتاط على ماله ودارة، ونقل جميع ما فيها إليه، فقبح الله خدمة الملوك، هذا فعلهم مع من نصح لهم، فكيف مع غيره ونقل الصاحب بعد ذلك إلى أصبهان، وكثير ما بين فعل فخر الدولة مع ابن عباد وبين العزيز بالله العلوى مع وزيره يعقوب بن كلس وقد تقدم .

وكان الصاحب بن عباد قد أحسن إلى القاضى عبد الجبار بن أحمد المعتزلى، وقدمه، وولاه قضاء الرى، وأعمالها، فلما توفى قال عبد الجبار : لا أرى الترحم عليه، لأنه مات عن غير توبة ظهرت منه، فنسب عبد الجبار إلى قلة الوفاء .

ثم إن فخر الدولة قبض على عبد الجبار وصادره، فباع، فى جملة ما باع ألف طيلسان، وألف ثوب صوف رفيع، فلم لا نظر لنفسه، وتاب عن أخذ مثل هذا واذخاره من غير حله ؟ ثم إن فخر الدولة قبض على أصحاب ابن عباد وأبطل كل مسامحة كانت منه، وقرر هو ووزراؤه المصادرات فى البلاد، فاجتمع له منها كثير، ثم تمزق بعد وفاته فى أقرب مدة، وحصل بالوزر وسوء الذكر .

ذكر إيقاع صمصام الدولة بالأتراك، ووفاة خواشاذه.

ثم دخلت سنة ست وثمانين وثلاثمائة

ذكر وفاة العزيز بالله وولاية ابنه الحاكم وما كان من الحروب إلى أن استقر أمره

فى هذه السنة توفى العزيز أبومنصور نزار بن المعز أبى تميم معد العلوى، صاحب مصر، لليلتين بقيتا من رمضان، وعمره اثنتان وأربعون سنة وثمانية أشهر ونصف، بمدينة بلبيس، وكان برز إليها لغزوالروم، فلحقه عدة أمراض منها النقرس والحصا والقولنج، فاتصلت به إلى أن مات .

وكانت خلافته إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر ونصفاً، ومولده بالمهدية من إفريقيا .

وكان أسمر طويلاً، أصهب الشعر، عريض المنكبين، عارفا بالخيل والجوهر، قيل إنه ولى عيسى بن نسطورس النصرانى كتابته، واستناب بالشام يهودياً اسمه منشا، فاعتز بهما النصارى واليهود، وآذوا المسلمين، فعمد أهل مصر وكتبوا قصة وجعلوها فى يد صورة عملوها من قراطيس، فيها :

بالذى أعز اليهود بمنشا والنصارى بعيسى بن نسطورس، وأذل المسلمين بك ألا كشفت ظلامتى، وأقعدوا تلك الصورة على طريق العزيز، والرقعة بيدها، فلما رآها أمر بأخذها، فلما قرأ ما فيها، ورأى الصورة من قراطيس، علم ما أريد بذلك، فقبض عليهما، وأخذ من عيسى ثلاثمائة ألف دينار، ومن اليهودى شيئاً كثيراً.

وكان يحب العفو ويستعمله، فمن حلمه أنه كان بمصر شاعر اسمه الحسن ابن بشر الدمشقى، وكان كثير الهجاء، فهجا يعقوب بن كلس وزير العزيز وكاتب الإنشاء من جهته أبا نصر عبد الله الحسين القيروانى، فقال :

قل لأبى نصر صاحب القصر،	والمتأتى لنقض ذا الأمر
انقض عرى الملك للوزير تفز	منه بحسن الثناء والذكر
وأعط، وأمنع، ولا تخف أحداً	فصاحب القصر ليس فى القصر
وليس يدرى ماذا يراد به،	وهو إذا ما درى، فما يدرى

فشكاه ابن كلس إلى العزيز، وأنشده الشعر فقال له: هذا شىء اشتركنا فيه فى الهجاء فشاركنى فى العفوعنه. ثم قال هذا الشاعر أيضا وعرض بالفضل القائد:

تنصر، فالتنصر دين حق	عليه زماننا هذا يدل
وقل بثلاثة عزوا وجلوا،	وعطل ما سواهم فهو عطل

فيعقوب الوزير أب، وهذاالعزيز ابن، وروح القدس فضل

فشكاه أيضا إلى العزيز، فامتعض منه إلا أنه قال: اعف عنه فعفا عنه .

ثم دخل الوزير على العزيز، فقال : لم يبق للعفوعن هذا معنى، وفيه غض من السياسة، ونقض لهيبة الملك، فإنه قد ذكرك وذكرنى وذكر ابن زبارج نديمك، وسبك بقوله :

زبارجى نديم وكلسى وزير	نعم على قدر الكلب يصلح الساجور

فغضب العزيز، وأمر بالقبض عليه، فقبض عليه لوقته، ثم بدا للعزيز إطلاقه، فأرسل إليه يستدعيه، وكان للوزير عين فى القصر، فأخبره بذلك فأمر بقتله فقتل.

فلمـا وصل رسول العزيز فى طلبه أراه رأسه مقطوعاً، فعاد إليه فأخبره، فاغتم له .

ولما مات العزيز ولى بعده ابنه أبوعلى المنصور، ولقب الحاكم بأمر الله، بعهد من أبيه، فولى وعمره إحدى عشرة سنة وستة أشهر، وأوصى العزيز إلى أرجوان الخادم، وكان يتولى أمر داره، وجعله مدبر دولة ابنه الحاكم، فقام بأمره، وبايع له، وأخذ له البيعة على الناس، وتقدم الحسن ابن عمار، شيخ كتامة وسيدها، وحكم فى دولته، واستولى عليها، وتلقب بأمين الدولة، هوأول من تلقب فى دولة العلويين المصريين، فأشار عليه ثقاته بقتل الحاكم، وقالوا : لا حاجة بنا إلى من يتعبدنا فلم يفعل احتقاراً له، واستصغاراً لسنه .

وانبسطت كتامة فى البلاد، وحكموا فيها، ومدوا أيديهم إلى أموال الرعية وحريمهم، وأرجوان مقيم مع الحاكم فى القصر يحرسه، واتفق معه شكر خادم عضد الدولة، وقد ذكرنا قبض شرف الدولة عليه ومسيره إلى مصر، فلما اتفقا، وصارت كلمتهما واحدة، كتب أرجوان إلى منجوتكين يشكو ما يتم عليه من ابن عمار، فتجهز وسار من دمشق نحومصر، فوصل الخبر إلى ابن عمار، فأظهر أن منجوتكين قد عصى على الحاكم، وندب العساكر إلى قتاله، وسير إليه جيشاً كثيراً، وجعل عليهم أبا تميم سليمان بن جعفر بن فلاح الكتامى، فساروا إليه فلقوه بعسقلان، فانهزم منجوتكين وأصحابه، وقتل منهم ألفا رجل، وأسر منجوتكين وحمل إلى مصر، فأبقى عليه ابن عمار، وأطلقه استمالة للمشارقة بذلك.

واستعمل ابن عمار على الشام أبا تميم الكتامى، واسمه سليمان بن جعفر، فسار إلى طبرية، فاستعمل على دمشق أخاه علياً، فامتنع أهلها عليه، فكاتبهم أبوتميم يتهددهم فخافوا وأذعنوا بالطاعة، واعتذروا من فعل سفهائهم، وخرجوا إلى على فلم يعبأ بهم وركب ودخل البلد فأحرق وقتل وعاد إلى معسكره .

وقدم عليهم أبوتميم فأحسن إليهم وأمنهم، وأطلق المحبسين ونظر فى أمر الساحل، واستعمل أخاه علياً على طرابلس، وعزل عنها جيش ابن الصمصامة الكتامى، فمضى إلى مصر، واجتمع مع أرجوان على الحسن بن عمار، فانتهز أرجوان الفرصة ببعد كتامة عن مصر مع أبى تميم، فوضع المشارقة على الفتك بمن بقى بمصر منهم، وبابن عمار معهم . فبلغ ذلك ابن عمار، فعمل على الإيقاع بأرجوان وشكر العضدى فأخبرهما عيون لهما على ابن عمار بذلك، فاحتاطا ودخلا قصر الحاكم باكين، وثارت الفتنة، واجتمعت المشارقة، ففرق فيهم المال، وأوقعوا ابن عمار ومن معه، فانهزم واختفى .

فلما ظفر أرجوان أظهر الحاكم، وأجلسه، وجدد له البيعة، وكتب إلى وجوه القواد والناس بدمشق بالإيقاع بأبى تميم، فلم يشعر إلا وقد هجموا عليه ونهبوا خزائنه، فخرج هارباً، وقتلوا من كان عنده من كتامة، وعادت الفتنة بدمشق، واستولى الأحداث .

ثم إن أرجوان أذن للحسن بن عمار فى الخروج من استتاره، وأجراه على إقطاعه، وأمره بإغلاق بابه .

وعصى أهل صور، وأمروا عليهم رجلاً ملاحاً يعرف بعلاقة، وعصى أيضاً المفرج بن دغفل بن الجراح، ونزل على الرملة وعاث فى البلاد .

واتفق أن الدوقس، صاحب الروم، نزل على حصن أفامية، فأخرج أرجوان جيش بن الصمصامة فى عسكر ضخم، فسار حتى نزل بالرملة، فأطاعه واليها، وظفر فيها بأبى تميم فقبض عليه، وسير عسكراً إلى صور، وعليهم أبوعبد الله الحسين بن ناصر الدولة بن حمدان، فغزاها براً بحراً . فأرسل علاقة إلى ملك الروم يستنجده فسير إليه عدة مراكب مشحونة بالرجال، فالتقوا بمراكب المسلمين على صور، فاقتتلوا، وظفر المسلمون، وانهزم الروم، وقتل منهم جمع، فلما انهزموا انخذل أهل صور، وضعف نفوسهم، فملك البلد أبوعبد الله بن حمدان، ونهبه، وأخذت الأموال، وقتل كثير من جنده، وكان أول فتح كان على يد

أرجوان، وأخذ علاقة أسيراً فسيره إلى مصر، فسلخ وصلب بها، وأقام بصور، وسار جيش بن الصمصامة لقصد المفرج ابن دغفل، فهرب من بين يديه، وأرسل يطلب العفو فأمنه.

وسار جيش أيضاً إلى عسكر الروم، فلما وصل إلى دمشق تلقاه أهلها مذعنين، فأحسن إلى رؤساء الأحداث، وأطلق المؤن، وأباح دم كل مغربى يتعرض لأهلها، فاطمأنوا إليه .

وسار إلى أفامية، فصاف الروم عندها، فانهزم هو وأصحابه، ما عدا بشارة الإخشيدى، فإنه ثبت فى خمسمائة فارس. ونزل الروم إلى سواد المسلمين يغنمون ما فيه، والدوقس واقف على رايته، وبين يديه ولده وعدة غلمان، فقصده كردى يعرف بأحمد بن الضحاك، من أصحاب بشارة، ومعه خشت، فظنه الدوقس مستأمناً، فلم يحترز منه، فلما دنا منه حمل عليه وضربه بالخشت فقتله، فصاح المسلمون : قتل عدوالله ! وعادوا ونزل النصر عليهم، فانهزمت الروم وقتل منهم مقتلة عظيمة .

وسار جيش إلى باب أنطاكية يغنم ويسبى ويحرق، وعاد إلى دمشق فنزل بظاهرها، وكان الزمان شتاء، فسأله أهل دمشق ليدخل البلد، فلم يفعل، ونزل ببيت لهيا، وأحسن السيرة فى أهل دمشق، واستخص رؤساء الأحداث، واستحجب جماعة منهم، وجعل يبسط الطعام كل يوم لهم ولمن يجىء معهم من أصحابهم، فكان يحضر كل إنسان منهم فى جمع من أصحابه وأشياعه، وأمرهم إذا فرغوا من الطعام أن يحضروا إلى حجرة له يغسلون أيديهم فيها، فعبر على ذلك بره من الزمان، فأمر أصحابه أن رؤساء الأحداث، إذا دخلوا الحجرة لغسل أيديهم، أن يغلقوا باب الحجرة عليهم، ويضع السيف فى أصحابهم، فلما كان الغد حضروا الطعام، وقام الرؤساء إلى الحجرة، فأغلقت الأبواب عليهم، وقتل من أصحابهم نحوثلاثة آلاف رجل، ودخل دمشق فطافها فاستغاث الناس وسألوه العفو، وعفا عنهم، وأحضر أشراف أهلها، وقتل رؤساء الأحداث بين أيديهم،

وسير الأشراف إلى مصر، وأخذ أموالهم ونعمهم، ثم مرض بالبواسير وشدة الضريان فمات .

وولى بعده ابنه محمد، وكانت ولايته هذه تسعة أشهر . ثم إن أرجوان بعد هذه الحادثة راسل بسيل ملك الروم وهادنه عشر سنين، واستقامت الأمور على يد أرجوان . وسير أيضا جيشاً إلى برقة، وطرابلس الغرب ففتحها، واستعمل عليها أنساً الصقلبى ونصح الحاكم، وبالغ فى ذلك، ولازم خدمته فثقل مكانه على الحاكم، فقتله سنة تسع وثمانين وثلاثمائة .

وكان خصياً أبيض، وكان لأرجوان وزير نصرانى اسمه فهد بن إبراهيم، فاستوزره الحاكم، ثم إن الحاكم رتب الحسين بن جوهر موضع أرجوان، ولقبه قائد القواد ثم قتل الحسن بن عمار، المقدم ذكره، ثم قتل الحسين بن جوهر، ولم يزل يقيم الوزير بعد الوزير، ويقتلهم . ثم جهز يارختكين للمسير إلى حلب، وحصرها، وسير معه العساكر الكثيرة، فسار عنها، فخافه حسان بن المفرج الطائى، فلما رحل من غزة إلى عسقلان كمن له حسان ووالده، وأوقعا به وبمن معه، وأسراه وقتلاه، وقتل من الفريقين قتلى كثير، وحصرا الرملة، ونهبا النواحى، وكثر جمعهما، وملكا الرملة وما والاها، فعظم ذلك على الحاكم، وأرسل يعاتبهما، وسبق السيف العذل، فأرسلا إلى الشريف أبى الفتوح الحسن بن جعفر العلوى الحسنى، أمير مكة، وخاطباه بأمير المؤمنين، وطلباه إليهما ليبايعا له بالخلافة، فحضر، واستتاب بمكة، وخوطب بالخلافة .

ثم إن الحاكم راسل حساناً وأباه، وضمن لهما الأقطاع الكثيرة والعطاء الجزيل، واستمالهما، فعدلا عن أبى الفتوح، ورداه إلى مكة، وعادا إلى طاعة الحاكم .

ثم إن الحاكم جهز عسكراً إلى الشام، واستعمل عليهم على بن جعفر بن فلاح، فلما وصل إلى الرملة أزاح حسان بن المفرج وعشيرته عن تلك الأرض، وأخذ ما كان له من الحصون بجبل الشراة، واستولى على أمواله وذخائره، وسار إلى دمشق والياً عليها، فوصل إليها فى شوال سنة تسعين وثلاثمائة.

وأما حسان فإنه بقى شريداً نحو سنتين، ثم أرسل والده إلى الحاكم فأمنه وأقطعه، فسار حسان إليه بمصر، فأكرمه وأحسن إليه، وكان المفرج والد حسان قد توفى مسموماً، وضع الحاكم عليه من سمه، فبموته ضعف أمر حسان على ما ذكرناه .

ذكر ولاية المقلد الموصل، ووفاة المنصور بن يوسف وولاية ابنه باديس.

ثم دخلت سنة سبع وثمانين وثلاثمائة

ذكر موت الأمير نوح بن منصور وولاية ابنه منصور، وموت سبكتكين وملك ولده إسماعيل،وذكر استيلاء أخيه محمود بن سبكتكين على الملك،ووفاة فخر الدولة بن بويه وملك ابنه مجد الدولة،ووفاة مأمون بن محمد وولاية ابنه على.

ثم دخلت سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة

ذكر قتل صمصام الدولة

فى هذه السنة، فى ذى الحجة، قتل صمصام الدولة بن عضد الدولة .

وسبب ذلك أن جماعة كثيرة من الديلم استوحشوا من صمصام الدولة لأنه أمر بعرضهم، وإسقاط من ليس بصحيح النسب، فأسقط منهم مقدار ألف رجل، فبقوا حيارى لا يدرون ما يصنعون .

واتفق أن أبا القاسم وأبا نصر ابنى عز الدولة بختيار كانا مقبوضين، فخدعا الموكلين بهما فى القلعة، فأفرجوا عنهما فجمعا لفيفاً من الأكراد، واتصل خبرهما بالذين أسقطوا من الديلم، فأتوهم، وقصدوا إلى أرجان، فاجتمعت عليها العساكر، وتحير صمصام الدولة، ولم يكن عنده من يدبره .

وكان أبوجعفر أستاذ هرمز مقيماً بفسا، فأشار عليه بعض من عنده بتفريق ما عنده من المال فى الرجال، و المسير إلى صمصام الدولة، وأخذه إلى عسكره بالأهواز وخوفه إن لم يفعل ذلك . فشح بالمال، فثار به الجند ونهبوا داره وهربوا، فاختفى، فأخذ وأتى به إلى ابنى بختيار، فحبس، ثم احتال فنجا .

وأما صمصام الدولة فإنه أشار عليه أصحابه بالصعود إلى القلعة التى على باب شيراز والامتناع بها إلى أن يأتى عسكره ومن يمنعه، فأراد الصعود إليها، فلم يمكنه المستحفظ بها، وكان معه ثلاثمائة رجل، فقالوا له : الرأى أننا نأخذك ووالدتك، ونسير إلى أبى على بن أستاذ هرمز، وأشار بعضهم بقصد الأكراد وأخذهم والتقوى بهم، ففعل ذلك، وخرج معهم بخزائنه وأمواله، فنهبوه، وأرادوا أخذه فهرب وسار إلى الدودمان، على مرحلتين من شير از .

وعرف أبونصر بن بختيار الخبر، فبادر إلى شيراز، ووثب رئيس الدودمان، واسمه طاهر، بصمصام الدولة فأخذه، وأتاه أبونصر بن بختيار وأخذه منه فقتله فى ذى الحجة، فلما حمل رأسه إليه قال: هذه سنة سنها أبوك، يعنى ما كان من قتل عضد الدولة بختيار.

وكان عمر صمصام الدولة خمساً وثلاثين سنة وسبعة أشهر ومدة إمارته بفارس تسع سنين وثمانية أيام، وكان كريماً حليماً . وأما والدته فسلمت إلى بعض قواد الديلم، فقتلها وبنى عليها دكة فى داره فلما ملك بهاء الدولة فارس أخرجها ودفنها فى تربة بنى بويه .

ثم دخلت سنة تسع وثمانين وثلاثمائة

ذكر القبض على الأمير منصور بن نوح وملك أخيه عبد الملك .

فى هذه السنة قبض على الأمير منصور بن نوح بن منصور السامانى، صاحب بخارى وما وراء النهر، وملك أخوه عبد الملك .

وسبب قبضه ما ذكرناه من قصد محمود بن سبكتكين بكتوزون بخراسان، وعوده عن نيسابور إلى مروالروذ، فلما نزلها سار بكتوزون إلى الأمير منصور وهويسرخس، فاجتمع به فلم ير من إكرامه وبره ما كان يؤمله، فشكا ذلك إلى فائق، فقابله فائق بأضعاف شكواه، فاتفقا على خلعه من الملك، وإقامة أخيه مقامه، وأجابهما إلى ذلك جماعة من أعيان العسكر، فاستحضره بكتوزون بعلة

الاجتماع لتدبر ما هم بصدده من أمر محمود، فلما اجتمعوا به قبضوا عليه، وأمر بكتوزون من سمله فأعماه، ولم يراقب الله ولا إحسان مواليه، وأقاموا أخاه عبد الملك مقامه فى الملك، وهوصبى صغير .

وكانت مدة ولاية منصور سنةً وسبعة أشهر . وماج الناس بعضهم فى بعض وأرسل محمود إلى فائق وبكتوزون يلومهما ويقبح فعلهما، وقويت نفسه على لقائهما، وطمع فى الاستقلال بالملك، فسار نحوهما عازماً على القتال .

ذكر استيلاء يمين الدولة محمود بن سبكتكين على خراسان، وانقراض دولة السامانية وملك الترك ما وراء النهروذكر ملك الحاكم طرابلس الغرب وعودها إلى باديس.

ثم دخلت سنة تسعين وثلاثمائة

ذكر خروج إسماعيل بن نوح وما جرى له بخراسان،ومحاصرة يمين الدولة سجستان،وقتل ابن بختيار بكرمان واستيلاء بهاء الدولة عليها،والقبض على الموفق أبى على بن إسماعيل.

ثم دخلت سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة

ذكر قتل حسام الدين المقلد صاحب الموصل وولاية ابنه قرواش،واستيلاء طاهر بن خلف على كرمان وعوده عنها.

ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة

ذكر ملك يمين الدولة سجستان، ذكر وفاة الطائع لله، ووفاة المنصورين أبى عامر .

ذكر عدة حوادث

فى هذه السنة، فى رمضان، طلع كوكب كبير له ذؤابة، وفى ذى القعدة انقض كوكب كبير أيضاً كضوء القمر عند تمامه، وانمحق نوره وبقى جرمه يتوهج .

وفيها اشتدت الفتنة ببغداد، وانتشر العيارون والمفسدون، فبعث بهاء الدولة عميد الجيوش أبا على بن أستاذ هرمز إلى العراق ليدبر أمره، فوصل إلى بغداد، فزينت له، وقمع المفسدين، ومنع السنة والشيعة من إظهار مذاهبهم، ونفى، بعد ذلك، ابن المعلم فقيه الإمامية، فاستقام البلد .

وفيها، فى ذى الحجة، ولد الأمير أبوعلى الحسن بن بهاء الدولة، وهوالذى ملك الأمر، وتلقب بمشرف الدولة .

وفيها هرب الوزير أبوالعباس الضبى، وزير مجد الدولة بن فخر الدولة ابن بويه، من الرى إلى بدر بن حسنويه، فأكرمه، وقام بالوزارة بعده الخطير أبوعلى.

وفيها ولى الحاكم بأمر الله على دمشق، وقيادة العساكر الشامية، أبا محمد الأسود، واسمه تمضولت، فقدم إليها، ونزل فى قصر الإمارة، فأقام والياً عليها سنةً وشهرين ومن أعماله فيها أنه أطاف إنساناً مغربياً، و شهره، ونادى عليه : هذا جزاء من يحب أبا بكر وعمر ! ثم أخرجه عنها .

وفيها توفى عثمان بن جنى النحوى، مصنف اللمع وغيرها، ببغداد، وله شعر بارز والقاضى على بن عبد العزيز الجرجانى بالرى، وكان إماماً فاضلاً، ذا فنون كثيرة، والوليد بن بكر بن مخلد الأندلسى الفقيه المالكى، وهومحدث مشهور .

وفيها توفى أبوالحسن محمد بن عبد الله السلامى الشاعر البغداد ومن شعره يصف الدرع، وهى هذه الأبيات :

يا رب سابغة حبتى نعمةً	كافأتها بالسوء غير مفند
أضحت تصون عن المنايا مهجتى	وظللت أبذلها لكل مهند

وله من أحسن المديح فى عضد الدول :

وكنت، وعزمى والظلام وصارمى	ثلاثة أشباح كما اجتمع النسر
وبشرت آمالى بملك هوالورى	ودار هى الدنيا، ويوم هو الدهر

وقدم الموصل، فاجتمع بالخالديين من الشعراء منهم أبوالفرج الببغاء، وأبوالحسين التلعفرى، فامتحنوه، و كان صبياً، فبرز عند الامتحان .

وفيها توفى محمد فى العباس الخوارزمى الأديب الشاعر، وكان فاضلاً وتوفى بنيسابور .

وفيها توفى محمد بن عبد الرحمن بن زكرياء أبو طاهر المخلص المحدث المشهور، وأول سماعه سنة اثنتى عشرة و ثلاثمائة.

ثم دخلت سنة أربع وتسعين وثلاثمائة

ذكر استيلاء أبى العباس على البطيحة

فى هذه السنة، فى شعبان، غلب أبوالعباس بن واصل على البطيحة، وأخرج منها مهذب الدولة .

وكان ابتداء حال أبى العباس أنه كان ينوب عن طاهر بن زيرك الحاجب فى الجهبذة، وارتفع معه، ثم أشفق منه ففارقه وسار إلى شيراز، واتصل بخدمة فولاذ، وتقدم عنده، فلما قبض على فولاذ عاد أبوالعباس إلى الأهراز بحال سيئة، فخدم فيها .

ثم أصعد إلى بغداد، فضاق الأمر عليه، فخرج منها، وخدم أبا محمد ابن مكرم، ثم انتقل إلى خدمة مهذب الدولة بالبطيحة، فجرد معه عسكراً، وسيره إلى حرب لشكرستان حين استولى على البصرة، ومضى إلى سيراف وأخذ ما بها لأبى محمد بن مكرم من سفن ومال، وأتى أسافل دجلة، فغلب عليها، وخلع طاعة مهذب الدولة .

فأرسل إليه مهذب الدولة مائة سميرية فيها مقاتلة، فغرق بعضها، وأخذ أبوالعباس ما بقى منها، وعدل إلى الأبلة، فهزم أبا سعد بن ماكولا، وهويصحب لشكرستان، فانهزم أيضاً لشكرستان من بين يديه، واستولى ابن واصل على البصرة، ونزل دار الإمارة، وأمن الديلم والأجناد .

وقصد لشكرستان مهذب الدولة، فأعاده إلى قتال أبى العباس فى جيش، فلقيه أبوالعباس وقاتله، فانهزم لشكرستان وقتل كثير من رجاله، واستولى أبوالعباس على ثقله وأمواله، وأصعد إلى البطيحة، وأرسل إلى مهذب الدولة يقول له : قد هزمت جندك، ودخلت بلدك، فخذ لنفسك، فسار مهذب الدولة إلى بشامنى، وصار عند أبى شجاع فارس بن مردان وابنه صدقة، فغدرا به وأخذا أمواله، فاضطر إلى الهرب، وسار إلى واسط فوصلها على أقبح صورة، فخرج إليه أهلها فلقوه وأصعدت زوجته ابنة الملك بهاء الدولة إلى بغداد وأصعد مهذب الدولة إليها فلم يمكن من الوصول إليها .

وأما ابن واصل فإنه استولى على أموال مهذب الدولة وبلاده، وكانت عظيمة، ووكل بدار زوجته ابنة بهاء الدولة من يحرسها، ثم جمع كل ما فيها وأرسله إلى أبيها، واضطرب عليه أهل البطائح واختلفوا، فسير سبع مائة فارس إلى الجازرة لإصلاحها، فقاتلهم أهلها، فظفروا بالعسكر، وقتلوا فيهم كثيراً .

وانتشر الأمر على أبى العباس بن واصل . فعاد إلى البصرة خوفاً أن ينتشر الأمر عليه بها، وترك البطائح شاغرة ليس فيها أحد يحفظها .

ولما سمع بهاء الدولة بحال أبى العباس وقوته خافه على البلاد، فسار من فارس إلى الأهواز لتلافى أمره، وأحضر عنده عميد الجيوش من بغداد، وجهز معه عسكراً كثيفاً وسيرهم إلى أبى العباس فأتى إلى واسط وعمل ما يحتاج إليه من سفن وغيرها، وسار إلى البطائح، وفرق جنده فى البلاد لتقرير قواعدها .

وسمع أبوالعباس بمسيره إليه، فأصعد إليه من البصرة، وأرسل يقول له : ما أحوجك تتكلف الانحدار، وقد أتيتك فخذ لنفسك .

ووصل إلى عميد الجيوش وهوعلى تلك الحال من تفرق العسكر عنه، فلقيه فيمن معه بالصليق، فانهزم عميد الجيوش، ووقع من معه بعضهم على بعض، ولقى عميد الجيوش شدة إلى أن وصل إلى واسط، وذهب ثقله وخيامه وخزائنه،

فأخبره خازنه أنه قد دفن فى الخيمة ثلاثين ألف دينار وخمسين ألف درهم، فأنفذ من أحضرها، فقوى بها . ونذكر باقى خبر البطائح سنة خمس وتسعين وثلاثمائة.

ذكر عدة حوادث

فى هذه السنة قلد بهاء الدولة النقيب أبا أحمد الموسوى، والد الشريف الرضى، نقابة العلويين بالعراق، وقضاء القضاة، والحج، والمظالم، وكتب عهده بذلك من شيراز، ولقب الطاهر ذا المناقب، فامتنع الخليفة من تقليده قضاء القضاة، وأمضى ما سواه .

وفيها خرج الأصيفر المنتفقى على الحاج، وحصرهم بالبطانية، وعزم على أخذهم وكان فيهم أبوالحسن الرفاء، وأبوعبد الله الدجاجى وكانا يقرآن القرآن بأصوات لم يسمع مثلها، فحضرا عند الأصيفر وقرآ القرآن، فترك الحجاج وعاد، وقال لهما : قد تركت لكما ألف ألف دينار .

ثم دخلت سنة سبع وتسعين وثلاثمائة

ذكر هزيمة أيلك الخان،وحصر أبى جعفر الحجاج بغداد، وقتل أبى العباس بن واصل.

ذكر خروج أبى ركوة على الحاكم بمصر

دخلت سنة ست وأربعمائة

ذكر الفتنة بين باديس وعمه حماد، ووفاة باديس وولاية ابنه المعز، وغزو محمود الهند،وقتل فخر الملك ووزارة ابن سهل، وقتل طاهر بن هلال بن بدر .

دخلت سنة سبع وأربعمائة

ذكر قتل خوارزم شاه، وغزوة قشمير وقنوج، وحال ابن فولاذ، وذكر ابتداء الدولة العلوية بالأندلس وقتل سليمان، وظهور عبد الرحمن الأموى، وعودة بنى أمية إلى القرطبة وولاية المستظهر، وولاية هشام الأموى قرطبة .

ذكر تفرق ممالك الأندلس

ثم إن الأندلس اقتسمه أصحاب الأطراف والرؤساء، فتغلب كل إنسان على شيء منه، فصاروا مثل ملوك الطوائف، وكان ذلك أضر على المسلمين فطمع بسببه العدو الكافر، خذله الله، فيهم، ولم يكن لهم اجتماع إلى أن ملكه أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين، على ما نذكره إن شاء الله .

فأما قرطبة فاستولى عليها أبوالحزم جهور بن محمد بن جهور، المقدم ذكره، وكان من وزارة الدولة العامرية، قديم الرئاسة، موصوفاً بالدهاء والعقل، ولم يدخل فى شيء من الفتن قبل هذا بل كان يتصاون عنها فلما خلا له الجو، وأمكنته الفرصة، وثب عليها فتولى أمرها وقام بحمايتها، ولم ينتقل إلى رتبة الإمارة ظاهراً، بل دبرها تدبيراً لم يسبق إليه، وأظهر أنه حام للبلد إلى أن يجيء من يستحقه، ويتفق عليه الناس، فيسلمه إليه، ورتب البوابين والحشم على أبواب قصور الإمارة، ولم يتحول هوعن داره إليها، وجعل ما يرتفع من الأموال السلطانية بأيدى رجال رتبهم لذلك، وهوالمشرف عليهم، وصير أهل الأسواق جنداً، وجعل أرزاقهم ربع أموال تكون بأيديهم ديناً عليهم، فيكون الربح لهم، ورأس المال باقياً عليهم، وكان يتعهدهم فى الأوقات المتفرقة لينظر كيف حفظهم لها، وفرق السلاح عليهم، فكان أحدهم لا يفارقه سلاحه حتى يعجل حضوره إن احتاج إليه .

وكان جهور يشهد الجنائز، ويعود المرضى، ويحضر الأفراح على طريقة الصالحين، وهو مع ذلك يدبر الأمر تدبير الملوك، وكان مأمون الجانب، وأمن الناس فى أيامه، وبقى كذلك إلى أن مات فى صفر سنة خمس وثلاثين وأربعمائة، وقام بأمرها بعده ابنه أبوالوليد محمد بن جهور على هذا التدبير إلى أن مات، فغلب عليها الأمير الملقب بالمأمون، صاحب طليطلة، فدبرها إلى أن مات بها.

وأما إشبيلية فاستولى عليها القاضى أبوالقاسم محمد بن إسماعيل بن عباد اللخمى، وهومن ولد النعمان بن المنذر، وقد ذكرنا سبب ذلك فى دولة يحيى بن

على بن حمود قبل هذا. وفى هذا الوقت ظهر أمر المؤيد هشام ابن الحاكم، وكان قد اختفى وانقطع خبره، وكان ظهوره بمالقة، ثم سار منها إلى المرية، فخافه صاحبها زهير العامرى فأخرجه منها فقصد قلعة رباح، فأطاعه أهلها، فسار إليهم صاحبه إسماعيل بن ذى النون و حاربهم، فضعفوا عن مقاومته، فأخرجوه، فاستدعاه القاضى أبوالقاسم محمد بن إسماعيل بن عباد إليه بإشبيلية، وأذاع أمره، وقام بنصره، وكان رؤساء الأندلس فى طاعته، فأجابه إلى ذلك صاحب بلنسية ونواحيها، وصاحب قرطبة، وصاحب دانية والجزائر، وصاحب طرطوشة، وأقروا بخلافته وخطبوا له، وجددت بيعته بقرطبة. فى المحرم سنة تسع وعشرين وأربعمائة .

ثم إن ابن عباد سير جيشاً إلى زهير العامرى لأنه لم يخطب للمؤيد، فاستنجد زهير حبوس بن ماكسن الصنهاجى صاحب غرناطة، فسار إليه بجيشه، فعادت عساكر ابن عباد، ولم يكن بين العسكرين قتال، وأقام زهير فى بياسة، وعاد حبوس إلى مالقة، فمات فى رمضان من هذه السنة، وولى بعده ابنه باديس، واجتمع هوو زهير ليتفقا كما كان زهير وحبوس، فلم تستقر بينهما قاعدة، واقتتلا، فقتل زهير وجمع كثير من أصحابه أواخر سنة تسع وعشرين وأربعمائة.

ثم فى سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة التقى عسكر ابن عباد وعليهم ابنه إسماعيل مع باديس بن جبوس، و عسكر إدريس العلوى على ما ذكرناه عند أخبار العلويين فيما تقدم أنهم اقتتلوا قتالاً شديداً، فقتل إسماعيل، ثم مات بعده أبوه القاضى أبوالقاسم سنة ثلاث وثلاثين وولى بعده ابنه أبوعمروعباد بن محمد، ولقب بالمعتضد بالله فضبط ما ولى، وأظهر موت المؤيد.

هذا قول ابن أبى الفياض فى المؤيد، وقال غيره إن المؤيد لم يظهر خبره منذ عدم من قرطبة عند دخول على بن حمود إليها، وقتله سليمان، وإنما كان هذا من تمويهات ابن عباد وحيله ومكره، وأعجب من اختفاء حال بن المؤيد، ثم تصديق الناس ابن عباد فيما أخبر به من حياته، أن إنساناً حضرياً ظهر بعد موت المؤيد

بعشرين سنة وادعى أنه المؤيد، فبويع بالخلافة، وخطب له على منابر جميع بلاد الأندلس فى أوقات متفرقة، وسفكت الدماء بسببه، واجتمعت العساكر فى أمره.

ولما أظهر ابن عباد موت هشام المؤيد، واستقل بأمر إشبيلية وما انضاف إليها، بقى كذلك إلى أن مات من ذبحة لحقته لليلتين خلتا من جمادى الآخرة سنة إحدى وستين وأربعمائة، وولى بعده ابنه أبوالقاسم محمد بن عباد ابن القاضى أبى القاسم، ولقب بالمعتمد على الله، فاتسع ملكه، وشمخ سلطانه، وملك كثيراً من الأندلس، وملك قرطبة أيضا، وولى عليها ابنه الظافر بالله، فبلغ خبر ملكه لها إلى يحيى بن ذى النون، صاحب طليطلة، فحسده عليها، فضمن له جرير بن عكاشة أن يجعل ملكها له، وسار إلى قرطبة، وأقام بها يسعى فى ذلك وهو ينتهز الفرصة.

فاتفق أن فى بعض الليالى جاء مطر عظيم ومعه ريح شديد ورعد وبرق، فثار جرير فيمن معه، ووصل إلى قصر الإمارة، فلم يجد من يمانعه، فدخل صاحب الباب إلى الظافر وأعلمه، فخرج بمن معه من العبيد و الحرس، وكان صغير السن، وحمل عليهم، ودفعهم عن الباب، ثم إنه عثر فى بعض كراته فسقط، فوثب بعض من يقاتله قتله، ولم يبلغ الخبر إلى الأجناد وأهل البلد إلا والقصر قد ملك، وتلاحق بجرير أصحابه و أشياعه، وترك الظافر ملقى على الأرض عرياناً، فمر عليه بعض أهل قرطبة، فأبصره على تلك الحال، فنزع رداءه وألقاه عليه، وكان أبوه إذا ذكره يتمثل :

ولم أدر من ألقى عليه رداءه ... على أنه قد سل عن ماجد محض

ولم يزل المعتمد يسعى فى أخذها، حتى عاد ملكها، وترك ولده المأمون فيها، فأقام بها حتى أخذها جيش أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، وقتل فيها بعد حروب كثيرة يأتى ذكرها إن شاء الله تعالى سنة أربع وثمانين و أربعمائة .

وأخذت إشبيلية من أبيه المعتمد فى السنة المذكورة، وبقى محبوساً فى اغمات إلى أن مات بها، رحمه الله، وكان هو وأولاده جميعهم الرشيد، والمأمون. والراضى، والمعتمد، وأبوه، وجده علماء فضلاء شعراء .

وأما بطليوس فقام بها سابور الفتى العامرى وتلقب بالمنصور، ثم انتقلت بعده إلى أبى بكر محمد بن عبد الله بن سلمة، المعروف بابن الأفطس، أصله من بربر، مكناسة، لكنه ولد أبوه بالأندلس، ونشأوا بها، وتخلقوا تخلق أهلها، وانتسبوا إلى تجيب، وشاكلهم الملك، فلما توفى صارت بعده إلى ابنه أبى محمد: عمر بن محمد واتسع ملكه إلى أقصى المغرب، وقتل صبراً مع، ولدين له عند تغلب أمير المسلمين على الأندلس .

وأما طليطلة فقام بأمرها ابن يعيش، فلم تطل مدته، وصارت رئاسته إلى إسماعيل بن عبد الرحمن بن عامر بن مطر بن ذى النون، ولقبه الظافر بحول الله، وأصله من البربر وولد بالأندلس، تأدب بآداب أهلها، وكان مولد إسماعيل سنة تسعين وثلاثمائة، وتوفى سنة خمس وثلاثين وأربعمائة، وكان عالماً بالأدب، وله شعر جيد، وصنف كتاباً فى الآداب والأخبار .

وولى بعده ابنه يحيى فاشتغل، بالخلاعة والمجون، وأكثر مهاداة الفرنج ومصانعتهم ليتلذذ باللعب، وامتدت يده إلى أموال الرعية، ولم تزل الفرنج تأخذ حصونه شيئاً بعد شىء، حتى أخذت طليطلة فى سنة سبع وسبعين وأربعمائة، وصار هوبيلنسية، وأقام بها إلى أن قتله القاضى ابن جحاف الأحنف، وفيه يقول الرئيس أبوعبد الرحمن محمد بن طاهر:

أيها الأحنف مهلاً	فلقد جئت عويصاً
وتقمصت القميصا	إذا قتلت الملك يحيى
لا تجد فيه محيصا	رب يوم فيه تجرى

وأما سرقسطة والثغر الأعلى فكان بيد منذر بن يحيى التجيبى، ثم توفى وولى بعده ابنه يحيى، ثم صارت بعده لسليمان بن أحمد بن محمد بن هود الجذامى وكان يلقب بالمستعين بالله، وكان من قواد منذر على مدينة لاردة، وله وقعة مشهورة بالفرنج بطليطلة سنة أربع وثلاثين وأربعمائة .

ثم توفى وولى بعده ابنه المقتدر بالله، وولى بعده ابنه يوسف بن أحمد المؤتمن، ثم ولى بعده ابنه أحمد المستعين بالله على لقب جده، ثم ولى بعده ابنه عبد الملك

عماد الدولة، ثم ولى بعده ابنه، المستنصر بالله، وعليه انقرضت دولتهم على رأس الخمس مائة، فصارت بلادهم جميعاً لابن تاشفين .

ورأيت بعض أولادهم بدمشق سنة تسعين وخمسمائة، وهوفقير جداً، وهوقيم الربوة، فسبحان من لا يزول، ولا تغيره الدهور .

وأما طرطوشة فوليها لبيب الفتى العامرى .

وأما بلنسية فكان بها المنصور أبوالحسن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن محمد بن المنصور بن أبى عامر المعافرى . ثم انضاف إليه المرية وما كان إليها، وبعده ابنه محمد، ودام فيها إلى أن غدر به صهره المأمون بن إسماعيل بن ذى النون وأخذ منه رئاسة بلنسية فى ذى الحجة سنة سبع وخمسين وأربعمائة، فانتزح إلى المرية، وأقام بها إلى أن خلع، على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

وأما السهلة فملكها عبود بن رزين، وأصله بربرى، ومولده بالأندلس، فلما هلك ولى بعده ابنه عبد الملك، وكان أديباً شاعراً، ثم لى بعده ابنه عز الدولة، ومنه ملكها الملثمون .

وأما دانية والجزائر فكانت بيد الموفق، الحسن مجاهد العامرى، وسار إليه من قرطبة الفقيه أبومحمد عبد الله المعيطى ومعه خلق كثير، فأقامه مجاهد شبه خليفة يصدر عن رأيه، وبايعه فى جمادى الآخرة سنة خمس و أربعمائة، فاقأم المعيطى بدانية مع مجاهد ومن انضم إليه نحوخمسة أشهر، ثم سار هو ومجاهد فى البحر إلى الجزائر التى فى البحر، وهى ميورقة بالياء، ومنورقة بالنون، ويابسة .

ثم بعث المعيطى بعد ذلك مجاهداً إلى سردانية فى مائة وعشرين مركباً بين كبير وصغير ومعه ألف فارس، ففتحها فى ربيع الأول سنة ست وأربعين وأربعمائة، وقتل بها خلقاً كثيراً من النصارى، وسبى مثلهم، فسار إليه الفرنج والروم من البر إلى آخر هذه السنة، فأخرجوه منها، ورجع إلى الأندلس والمعيطى قد توفى، فغاص مجاهد فى تلك الفتن إلى أن توفى، وولى بعده ابنه على بن

مجاهد، وكانا جميعاً من أهل العلم والمحبة لأهله والإحسان إليهم، وجلباهم من أقاصى البلاد وأدانيها، ثم مات ابنه على فولى بعده ابنه أبوعامر، ولم يكن مثل أبيه وجده، ثم إن دانية وسائر بلاد بنى مجاهد صارت إلى المقتدر بالله أحمد بن سليمان بن هود فى شهر رمضان سنة ثمان وسبعين وأربعمائة.

وأما مرسية فوليها بنوطاهر، واستقامت رئاستها لأبى عبد الرحمن منهم، المدعو بالرئيس، ودامت رئاسته إلى أن أخذها منه المعتمد بن عباد على يد وزيره أبى بكر بن عمار المهرى، فلما ملكها عصى على المعتمد فيها، فوجه إليه عسكراً مقدمهم أبومحمد عبد الرحمن بن رشيق القشرى، فحصروه وضيقوا عليه حتى هرب منها، فلما دخلها القشرى عصى فيها أيضاً على المعتمد، إلى أن دخل فى طاعة الملثمين، وبقى أبوعبد الرحمن بن طاهر بمدينة بلنسية إلى أن مات بها سنة سبع وخمسمائة، ودفن بمرسية، وقد نيف على تسعين سنة .

وأما المرية فملكها خيران العامرى، وتوفى كما ذكرنا، ووليها بعده زهير العامرى، واتسع ملكه إلى شاطبة، إلى ما يجاور عمل طليطلة، ودام إلى أن قتل، كما تقدم، وصارت مملكته إلى المنصور الحسن عبد العزيز ابن عبد الرحمن بن المنصور بن أبى عامر، فولى بعده ابنه محمد، فلما توفى عبد العزيز بلنسية أقام ابنه محمد بالمرية، وهو يدبر بلنسية، فانتهز الفرصة فيها المأمون يحيى بن ذى النون وأخذها منه، وبقى بالمرية إلى أن أخذها منه صهره ذو الوزارتين أبوالأحوص المعتصم معن بن صمادح التجيبى، ودانت له لورقة، وبياسة، وجيان، وغيرها إلى أن توفى سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة، وولى بعده ابنه أبويحيى محمد بن معن وهوابن أربع عشرة سنة، فكفله عمه أبوعتبة بن محمد إلى أن توفى سنة ست وأربعين، فبقى أبويحيى مستضعفاً لصغره، وأخذت بلاده البعيدة عنه، ولم يبق له غير المرية ما يجاورها .

فلما كبر أخذ نفسه بالعلوم، ومكارم الأخلاق، فامتد صيته، واشتهر ذكره، وعظم سلطانه، والتحق بأكابر الملوك، ودام بها إلى أن نازله جيش الملثمين،

فمرض فى أثناء ذلك، وكان القتال تحت قصره، فسمع يوماً صياحاً وجلبة، فقال: نغص علينا كل شىء حتى الموت ! وتوفى فى مرضه، وذلك لثمان بقين من ربيع الأول سنة أربع وثمانين وأربعمائة، ودخل أولاده وأهله البحر فى مركب إلى بجاية، قاعدة مملكة بنى حماد من إفريقيا، وملك الملثمون المرية وما معها .

وأما مالقة فملكها بنوعلى بن حمود، فلم تزل فى مملكة العلويين يخطب لهم فيها إلى أن أخذها منهم إدريس بن حبوس صاحب غرناطة سنة سبع وأربعين وأربعمائة، وانقضى أمر العلويين بالأندلس . وأما غرناطة فملكها حبوس بن ماكسن الصنهاجى ثم مات سنة تسع وعشرين وأربعمائة، وولى بعده ابنه باديس، فلما توفى ولى بعده ابن أخيه عبد الله بن بلكين، وبقى إلى أن ملكها منه الملثمون فى رجب سنة أربع وثمانين وأربعمائة، و انقرضت دول جميعهم، وصارت الأندلس جميعها للملثمين .

وملكهم أمير المسلمين يوسف فى تاشفن واتصلت مملكته من المغرب الأقصى إلى آخر بلاد المسلمين بالأندلس نعود إلى سنة سبع وأربعمائة.

ذكر قتل الشيعة بأفريقيا .

ثم دخلت سنة إحدى عشرة وأربعمائة

ذكر قتل الحاكم وولاية ابنه الظاهر

ذكر مسير السلطان طغرلبك إلى الموصل.

ثم دخلت سنة تسع وأربعين وأربعمائة

ذكر عود السلطان طغرلبك إلى بغداد،والقبض على الوزير اليازورى بمصر.

ذكر عدة حوادث

فى هذه السنة زاد الغلاء ببغداد والعراق حتى بيعت كارة الدقيق السميد بثلاثة عشر ديناراً، والكارة من الشعير والذرة بثمانية دنانير، وأكل الناس الميتة والكلاب غيرها، وكثر الوباء حتى عجز الناس عن دفن الموتى، فكانوا يجعلون الجماعة، فى الحفيرة .

وفيها، فى ربيع الأول، توفى أبوالعلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان المعرى، الأديب، و له نحوست وثمانين سنة، وعلمه أشهر من أن يذكر، إلا أن أكثر الناس يرمونه بالزندقة، وفى شعره ما يدل على ذلك، حكى أنه قال يوماً لأبى يوسف القزوينى : ما هجوت أحداً فقال له القزوينى : هجوت الأنبياء فتغير وجهه وقال: ما أخاف أحداً سواك.

وحكى عنه القزوينى أنه قال: ما رأيت شعراً فى مرثية الحسين بن على يساوى أن يحفظ، فقال القزوينى: بلى، قد قال بعض أهل سوادنا :

رأس ابن بنت محمد ووصيه   للمسلمين على قناة يرفع

والمسلمون بمنظر وبمسمع   لا جازع منهم، ولا متفجع

أيقظت أجفاناً وكنت لها كرى   وأنمت عينا لم تكن بك تهجع

كحلت بمصرعك العيون عماية   وأصم نعيك كل أذن تسمع

ما روضة: إلا تمنت أنها   لك مضجع ولخط قبرك موضع

وفيها أصلح دبيس بن على بن مزيد محمود بن الأخرم الخفاجى حالهما مع السلطان، وعاد دبيس إلى بلاده فوجدها خراباً لكثرة من مات بها من الوباء الجارف، ليس بها أحد .

وفيها كثر الوباء ببخارى حتى قيل إنه مات فى يوم واحد ثمانية عشر ألف إنسان من أعمال بخارى، وهلك فى هذه الولاية فى مدة الوباء ألف ألف وستمائة ألف وخمسون ألفاً، وكان بسمرقند مثل ذلك، ووجد ميت، وقد دخل تركى يأخذ لحافاً عليه، فمات التركى وطرف اللحاف بيده، وبقيت أموال الناس سائبة .

وفيها نهبت دار أبى جعفر الطوسى بالكرخ، وهوفقيه الإمامية، وأخذ ما فيها، وكان قد فارقها إلى المشهد الغربى .

وفيها، فى صفر، توفى أبوعثمان إسماعيل بن عبد الرحمن الصابونى، مقدم أصحاب الحديث بخراسان، وكان فقيهاً، خطيباً، إماماً، فى عدة علوم .

وفيها، فى ربيع الأول، توفى اياز بن ايماق أبوالنجم غلام محمود بن سبكتكين، وأخباره معه مشهورة .

وفيها مات أبوأحمد عدنان ابن الشريف الرضى نقيب العلويين .

وفيها توفى أبوالحسين عبد الوهاب بن أحمد بن هارون الغسانى، المعروف بابن الجندى .

ثم دخلت سنة خمسين وأربعمائة

ذكر مفارقة إبراهيم ينال الموصل، والخطبة بالعراق للعلوى المصرى وما كان إلى قتل البساسيرى،وذكر عودة الخليفة إلى بغداد،وقتل البساسيرى

وهنا ينتهى بنا الجزء التاسع

١٠

وتبدأ رحلتنا العاشرة عبر الزمن لنسترجع الأحداث ونستلهم المواقف ونسترشد بالزمن الشاهد الذى لايغيب، والذى تبدأالرحلة معه من أحداث سنة إحدى وخمسين وأربعمائة حتى سنة سبع وعشرين وخمسمائة.

ثم دخلت سنة إحدى وخمسين وأربعمائة

ـ ذكر وفاة فرخ زاد صاحب غزنة وملك أخيه إبراهيم

فى هذه السنة، فى صفر توفى الملك فرخ زاد بن مسعود بن محمود بن سبكتكين، صاحب غزنة، وكان قد ثار به مماليكه سنة خمسين واتفقوا على قتله، فقصدوه وهوفى الحمام، وكان معه سيف، فأخذه وقاتلهم ومنعهم عن نفسه حتى أدركه أصحابه وخلصوه، وقتلوا أولئك الغلمان .

وصار بعد أن نجا من هذه الحادثة يكثر ذكر الموت ويحتقر الدنيا ويزدريها وبقى كذلك إلى هذه السنة، فأصابه قولنج فمات منه، وملك بعده أخوه إبراهيم بن مسعود بن محمود، فأحسن السيرة، فاستعد لجهاد الهند، ففتح حصوناً امتنعت على أبيه وجده، وكان يصوم رجباً وشعبان ورمضان .

ذكر الصلح بين الملك إبراهيم بن مسعود وبين داود بن ميكائيل بن سلجوق صاحب خراسان،ووفاة داود وملك ابنه ألب أرسلان.

ذكر حريق بغداد

فى هذه السنة احترقت بغداد الكرخ وغيره وبين السورين، واحترقت فيه خزانة الكتب التى وقفها أردشير الوزير ونهبت بعض كتبها، وجاء عميد الملك

الكندرى، فاختار من الكتب خيرها، وكان بها عشرة آلاف مجلد وأربعمائة مجلد من أصناف العلوم منها: مائة مصحف بخطوط بنى مقلة وكان العامة قد نهبوا بعضها لما وقع الحريق فأزالهم عميد الملك، وقعد يختارها، فتسب ذلك إلى سوء سيرته، وفساد اختياره، وشتان بين فعله وفعل نظام الملك الذى عمر المدارس، ودون العلم فى بلاد الإسلام جميعها، ووقف الكتب وغيرها.

ثم دخلت سنة اثنتين وخمسين وأربعمائة

ذكر عود ولى العهد إلى بغداد مع أبى الغنائم بن المحلبان، وذكر ملك محمود بن شبل الدولة حلب.

ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة

ذكر وزارة ابن دارست للخليفة، وموت المعز بن باديس وولاية ابنه تميم، ووفاة قريش بن بدران صاحب الموصل وإمارة ابه شرف الدولة،ووفاة نصر الدولة بن مروان.

ثم دخلت سنة أربع وخمسين وأربعمائة

ذكر عزل ابن دراست ووزارة ابن جهير.

ثم دخلت سنة خمس وخمسين وأربعمائة

ذكر ورود السلطان بغداد ودخوله بابنة الخليفة .

ذكر وفاة السلطان طغرلبك

فى هذه السنة سار السلطان من بغداد، فى ربيع الأول إلى بلد الجبل، فوصل إلى الرى واستصحب معه أرسلان خاتون ابنة أخيه، زوجة الخليفة، لأنها شكت اطرح الخليفة لها، فأخذها معه، فمرض، وتوفى يوم الجمعة ثامن شهر رمضان وكان عمره سبعين سنة تقريباً، وكان عقيماً لم يلد ولداً .

وكان وزيره الكندرى على سبعين فرسخاً، فأتاه الخبر، فسار، ووصل إليه فى يومين وهو بعد لم يدفن فدفنه. وجلس له الوزير فخر الدولة بن جهير ببغداد للعزاء.

حكى عنه الكندرى أنه قال : رأيت، وأنا بخراسان، فى المنام كأننى رفعت إلى السماء، وأنا فى ضباب لا أبصر مع شيئاً، غير أنى أشم رائحة طيبة، وأننى أنادى: إنك قريب من البارى، جلت قدرته، فاسأل حاجتك لتقضى، فقلت فى نفسى: أسأل طول العمر، فقيل : لك سبعون سنة، فقلت: يارب ما يكفينى، فقيل: لك سبعون سنة، فقلت : يا رب ما يكفينى، فقيل : لك سبعون سنة. فلما مات حسب عميد الملك عمره، على التقريب، فكان سبعين سنة . وكانت مملكته، بحضرة الخلافة، سبع سنين وأحد عشر شهراً واثنى عشر يوماً .

وأما الأحوال بالعراق، بعد وفاته، فإنه كتب من ديوان الخلافة إلى شرف الدولة مسلم بن قريش، صاحب الموصل، وإلى نور الدولة دبيس بن مزيد، وإلى هزارسب، وإلى بنى ورام، وإلى بدر بن المهلهل، بالاستدعاء إلى بغداد، وأرسل لشرف الدولة تشريف، وعمل أبوسعيد القاينى، ضامن بغداد، سوراً على قصر عيسى، وجمع الغلات . فانحدر إبراهيم بن شرف الدولة إلى أوانا، وتسلم أصحابه الأنبار، وانتشرت البادية فى البلاد، وقطعوا الطرقات .

وقدم إلى بغداد دبيس بن مزيد، وخرج الوزير ابن جهير لاستقباله، وقدم أيضاً ورام، وتوفى ببغداد أبوالفتح بن ورام، مقدم الأكراد الجاوانية، فحمل إلى جرجرايا، وفارق شرف الدولة مسلم بغداد، ونهب النواحى، فسار نور الدولة، والأكراد، وبنوخفاجة إلى قتاله .

ثم أرسل إليه من ديوان الخلافة رسول معه خلعة له، وكوتب بالرضاء عنه، وانحدر إليه نور الدولة دبيس، فعمل له شرف الدولة سماطاً كثيراً، وكان فى الجماعة الأشرف أبوالحسين بن فخر الملك أبى غالب بن خلف، كان قصد شرف الدولة مستجدياً، فمضغ لقمة، فمات من ساعته .

وحكى عنه بعض من صحبه أنه سمعه ذلك اليوم يقول : اللهم اقبضنى، فقد ضجرت من الإضاقة ! فلما توفى ورفع من السماط خاف شرف الدولة أن يظن من حضر أنه تناول طعاماً مسموماً قصد به غيره، فقال : يا معشر العرب لا برح

منكم أحد، ونهض وجلس مكان ابن فخر الملك المتوفى، وجعل يأكل من الطعام الذى بين يديه، فاستحسن الجماعة فعله، وعادوا عنه وخلع على دبيس وولده منصور وعاد إلى حلته .

ولما رأى الناس ببغداد انتشار الأعراب فى البلاد ونهبها، حملوا السلاح لقتالهم، وكان ذلك سبباً لكثرة العيارين وانتشار المفسدين .

ذكر شيء من سيرته

كان عاقلاً حليماً من أشد الناس احتمالاً، وأكثرهم كتماناً لسره، ظفر بملطفات كتبها بعض خواصه إلى الملك أبى كاليجار، فلم يطلعه على ذلك، ولا تغير عليه، حتى أظهره بعد مدة طويلة لغيره .

وحكى عنه أقضى القضاة الماوردى قال : لما أرسلنى القائم بأمر الله إليه سنة ثلاث وثلاثين، وأربعمائة كتبت كتاباً إلى بغداد أذكر فيه سيرته وخراب بلاده، وأطعن عليه بكل وجه، فوقع الكتاب من غلامى، فحمل إليه، فوقف عليه وكتمه، ولم يحدثنى فيه بشيء، ولا تغير عما كان عليه من إكرامى .

وكان، رحمه الله، يحافظ على الصلوات، ويصوم الاثنين، والخميس، وكان لبسه الثياب البياض، وكان ظلوماً، غشوماً، قاسياً، وكان عسكره يغصبون الناس أموالهم، وأيديهم مطلقة فى ذلك نهاراً وليلاً .

وكان كريماً، فمن كرمه أن أخاه إبراهيم ينال أسر من الروم، لما غزاهم، بعض ملوكهم فبذل فى نفسه أربعمائة ألف دينار، فلم يقبل إبرايهم منه وحمله إلى طغرلبك، فأرسل ملك الروم إلى نصر الدولة بن مروان حتى خاطب طغرلبك فى فكاكه، فلما سمع طغرلبك رسالته أرسل الرومى إلى ابن مروان بغير فداء، وسير معه رجلاً علوياً، فأنفذ ملك الروم إلى طغرلبك ما لم يحمل فى الزمان المتقدم، وهوألف ثوب ديباج، وخمسمائة ثوب أصناف، وخمسمائة رأس من الكراع إلى غير ذلك، وأنفذ مائتى ألف دينار، ومائة لبنة فضة، وثلاثمائة شهرى، وثلاثمائة حمار مصرية، وألف عنز بيض الشعور، سود العيون والقرون، وأنفذ إلى ابن

مروان عشرة أمناء مسكاً، وعمر ملك الروم الجامع الذى بناه مسلمة بن عبد الملك بالقسطنطينية، وعمر منارته، وعلق فيه القناديل، وجعل فى محرابه قوساً ونشابة، وأشاع المهادنة .

ذكر ملك السلطان ألب أرسلان.

ثم دخلت سنة ست وخمسين وأربعمائة

ذكر القبض على عميد الدولة وقتله، وملك ألب أرسلان ختلان وهراة وصغانيا، والحرب بين ألب أرسلان وقتلمش،وفتح مدينة آنى وغيرها من بلاد النصرانية.

ثم دخلت سنة سبع وخمسين وأربعمائة

ذكر الحرب بين بنى حماد والعرب، وبناء مدينة بجاية، وملك ألب أرسلان جند وصيران.

ثم دخلت سنة ثمان وخمسين وأربعمائة

ذكر عهد ألب أرسلان بالسلطة لآبنه ملكشاه، واستيلاء تميم على مدينة تونس، وملك شرف الدولة الأنبار وهيت وغيرهما.

ثم دخلت سنة تسع وخمسين وأربعمائة

ذكر عصيان ملك كرمان على ألب أرسلان وعوده إلى طاعته.

ثم دخلت سنة ستين وأربعمائة

ذكر عدة حوادث

فى هذه السنة كانت حرب بين شرف الدولة بن قريش وبين بنى كلاب بالرحبة، وهم فى طاعة العلوى المصرى، فكسرهم شريف الدولة، وأخذ أسلابهم، وأرسل أعلاماً كانت معهم سمات المصرى، إلى بغداد، وكسرت، وطيف بها فى البلد، وأرسلت الخلع إلى شرف الدولة .

وفيها، فى جمادى الأولى، كانت بفلسطين ومصر زلزلة شديدة خربت الرملة، وطلع الماء من رؤوس الآبار، وهلك من أهلها خمسة وعشرون ألف نسمة، وانشقت الصخرة بالبيت المقدس، وعادت بإذن الله تعالى، وعاد البحر من الساحل مسيرة يوم، فنزل الناس إلى أرضه يلتقطون منه، فرجع الماء عليهم فأهلك منهم خلقاً كثيراً .

وفيها، فى رجب، ورد أبوالعباس الخوافى بغداد عميداً من جهة السلطان .

وفيها عزل فخر الدولة بن جهير من وزارة الخليفة، فخرج من بغداد إلى نور الدولة دبيس بن مزيد بالفلوجة، وأرسل الخليفة إلى أبى يعلى والد الوزير أبى شجاع يستحضره ليوليه الوزارة، وكان يكتب لهزارسب بن بنكير، فسار، فأدركه أجله فى الطريق فمات، ثم شفع نور الدولة فى فخر الدولة بن جهير، فأعيد إلى الوزارة سنة إحدى وستين وأربعمائة فى صفر .

وفيها كان بمصر غلاء شديد، وانقضت سنة إحدى وستين وأربعمائة. وفيها حاصر الناصر بن علناس مدينة الأربس بإفريقيا ففتحها وأمن أهلها .

وفيها، فى المحرم، توفى الشيخ أبومنصور بن عبد الملك بن يوسف، ورثاه ابن الفضل وغيره من الشعراء، وعم مصابه المسلمين، وكان قد دثر واستولى عليه الخراب، فجد فى عمارته، وجعل فيه ثمانية وعشرين طبيباً، وثلاثة من الخزان، إلى غير ذلك، واشترى له الأملاك النفيسة، بعد أن كان ليس به طبيب ولا دواء، وكان كثير المعروف والصلات والخير، ولم يكن يلقب فى زمانه أحد بالشيخ الأجل سواه .

وفى المحرم أيضاً توفى أبوجعفر الطوسى، فقيه الإمامية، بمشهد أمير المؤمنين على بن أبى طالب، عليه السلام .

ثم دخلت سنة إحدى وستين وأربعمائة

ذكر عدة حوادث

فى هذه السنة، فى صفر أعيد فخر الدولة بن جهير إلى وزارة الخليفة، على ما ذكرناه، فلما عاد مدحه ابن الفضل فقال :

قـــد رجـع الحق إلـى نصـــابـه	وأنــت مــن كــل الــورى أولــى بــه
مـــا كنت إلا الســيف سلتـــه يد	ثـم أعـــــادتـه إلـى قــــرابـه

وفى شعبان احترق جامع دمشق . وكان سبب احتراقه أنه وقع بدمشق حرب بين المغاربة أصحاب المصريين والمشارقة، فضربوا داراً مجاورة للجامع بالنار فاحترقت، واتصلت بالجامع، وكانت العامة تعين المغاربة، فتركوا القتال واشتغلوا بإطفاء النار من الجامع، فعظم الخطب واشتد الأمر، وأتى الحريق على الجامع، فدثرت محاسنه، وزال ما كان فيه من الأعمال النفيسة .

ثم دخلت سنة ثلاث وستين وأربعمائة

ذكر استيلاء السلطان ألب أرسلان على حلب، وخروج ملك الروم إلى خلاط، وأسره، وملك اتسز بن الخوارزمى وهو من أمراء السلطان ملكشاه الرملة وبيت المقدس.

ثم دخلت سنة خمس وستين وأربعمائة

. ذكر قتل السلطان ألب أرسلان

فى أول هذه السنة قصد السلطان ألب أرسلان، واسمه محمد، وإنما غلب عليه أرسلان ما وراء النهر، وصاحبه شمس الملك تكين، فعقد على جيحون جسراً وعبر عليه نيف وعشرين يوما، يزيد على مائتى ألف فارس، فأتاه أصحابه بمستحفظ قلعة يعرف بيوسف الخوارزمى، فى سادس شهر ربيع الأول، وحمل إلى قرب سريره مع غلامين، فتقدم أن تضرب له أوتاد وتشد أطرافه إليها، فقال له يوسف : يامخنث ! مثلى يقتل هذه القتلة ؟ فغضب السلطان ألب أرسلان، وأخذ القوس والنشاب، وقال للغلامين : خلياه ! ورماه السلطان بسهم فأخطأه، ولم يكن يخطىء سهمه، فوثب يوسف يريده، والسلطان على سدة، فلما رأى يوسف يقصده قام عن السدة ونزل عنها، فعثر، فوقع على وجهه، فبرك عليه يوسف وضربه بسكين كانت معه فى خاصرته، وكان سعد الدولة واقفاً، فجرحه

يوسف أيضاً جراحات، ونهض السلطان إلى خيمة أخرى، وضرب بعض الفراشين يوسف بمزربة على رأسه، فقتله وقطعه الأتراك .

وكان أهل سمرقند لما بلغهم عبور السلطان النهر، ومافعل عسكره بتلك البلاد لاسيما بخارى، اجتمعوا، وختموا ختمات، وسألوا الله أن يكفيهم أمره، فاستجاب لهم .

ولما جرح السلطان قال : ما من وجه قصدته، وعدو أردته، إلا استعنت بالله عليه، ولما كان أمس صعدت على تل، فارتجت الأرض تحتى من عظم الجيش وكثرة العسكر، فقلت فى نفسى : أنا ملك الدنيا، وما يقدر أحد على، فعجزنى الله تعالى بأضعف خلقه، وأنا أستغفر الله تعالى، وأستقيله من ذلك الخاطر . فتوفى عاشر ربيع الأول من السنة، فحمل إلى مرو ودفن عند أبيه .

ومولده سنة أربع وعشرين وأربعمائة، وبلغ من العمر أربعين سنة وشهوراً، وقيل كان مولده سنة عشرين وأربعمائة، وكانت مدة ملكه منذ خطب له بالسلطنة إلى أن قتل تسع سنين وستة أشهر وأياماً، ولما وصل خبر موته إلى بغداد جلس الوزير فخر الدولة بن جهير للعزاء به فى صحن السلام .

ذكر نسب ألب أرسلان وبعض سيرته

هوألب أرسلان محمد بن داود جغرى بك بن ميكائيل بن سلجوق، وكان كريماً، عادلاً، عاقلاً، لايسمع السعايات، واتسع ملكه جداً، ودان له العالم، وبحق قيل له سلطان العالم .

وكان رحيم القلب رفيقاً بالفقراء، كثير الدعاء بدوام ما أنعم الله به عليه. اجتاز يوما بمروعلى فقراء الخرائين، فبكى، وسأل الله تعالى أن يغنيه من فضله.

وكان يكثر الصدقة، فيتصدق فى رمضان بخمسة عشر ألف دينار، وكان فى ديوانه أسماء خلق كثير من الفقراء فى جميع ممالكه، عليهم الإدرارات والصلات، ولم يكن فى جميع بلاده جناية ولا مصادرة، قد قنع من الرعايا بالخراج الأصلى يؤخذ منهم كل سنة دفعتين رفقاً بهم .

وكتب إليه بعض السعاة سعاية فى نظام الملك وزيره، وذكر ما له فى ممالكه من الرسوم والأموال، وتركت على مصلاه، فأخذها فقرأها، ثم سلمها إلى نظام الملك وقال له : خذ هذا الكتاب، فإن صدقوا فى الذى كتبوه فهذب أخلاقك، وأصلح أحوالك، وإن كذبوا فاغفر لهم زلتهم واشغلهم بمهم يشتغلون به عن السعاية بالناس .

وهذه حالة لا يذكر عن أحد الملوك أحسن منها .

وكان كثيراً ما يقرأ عليه تواريخ وآدابهم، وأحكام الشريعة، ولما اشتهر بين الملوك حسن سيرته، ومحافظته على عهوده له بالطاعة والموافقة بعد الامتناع،وحضروا عنده من أقاصى ما وراء النهر إلى أقصى الشام .

وكان شديد العناية بكف الجند عن أموال الرعية، بلغه أن بعض خواص مماليكه سلب من بعض الرستاقية إزاراً، فأخذ المملوك وصلبه، فارتدع الناس عن التعرض إلى مال غيرهم .

ومناقبه كثيرة لايليق بهذا الكتاب أكثر من هذا القدر منها . وخلف ألب أرسلان من الأولاد: ملكشاه، وهوصار السلطان بعده، وإياز، وتكش، وبورى برش، وتتش، وأرسلان أرغو، وسارة، وعائشة، وبنتاً أخرى .

ذكر ملك السلطان ملكشاه

لما جرح السلطان ألب أرسلان أوصى بالسلطنة لابنه ملكشاه، وكان معه، وأمر أن يحلف له العسكر، فحلفوا جميعهم، وكان المتولى للأمر فى ذلك نظام الملك، وأرسل ملكشاه إلى بغداد يطلب الخطبة له، فخطب له على منابرها، وأوصى ألب أرسلان ابنه ملكشاه أيضا أن يعطى أخاه قاورت بك بن داود أعمال فارس وكرمان، وشيئاً من المال، وأن يزوج بزوجته، وكان قاورت بك بكرمان، وأوصى أن يعطى ابنه إياز بن ألب أرسلان ما كان لأبيه داود، وهو خمسمائة ألف دينار، وقال : كل من لم يرض بما أوصيت له فقاتلوه، واستعينوا بما جعلته له على حربه.

وعاد ملكشاه من بلاد ما وراء النهر، فعبر العسكر الذى قطع النهر فى نيف وعشرين يوما فى ثلاثة أيام، وقام بوزارة ملكشاه نظام الملك، وزاد الأجناد فى معايشهم سبع مائة ألف دينار، وعادوا إلى خراسان، وقصدوا نيسابور، وراسل ملكشاه جماعة الملوك أصحاب الأطراف يدعوهم إلى الخطبة له والانقياد إليه، وأقام إياز أرسلان ببلخ وسار السلطان ملكشاه فى عساكره من نيسابور إلى الرى.

ذكر ملك صاحب سمر قند مدينة ترمذ،وقصد صاحب غزنة سكلكند، والحرب بين السلطان ملكشاه وعمه قاورت بك، وذكر تفويض الأمور إلى نظام الملك، وقتل ناصر الدولة بن حمدان.

ثم دخلت سنة ست وستين وأربعمائة

ذكر تقليد السلطان ملكشاه السلطنة والخلع عليه

فى هذه السنة، فى صفر، ورد كواهراثين إلى بغداد من عسكر السلطان، وجلس له الخليفة القائم بأمر الله، ووقف على رأسه ولى العهد المقتدى بأمر الله، وسلم الخليفة إلى كواهرثين عهد السلطان ملكشاه بالسلطنة، وقرأ الوزير أوله، وسلم إليه أيضاً لواء عهده الخليفة بيده، ولم يمنع يومئذ أحد من الدخول إلى دار الخلافة، فامتلأ صحن السلام بالعامة، حتى كان الإنسان تهمه نفسه ليتخلص، وهنأ الناس بعضهم بعضاً بالسلامة .

ذكر غرق بغداد

فى هذه السنة غرق الجانب الشرقى وبعض الغربى من بغداد .

وسببه أن دجلة زادت زيادة عظيمة، وانفتح القورج عند المسناة المعزية، وجاء فى الليل سيل عظيم، وطفح الماء من البرية مع ريح شديدة، وجاء الماء إلى المنازل من فوق، ونبع من البلاليع والآبار بالجانب الشرقى، وهلك خلق كثير تحت الهدم، وشدت الزواريق تحت التاج خوف الغرق .

وقام الخليفة يتضرع ويصلى، وعليه البردة، وبيده القضيب، وأتى ايتكين السليمانى من عكبرا، فقال للوزير: إن الملاحين يؤذون الناس فى المعابر فأحضر، وتهددهم بالقتل، وأمر يأخذ ما جرت به العادة .

وجمع الناس، وأقيمت الخطبة للجمعة فى الطيار مرتين، وغرق من الجانب الغربى مقبرة أحمد، ومشهد باب التبن، وتهدم سوره، فأطلق شرف الدولة ألف دينار تصرف فى عمارته، ودخل الماء من شبابيك البيمارستان العضدى ومن عجيب مايحكى فى هذا الغرق أن الناس، فى العالم الماضى، كانوا قد أنكروا كثرة المغنيات والخمور، فقطع بعضهم أوتار عودة مغنية كانت عند جندى، فثار به الجندى الذى كانت عنده، فضربه فاجتمعت العامة ومعهم كثير من الأئمة منهم أبوإسحاق الشيرازى، واستغاثوا بالخليفة وطلبوا هدم المواخير والحانات وتبطيلها، فوعدهم أن يكتب السلطان فى ذلك، فسكنوا وتفرقوا .

ولازم كثير من الصالحين الدعاء بكشفه، فاتفق أن غرقت بغداد، ونال الخليفة والجند من ذلك أمر عظيم، وعمت مصيبته الناس كافة، فرأى الشريف أبوجعفر بن أبى موسى بعض الحجاب الذين يقولون : نحن نكاتب السلطان، ونسعى فى تفريق الناس، ويقول: اسكنوا إلى أن يرد الجواب. فقال له أبوجعفر: قد كتبنا، وكتبتم، فجاء جوابنا قبل جوابكم، يعنى أنهم شكوا ما حل بهم إلى الله تعالى، وقد أجابهم بالغرق، قبل ورود جواب السلطان .

ثم دخلت سنة سبع وستين وأربعمائة

ذكر وفاة القائم بأمر الله وذكر بعض سيرته

فى هذه السنة ليلة الخمسين ثالث عشر شعبان، توفى القائم بأمر الله أمير المؤمنين، رضى الله عنه، واسمه عبد الله أبوجعفر بن القادر بالله أبى العباس أحمد ابن الأمير إسحاق ابن المقتدر بالله أبى الفضل بن المعتضد بالله أبى العباس أحمد .

وكان سبب موته أنه قد أصابه شرى، فافتصد، ونام منفرداً، فانفجر فصاده، وخرج منه دم كثير ولم يشعر، فاستيقظ وقد ضعف وسقطت قوته، فأيقن بالموت، فأحضر ولى العهد، ووصاه بوصايا، وأحضر النقيبين وقاضى القضاة وغيرهم مع الوزير ابن جهير، وأشهدهم على نفسه أنه جعل ابن ابنه أبا القاسم عبد الله بن محمد القائم بن أمر الله ولى عهده .

ولما توفى غسله الشريف أبوجعفر بن أبى موسى الهاشمى، وصلى عليه المقتدى بأمر الله.

وكان عمره ستاً وسبعين سنة وثلاثة أشهر وخمسة أيام، وخلافته أربعاً وأربعين سنة وثمانية أشهر وأياماً، وقيل كان مولده ثامن عشر ذى الحجة سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة، وعلى هذا يكون عمره ستاً وسبعين سنة وتسعة أشهر وخمسة وعشرون يوماً .

وأمه أم ولد تسمى قطر الندى، أرمنية، وقيل رومية، أدركت خلافته، وقيل اسمها علم. وماتت فى رجب سنة اثنين وخمسين وأربعمائة .

وكان القائم جميلاً، مليح الوجه، أبيض، مشرباً حمرة، حسن الجسم، ورعاً، ديناراً، زاهداً، علماً قوى اليقين بالله تعالى، كثير الصبر، وكان للقائم عناية بالأدب، ومعرفه حسنة بالكتابة، ولم يكن يرتضى أكثر ما يكتب من الديوان، فكان يصلح فيه أشياء، وكان مؤثراً للعدل والإنصاف يريد قضاء حوائج الناس، لا يرى المنع من شىء يطلب منه .

قال محمد بن على بن عامر الوكيل : دخلت يوماً إلى المخزن، فلم يبق أحد إلا أعطانى قصة، فامتلأت أكمامى منها، فقلت فى نفسى : لوكان الخليفة أخى لأعرض عن هذا كلها، فألقيتها فى بركة، والقائم ينظر ولا أشعر، فلما دخلت إليه أمر الخدم بإحراج الرقاع من البركة، فأخرجت، ووقف عليها، ووقع فيها بأغراض أصحابها، ثم قال لى: ما حملك على هذا؟ فقلت: خوف الضجر منها، فقال : لا تعد إلى مثلها ! فإنا ما أعطيناهم من أموالنا شيئاً، إنما نحن وكلاء.

ووزر للقائم أبوطالب محمد بن أيوب، وأبوالفتح بن دارست، ورئيس الرؤساء، وأبونصر بن جهير، وكان قاضيا ابن ماكولا، وأبوعبد الله الدامغانى .

ذكر خلافة المقتدى بأمر الله

لما توفى القائم بأمر الله بويع المقتدى بأمر الله بن محمد بن القائم بالخلافة، وحضر مؤيد الملك بن نظام الملك، والوزير فخر الدولة بن جهير وابنه عميد

الدولة، والشيخ أبوإسحاق، وأبونصر بن الصباغ، ونقيب النقباء طراد، والنقيب الطاهر المعمر بن محمد وقاضى القضاة أبوعبد الله الدامغانى، وغيرهم من الأعيان والأماثل، فبايعوه .

وقيل : كان أول من بايعه الشريف أبوجعفر بن أبى موسى الهاشمى، فإنه لما فرغ من غسل القائم بايعه، وأنشده :

إذا سيد منا مضى قام سيد

ثم أرتج عليه، فقال المقتدى:

قؤول بما قال الكرام فعول

فلما فرغوا من البيعة صلى بهم العصر .

ولم يكن للقائم من أعقابه ذكر سواه، فإن الذخيرة أبا العباس محمد بن القائم توفى أيام أبيه ولم يكن له غيره، فأيقن الناس بانقراض نسله، وانتقال الخلافة من البيت القادرى إلى غيره، ولم يشكوا فى اختلال الأحوال بعد القائم، لأن من عدا البيت القادرى كانوا يخالطون العامة فى البلد، ويجرون مجرى السوقة، فلو اضطر الناس إلى خلافه أحدهم لم يكن له ذلك القبول، ولا تلك الهيبة، فقدر الله تعالى أن الذخيرة أبا العباس كان له جارية اسمها أرجوان وكان يلم بها، فلما توفى ورأت ما نال القائم من المصيبة واستعظمه من انقراض عقبه، ذكرت أنها حامل، فتعلقت النفوس بذلك، فولدت بعد موت سيدها بستة أشهر المقتدى، فاشتد فرح القائم ، وعظم سروره وبالغ فى الإشفاق عليه والمحبة له .

فلما كانت حادثة البساسيرى كان للمقتدى قريب أربع سنين، فأخفاه أهله، وحمله أبوالغنائم أبوالمحلبان إلى حران، كما ذكرنا ولما عاد القائم إلى بغداد أعيد المقتدى إليه . فلما بلغ الحلم جعله ولى عهد، ولما ولى الخلافة أقر فخر الدولة بن جهير على وزارته بوصية من القائم بذلك، وسير عميد الدولة بن فخر الدولة بن جهيرإلى السلطان ملكشاه لأخذ البيعة، وكان مسيره فى شهر رمضان، وأرسل معه من أنواع الهدايا ما يجل عن الوصف .

ثم دخلت سنة خمس وسبعين وأربعمائة

- ذكر وفاة جمال الملك بن نظام الملك

في هذه السنة، في رجب، توفي جمال الملك منصور بن نظام الملك، وورد الخبر بوفاته إلى بغداد في شعبان، فجلس أخوه مؤيد الملك للعزاء، وحضر فخر الدولة بن جهير، وابنه عميد الملك، معزيين، وأرسل الخليفة إليه في اليوم الثالث فأقامه من العزاء .

وكان سبب موته أن مسخرة كان للسلطان ملكشاه يعرف بجعفرك يحاكي نظام الملك، ويذكره في خلواته مع السلطان، فبلغ ذلك جمال الملك، وكان يتولى مدينة بلخ وأعمالها، فسار من وقته يطوي المراحل إلى والده والسلطان، وهما بأصبهان، فاستقبله أخواه، فخر الملك ومؤيد الملك، فأغلظ لهما القول في إغضائهما على ما بلغه عن جعفرك، فلما وصل إلى حضرة السلطان رأى جعفرك يساره، فانتهره وقال : مثلك يقف هذا الموقف، وينبسط بحضرة السلطان في هذا الجمع ! فلما خرج الملك عند السلطان أمر بالقبض على جعفرك، وأمر بإخراج لسانه من قفاه وقطعه فمات .

ثم سار مع السلطان وأبيه إلى خراسان، وأقاموا بنيسابور مدة، ثم أرادوا العود إلى أصبهان وتقدمهم نظام الملك، فأحضر السلطان عميد خراسان، وقال له : أيما أحب لك رأسك أم رأس جمال الملك ؟ فقال : بل رأسي . فقال : لئن لم تعمل في قتله لأقتلنك، فاجتمع بخادم يختص بخدمة جمال الملك، وقال له سراً: الأولى أن تحفظوا نعمتكم، ومناصبكم، وتدبر في قتل جمال الملك، فإن السلطان يريد أن يأخذ ويقتله، ولأن تقتلوه أنتم سراً أصلح لكم من أن يقتله السلطان ظاهراً . فظن الخادم أن ذلك صحيح، فجعل له سماً في كوز فقاع، فطلب جمال الملك فقاعاً، فأعطاه الخادم ذلك الكوز، فشربه فمات، فلما علم السلطان بموته سار مجداً، حتى لحق نظام الملك، فأعلمه بموت ابنه، وعزاه، وقال : أنا ابنك، وأنت أولى من صبر واحتسب .

ذكر الفتنة ببغداد بين الشافعية والحنابلة

ورد إلى بغداد هذه السنة الشريف أبوالقاسم البكرى، المغربى، الواعظ، وكان أشعرى المذهب، وكان قد قصد نظام الملك، فأحبه ومال إليه، وسيره إلى بغداد، وأجرى عليه الجراية الوافرة، فوعظ بالمدرسة النظامية، وكان يذكر الحنابلة ويعيبهم، ويقول : «وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا»، والله ما كفر أحمد ولكن أصحابه كفروا .

ثم إنه قصد يوماً دار قاضى القضاة أبى عبد الله الدامغانى بنهر القلائين، فجرى بينه وبين بعض أصحابه وبين قوم من الحنابلة مشاجرة أدت إلى الفتنة، وكثر جمعه، فكبس دور بنى الفراء، وأخذ كتبهم، وأخذ منها كتاب الصفات لأبى يعلى فكان يقرأ بين يديه وهوجالس على الكرسى للوعظ، فيشنع به عليهم، وجرى له معهم خصومات وفتن، ولقب البكرى من الديوان بعلم السنة، ومات ببغداد، ودفن عند قبر أبى الحسن الأشعرى .

ذكر حصر شرف الدولة دمشق وعوده عنها.

ثم دخلت سنة ثمان وسبعين وأربعمائة

ـ ذكر استيلاء الفرنج على مدينة طليطلة

فى السنة استولى الفرنج، لعنهم الله، على مدينة طليطلة من بلاد الأندلس، وأخذوها من المسلمين، وهى من أكبر البلاد وأحصنها .

وسبب ذلك أن الأذفونش، ملك الفرنج بالأندلس، كان قد قوى شأنه، وعظم ملكه، وكثرت عساكره، مذ تفرقت بلاد الأندلس، وصار كل بلد بيد ملك، فصاروا مثل ملوك الطوائف، فحينئذ طمع الفرنج فيهم، وأخذوا كثيراً من ثغورهم .

وكان قد خدم قبل ذلك صاحبها القادر بالله بن المأمون بن يحيى بن ذى النون، وعرف من أين يؤتى البلد، وكيف الطريق إلى ملكه .

فلما كان الآن جمع الأذفونش عساكره وسار إلى مدينة طليطلة فحصرها سبع سنين، وأخذها من القادر، فازداد قوةً إلى قوته .

وكان المعتمد على الله محمد بن عبد الله محمد بن عباد أعظم ملوك الأندلس من المسلمين، وكان يملك أكثر البلاد مثل: قرطبة وإشبلية، وكان يؤدى إلى الأذفونش ضريبة كل سنة. فلما ملك الأذفونش طليطلة أرسل إليه المعتمد الضريبة على عادته، فردها عليه ولم يقبلها منه، فأرسل إليه يتهدده ويتوعده أنه يسير إلى مدينة قرطبة ويتملكها إلا أن يسلم إليه الحصون التى فى الجبل، ويبقى السهل للمسلمين، وكان الرسول فى جمع كثير كانوا خمسمائة فارس، فأنزله محمد بن عباد، وفرق أصحابه على قواد عسكره، ثم أمر كل من عنده منهم رجل أن يقتله، وأحضر الرسول وصفعه حتى خرجت عيناه، وسلم من الجماعة ثلاثة نفر، فعادوا إلى الأذفونش فأخبروه الخبر وكان متوجهاً إلى قرطبة ليحاصرها، فلما بلغه الخبر عاد إلى طليطلة ليجمع آلات الحصار، ورحل المعتمد إلى إشبيلية .

ذكر استيلاء ابن جهير على آمد،وملكه ميافارقين،وذكر ملك جزيرة ابن عمر.

ثم دخلت سنة تسع وسبعين وأربعمائة

ذكر قتل سليمان بن قتلمش، وملك السلطان حلب، ووفاة بهاء الدولة منصور بن مزيد وولاية ابنه صدقة، وذكر وقعة الزلاقة بالأندلس وهزيمة الفرنج، ودخول السلطان بغداد.

ثم دخلت سنة إحدى وثمانين وأربعمائة

ـ ذكر الفتنة ببغداد

فى هذه السنة، فى صفر، شرع أهل باب البصرة فى بناء القنطرة الجديدة، ونقلوا الآجر فى أطباق الذهب والفضة وبين أيديهم الدبادب، واجتمع إليهم أهل المحال، وكثر عندهم أهل باب الأزج لا يحصى .

واتفق أن كوهرائين سار فى سميرية، وأصحابه يسيرون على شاطىء دجلة بسيره، فوقف أهل باب الأزج على امرأة كانت تسقى الناس من مزملة لها على

دجلة، فحملوا عليها، على عادة لهم، وجعلوا يكسرون الجرار، ويقولون : الماء للسبيل ! فلما رأت سعد الدولة كوهرائين استغاثت به، فأمر بإبعادهم عنها، فضربهم الأتراك بالمقارع، فسلّ العامة سيوفهم وضربوا وجه فرس حاجبه سليمان، وهوأخص أصحابه، فسقط عن الفرس، فحمل كوهرائين الحنق على أن خرج من السميرية إليهم راجلاً، فحمل أحدهم عليه، فطعنه بأسفل رمحه، فألقاه فى الماء والطين، فحمل أصحابه على العامة، فقاتلوهم، وحرصوا على الظفر بالذى طعنه، فلم يصلوا إليه، وأخذ ثمانية نفر، فقتل أحدهم، وقطع أعصاب ثلاثة نفر، وأرسل قباءه إلى الديوان وفيه أثر الطعنة والطين يستنفر على أهل باب الأزج . ثم إن أهل الكرخ عقدوا لأنفسهم طاقاً آخر على باب طاق الحرانى، وفعلوا كفعل أهل باب البصرة .

ذكر إخراج الأتراك من حريم الخلافة

فى هذه السنة، فى ربيع الآخر، أمر الخليفة بإخراج الأتراك الذين مع الخاتون زوجته ابنة السلطان من حريم دار الخلافة .

وسبب ذلك أن تركياً منهم اشترى من طواف فاكهة، فتماسكا، فشم الطواف التركى، فأخذ التركى صنجة من الميزان وضرب بها رأس الطواف فشجه، فاجتمعت العامة، وكاد يكون بينهم وبين الأتراك شر، واستغاثوا، وشنعوا، فأمر الخليفة بإخراج الأتراك، فأخرجوا الأتراك، فأخرجوا عن آخرهم، فى ساعة واحدة على أقبح صورة، وقت العشاء الآخرة .

ذكر ملك الروم مدينة زويلة وعودهم عنها

فى هذه السنة فتح الروم مدينة زويلة من إفريقيا، وهى بقرب المهدية.

وسبب ذلك أن الأمير تميم بن المعز بن باديس، صاحبها، أكثر غزو بلادهم فى البحر، فخرجها، وشتت أهلها، فاجتمعوا من كل جهة، واتفقوا على إنشاء الشوانى لغزوالمهدية، ودخل معهم البيشانيون، والجنويون، وهما من الفرنج،

فأقاموا يعمرون الأسطول أربع سنين، واجتمعوا بجزيرة قوصرة فى أربع مائة قطعة فكتب أهل قوصرة كتاباً على جناح طائر يذكرون وصولهم وعددهم وحكمهم على الجزيرة، فأراد تميم أن يسير عثمان بن سعيد المعروف بالمهر، مقدم الأسطول الذى له، ليمنعهم من النزول، فمنعه من ذلك بعض قواده، واسمه عبد الله بن منكوت، لعداوة بينه وبين المهر، وفجاءة الروم، وأرسلوا، وطلعوا إلى البر، ونهبوا، وخربوا وأحرقوا، ودخلوا زويلة ونهبوا، وكانت عساكر تميم غائبة فى القتال الخارجين عن طاعته .

ثم صالح تميم الروم على ثلاثين ألف دينار، ورد جميع ما حووه من السبى، وكان تميم يبذل المال الكثير فى الغرض الحقير، فكيف فى الغرض الكبير، حكى عنه أنه بذل للعرب، لما استولوا على حصن له يسمى قناطة ليس بالعظيم، اثنى عشر ألف دينار حتى هدمه، فقيل له: هذا سرف فى المال، فقال : هوشرف فى الحال.

ثم دخلت : سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة

ـ ذكر الفتنة ببغداد بين العامة

فى هذه السنة، فى صفر، كبس أهل باب البصرة الكرخ، فقتلوا رجلاً، وجرحوا آخر، فأغلق لأهل الكرخ الأسواق، ورفعوا المصاحف، وحملوا ثياب الرجلين وهى بالدم، ومضوا إلى دار العميد كمال الملك أبى الفتح الدهستانى مستغيثين، فأرسل إلى النقيب طراد بن محمد يطلب منه إحضار القاتلين، فقصد طراد دار الأمير بوزان بقصر ابن المأمون، فطالبه بوزان بهم، ووكل به، فأرسل الخليفة إلى بوزان يعرفه حال النقيب طراد، ومحله، ومنزلته، فخلى سبيله واعتذر إليه، فسكن العميد كمال الملك الفتنة وكف الناس بعضهم عن بعض، ثم سار السلطان، فعاد الناس إلى ما كانوا فيه من الفتنة، ولم ينقض يوم إلا عن قتلى وجرحى .

ذكر ملك السلطان ملكشاه ما وراء النهر

فى هذه السنة ملك السلطان ملكشاه ما وراء النهر .

وسبب ذلك أن سمرقند كان قد ملكها أحمد خان بن خضر خان، أخوه شمس الملك الذى كان قبله، وهوابن أخى تركان خاتون، زوجه السلطان ملكشاه، وكان صبياً ظالماً، قبيح السيرة، يكثر مصادر الرعية، فنفروا منه وكتبوا إلى السلطان سراً يستغيثون به، ويسألونه القدوم عليهم ليملك بلادهم، وحضر الفقيه أبوطاهر بن علك الشافعى عند السلطان شاكياً، وكان يخاف من أحمد خان لكثرة ماله، فأظهر السفر للتجارة والحج، فاجتمع بالسلطان، وشكا إليه، وأطعمه فى البلاد . فتحركت دواعى السلطان إلى ملكها، فسار من أصبهان .

وكان قد وصل إليه، وهوفيها، رسول ملك الروم، ومعه الخراج المقرر عليه، فأخذه نظام الملك معهم إلى وراء النهر، وحضر فتح البلاد، فلما وصل إلى كاشغر أذن له نظام الملك فى العود إلى بلاده، وقال : أحب يذكر عنا فى التواريخ أن ملك الروم حمل الجزية وأوصلها إلى باب كاشغر لينهى إلى صاحبه سعة ملك السلطان ليعظم خوفه منه، ولا يحدث نفسه بخلاف الطاعة . وهذا يدل على همة عالية تعلوعلى العيوق .

ولما سار السلطان من أصبهان إلى خراسان جمع العساكر من البلاد جميعها، فعبر النهر بجيوش لا يحصرها ديوان، ولا تدخل تحت الإحصاء، فلما قطع النهر قصد بخارى، وأخذ ما على طريقه، ثم سار إليها وملكها وما جاورها من البلاد، وقصد سمرقند ونازلها، وكانت الملطفات قد قدمها إلى أهل البلد بعدهم النصر، والخلاص مما هم فيه من الظلم، وحصر البلد، وضيق عليه وأعانه أهل البلد بالإقامات، وفرق أحمد خان، صاحب سمرقند، أبراج السور على الأمراء ومن يثق به من أهل البلد، وسلم برجاً يقال له برج العيار إلى رجل علوى كان مختصاً به، فنصح فى القتال .

فاتفق أن ولداً لهذا العلوى أخذ أسيراً ببخارى، فهدد الأب بقتله، فتراخى عن القتال، فسهل الأمر على السلطان ملكشاه، ورمى من السور عدة ثلم بالمنجنيقات، وأخذ ذلك البرج، فلما صعد عسكر السلطان إلى السور هرب أحمد خان، واختفى فى بيوت بعض العامة فغمز عليه وأخذ وحمل إلى السلطان، وفى رقبته حبل، فأكرمه السلطان، وأطلقه وأرسله إلى أصبهان، ومعه من يحفظه، ورتب بسمرقند الأمير العميد أبا طاهر عميد خوارزم .

وسار السلطان قاصداً إلى كاشغر، فبلغ إلى يوزكند، وهوبلد يجرى على بابه نهر، وأرسل منها رسلاً إلى ملك كاشغر يأمره بإقامة الخطبة، وضرب السكة باسمه، ويتوعده إن خالف بالمسير إليه . ففعل ذلك وأطاع، وحضر عند السلطان، فأكرمه وعظمه، وتابع الإنعام عليه، وأعادوا إلى بلده .

ورجع السلطان إلى خراسان، فلما أبعد سمرقند لم يتفق أهلها وعسكرها المعروفون بالجكلية مع العميد أبى طاهر، نائب السلطان عندهم، حتى كادوا يثبون عليه، فاحتال حتى خرج من عندهم، ومضى إلى خوارزم .

ذكر عصيان سمرقند وفتحها الفتح الثانى.

ذكر فتح عسكر مصر عكا وغيرها من الشام

فى هذه السنة خرجت عساكر مصر إلى الشام فى جماعة من المتقدمين، فحصروا مدينة صور، وكان قد تغلب عليها القاضى عين الدولة بن أبى عقيل، وامتنع عليهم، ثم توفى، ووليها أولاده، فحصرهم العسكر المصرى فلم يكن لهم من القوة ما يمنعون بها، فسلموا إليهم .

ثم سار العسكر عنها إلى مدينة صيدا، ففعلوا بها كذلك .

ثم ساروا إلى مدينة عكا، فحصروها، وضيقوا على أهلها، فافتتحوها .

وقصدوا مدينة جبيل، فملكوها أيضاً، وأصلحوا أحوال هذه البلاد، وقرروا قواعدها، وساروا عنها إلى مصر عائدين، واستعمل أمير الجيوش على البلاد الأمراء والعمال .

ذكر الفتنة بين أهل بغداد ثانية

وفى هذه السنة، فى جمادى الأولى، كثرت الفتن ببغداد بين أهل الكرخ وغيرها من المحال، وقتل بينهم كثير، واستولى أهل المحال على قطعة كبيرة من النهر الدجاج، فنهبوها، وأحرقوها، فنزل شحنة بغداد، وهوخمارتكين النائب عن كوهرائين، على دجلة فى خيله ورجله، ليكف الناس عن الفتنة. فلم ينتهوا. وكان أهل الكرخ يجرون عليه وعلى أصحابه الجرايات والإقامات.

وفى بعض الأيام وصل أهل البصرة إلى سويقة غالب فخرج من أهل الكرخ من لم تجر عادته بالقتال، فقاتلوهم حتى كشفوهم. فركب خدم الخليفة. والحجاب. والنقباء وغيرهم من أعيان الحنابلة، كابن عقيل، والكلوذانى، وغيرهما، إلى الشحنة، وساروا معه إلى أهل الكرخ، فقرأ عليهم مثالاً من الخليفة يأمرهم بالكف، ومعاودة السكون، وحضور الجماعة والجمعة، والتدين بمذهب أهل السنة، فأجابوا إلى الطاعة.

فبينما هم كذلك أتاهم الصارخ من نهر الدجاج بأن السنة قد قصدوهم، والقتال عندهم، فمضوا مع الشحنة، ومنعوا من الفتنة، وسكن الناس وكتب أهل الكرخ على أبواب مساجدهم : خير الناس بعد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أبوبكر ثم عثمان ثم على، ومن عندهم هذا اليوم ثار أهل الكرخ، وقصدوا شارع ابن أبى عوف ونهبوه، وفى جملة ما نهبوا دار أبى الفضل بن خيرون المعدل فقصد الديوان مستتفراً، ومعه الناس، ورفع العامة الصلبان وهجموا على الوزير فى هجرته. وأكثروا من الكلام الشنيع، وقتل ذلك اليوم رجل هاشمى من أهل باب الأزج بسهم أصحابه، فثار العامة هناك بعلوى كان مقيماً بينهم. فقتلوه وحرقوه، وجرى من النهب، والقتل، والفساد أمور عظيمة، فأرسل الخليفة إلى الدولة صدقة بن مزيد، فأرسل عسكراً إلى بغداد، فطلبوا المفسدين والعيارين، فهربوا منهم، فهدمت دورهم، وقتل منهم ونفى وسكنت الفتنة، وأمن الناس.

ثم دخلت سنة أربع وثمانين وأربعمائة

ذكر عزل الوزير أبى شجاع ووزارة عميد الدولة بن جهير.

ذكر ملك أمير المسلمين بلاد الأندلس التى للمسلمين

فى هذه السنة، فى رجب، ملك أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، صاحب بلاد المغرب، من بلاد الأندلس ما هوبيد المسلمين : قرطبة وإشبيلية، وقبض على المعتمد بن عباد صاحبها، وملك غيرها من الأندلس .

ولقد جرى للرشيد بن المعتمد حادثة شبيهة بحادثة الأمين محمد بن هارون الرشيد . قال أبوبكر عيسى بن اللبانة الدانى، من مدينة دانية : كنت يوماً عنه الرشيد بن المعتمد فى مجلس أنسه سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة، فجرى ذكر غرناطة، وملك أمير المسلمين لها، وقد ذكرنا أخذها فى وقعة الزلاقة، فلما ذكرناها تفجع، وتلهف، واسترجع، وذكر قصرها، فدعونا لقصره بالدوام، وللملكه، بتراخى الأيام فأمر عند ذلك أبا بكر الإشبيلى بالغناء فغنى :

يا دار مية بالعلياء فالسند	أقوت، وطال عليها سالف الأبد

فاستحالت مسرته، وتجهمت أسرته . ثم أمر بالغناء من ستارته فغنى :

إن شئت أن ألا ترى صبراً لمصطبر	فانظر إلى أى حال أصبح الطلل

فتأكد تطيره، واشتد اربداد وجهه وتغيره، وأمر مغنية أخرى بالغناء، فغنت :

يا لهف نفسى على مال أفرقه	على المقلين من أهل المروءات
إن اعتذارى إلى من جاء يسألنى	ما ليس عندى من إحدى المصيبات

قال ابن اللبانة : فتلافيت الحال بأن قمت فقلت :

محل مكرمة لا هد مبناه	وشمل مأثرة لا شته الله
البيت كالبيت لكن زاد ذا شرفاً	إن الرشيد مع المعتد ركناه
ثاوعلى أنجم الجوزاء مقعده،	وراحل فى سبيل الله مثواه
حتم على الملك أن يقوى وقد وصلت	بالشرق والغرب يمناه ويسراه
بأس توقد، فاحمرت لواحظه	ونائل شب، فاخضرت عذاراه

فلعمرى قد بسطت من نفسه، وأعدت عليه بعض أنسه، على أنى وقعت فيما وقع فيه الكل بقولى البيت كالبيت . وأمر إثر ذلك بالغناء فغنى :

ولما قضينا من منى كل حاجة ولم يبق إلا أن تزم الركائب

فأيقنا أن هذه الطير، تعقب الغير. فلما أراد أمير المسلمين ملك الأندلس سار من مراكش إلى سبتة، وأقام بها، وسير العساكر مع سير بن أبى بكر وغيره إلى الأندلس، فعبروا الخليج فأتوا مدينة مرسية، فملكوها وأعمالها، وأخرجوا صاحبها أبا عبد الرحمن بن طاهر منها، وساروا إلى مدينة شاطبة ومدينة دانية فملكوها.

وكانت بلنسية قد ملكها الفرنج قديماً، بعد أن حصروها سبع سنين، فلما سمعوا بوقعة الزلاقة فارقوها، فملكها المسلمون أيضاً، وعمروها وسكنوها، فصارت الآن للمرابطين.

وكانوا قد ملكوا غرناطة نوبة الزلاقة، فقصدوا مدينة إشبيلية، وبها صاحبها المعتمد بن عباد، فحصروه بها، وضيقوا عليه، فقاتل أهلها قتالا شديداً، وظهر من شجاعة المعتمد، وشدة بأسه، وحسن دفاعه عن بلده ما لم يشاهد من غيره ما يقاربه، فكان يلقى نفسه فى المواقف التى لا يرجى خلاصه منها، فيسلم بشجاعته، وشدة نفسه، ولكن إذا نفذت المدة، لم تغن العدة.

وكانت الفرنج قد سمعوا بقصد عساكر المرابطين بلاد الأندلس، فخافوا أن يملكوها ثم يقصدوا بلادهم، فجمعوا فأكثروا، وساروا ليساعدوا المعتمد، ويعينوه على المرابطين، فسمع سير بن أبى بكر، مقدم المرابطين، بمسيرهم، ففارق إشبيلية وتوجه إلى لقاء الفرنج، فلقيهم، وقاتلهم، وهزمهم، وعاد إلى إشبيلية فحصرها، ولم يزل الحصار دائماً، والقتال مستمراً إلى العشرين من رجب من هذه السنة، فعظم الحرب ذلك اليوم، واشتد الأمر على أهل البلد، ودخله المرابطون من واديه، ونهب جميع ما فيه، ولم يبقوا على سبد ولا لبد، وسلبوا الناس ثيابهم، فخرجوا من مساكنهم يسترون عوراتهم بأيديهم، وسبيت المخدارت، وانتهكت الحرمات، فأخذ المعتمد أسيراً، ومعه أولاده الذكور والإناث، بعد أن استأصلوا جميع ما لهم، فلم يصحبهم من ملكهم بلغة زاد.

وقيل : إن المعتمد سلم البلد بأمان، وكتب نسخة الأمان والعهد، واستحلفهم به لنفسه، وأهله، وماله، وعبيده، وجميع ما يتعلق بأسبابه، فلما سلم إليهم إشبيلية

لم يفوا له، وأخذوهم أسراء، وما لهم غنيمة، وسير المعتمد وأهله إلى مدينة أغمات، فحبسوا فيها، وفعل أمر المسلمين بهم أفعالاً لم يسلكها أحد ممن قبله، ولا يفعلها أحد ممن يأتى بعده، إلا من رضى لنفسه بهذه الرذيلة، وذلك أنه سجنهم فلم يجر عليهم ما يقوم بهم، حتى كانت بنات المعتمد يغزلن للناس بأجرة ينفقونها على أنفسهم، وذكر لك المعتمد فى أبيات ترد عنه ذكر وفاته، فأبان أمير المسلمين بهذا الفعل عن صغر نفس ولؤم قدرة .

وأغمات هذه مدينة فى سفح جبل بالقرب من مراكش، وسيرد من ذكر المعتمد عند موته، سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، ما يعرف به محله .

قال أبوبكر بن اللبانة: زرت المعتمد بعد أسره بأغمات، وقلت أبياتاً، عند دخولى إليه، منها :

ألم أقل فى الثقاف كان ثقافاً	كنت قلباً به، وكان شغافاً
يمكث الزهر فى الكمام، ولكن	بعد مكث الكمام يدنوقطافا
وإذا ما الهلال غاب بغيم	لم يكن ذلك المغيب انكسافا
إنما أنت درة للمعالى	ركب الدهر فوقها أصدافا
حجب البيت منك شخصاً كريماً	مثلما تحجب الدنان السلافا
أنت للفضل كعبة، ولوانى	كنت أسطيع لالتزمت الطوافا

قال : وجرت بينى وبينه مخاطبات ألذ من غفلات الرقيب، وأشهى من رشفات الحبيب، وأدل على السماح، من فجر على صباح .

ولما أخذ المعتمد وأهله قتل ولداه الفتح ويزيد بين يديه صبراً، فقال فى ذلك:

يقولون صبراً، لا سبيل إلى الصبر	سأبكى، وأبكى ما تطاول من عمرى
افتح لقد فتحت لى باب رحمة	كما بيزيد، الله قد زاد فى أجرى
هوى بكما المقدار عنى، ولم أمت	فأدعى وفياً، قد نكصت إلى الغدر
ولوعدتما لاخترتما العود فى الثرى	إذا أنتما أبصرتمانى فى الأسر
أبا خالد أورثتنى البث خالداً	أبا نصر مذ ودعت ودعنى نصرى

وكان المعتمد يكاتبه فضلاء البلاء، وهومحبوس، بالنثر والنظم، يتوجعون له، ويذمون الزمان وأهله، حيث مثله منكوب، فمن ذلك ما قاله عبد الجبار ابن أبى بكر بن حمديس، وكتبه إليه يذكر مسيرهم عن إشبيلية إلى أغمات :

جرى لك جد بالكرام عثور ... وجار زمان كنت منه تجير

لقد أصبحت بيض الظبى فى غمودها ... إناثاً لترك الضرب، وهى ذكور

ولما رحلتم بالندى فى أكفكم ... وقلقل رضوى منكم وثبير

رفعت لسانى بالقيامة قد أتت ... ألا فانظروا كيف الجبال تسير

وقال شاعره ابن اللبانة فى حادثته أيضًا :

تبكى السماء بدمع رائح غادى ... على البهاليل من أبناء عباد

على الجبال التى هدت قواعدها ... وكانت الأرض منها تحت أوتاد

عريسة دخلتها النائبات على ... أساود منهم فيها وآساد

وكعبة كانت الآمال تعمرها ... فاليوم لا عاكف فيها، ولا باد

ولما استقصى عسكر أمير المسلمين ملوك الأندلس، وأخذ بلادهم، جمع ملوكهم وسيرهم إلا بلاد بالغرب، وفرقهم فيها، «إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة».

ولما فرغ سير من إشبيلية سار إلى المرية فنازلها، وكان صاحبها محمد ابن معن بن صمادح، فقال لولده : ما دام المعتمد بإشبيلية فلا نبالى بالمرابطين، فلما سمع بملكهم لها، وما جرى للمعتمد، مات فى تلك الأيام غماً وكمداً، فلما مات سار ولده الحاجب وأهله فى مراكب، ومعهم كل مالهم، وقصدوا بلاد بنى حماد، فأحسنوا إليهم .

وكان عمر بن الأفطس، صاحب بطليموس، ممن أعان سير على المعتمد، فلما فتحت إشبيلية رجع ابن الأفطس إلى بلده، فسار إليه سير، وحاربه، فغلبه، و أخذ بلده منه، وأخذه أسيراً هوووَلده الفضل، فقتلهما، فقال عمر حين أرادوا قتله : قدموا ولدى قبلى للقتل ليكون فى صحيفتى ! فقتل ولده قبله، وقتل هوبعده، واحتوى سير على ذخائرهم وأموالهم .

ولم يترك ملوك الأندلس سوى بنى هود، فإنه لم يقصد بلادهم، وهى شرق الأندلس، وكان صاحبها حينئذ المستعين بالله بن هود، وهومن الشجعان الذين يضرب المثل بهم، وكان قد أعد كل ما يحتاج إليه فى الحصار، وترك عنده ما يكفيه عدة سنين بمدينة روطة، وكانت قلعة حصينة، وكانت رعيته تخافه، ولم يزل يهادى أمير المسلمين، قبل أن يقصد بلاد الأندلس ويملكها، ويواصله، يكثر مراسلته، فرعى له ذلك، حتى إنه أوصى ابنه على بن يوسف عند موته بترك التعرض لبلاد بنى هود، وقال : اتركهم بينك وبين العدو، فإنهم شجعان .

ثم ذكر ملك الفرنج جزيرة صقلية،ووصول السلطان إلى بغداد.

ثم دخلت سنة خمس وثمانين وأربعمائة

ذكر الحرب بين المسلمين والفرنج بجيان.

ذكر مقتل نظام الملك

فى هذه السنة، عاشر رمضان، قتل نظام الملك أبوعلى الحسن بن على بن إسحاق الوزير بالقرب من نهاوند، وكان هو والسلطان فى أصبهان، وقد عاد إلى بغداد، فلما كان بهذا المكان، بعد أن فرغ من إفطاره، وخرج فى محفته إلى خيمة حرمه، أتاه صبى ديلمى من الباطنية، فى صورة مستميح، أومستغيث فضربه بسكين، كانت معه، فقضى عليه وهرب، فعثر بطنب خيمة، فأدركوه فقتلوه، وركب السلطان إلى خيمه، فسكن عسكره وأصحابه .

وبقى وزير السلطان ثلاثين سنة سوى ما وزر للسلطان ألب أرسلان، صاحب خراسان، أيام عمه طغرلبك، قبل أن يتولى السلطنة، وكان علت سنه، فإنه كان مولده سنة ثمان وأربعمائة .

وكان سبب قتله أن عثمان بن جمال الملك بن نظام الملك كان قد ولاه جده نظام الملك رئاسة مرو، وأرسل السلطان إليها شحنة يقال له قودن، وهومن أكبر مماليكه، ومن أعظم الأمراء فى دولته، فجرى بينه وبين عثمان منازعة فى شىء، فحملت عثمان حداثة سنه، وتمكنه، وطمعه بجده، على أن قبض عليه، وأخرق

به، ثم أطلقه، فقصد السلطان مستغيثاً شاكياً، فأرسل السلطان إلى نظام الملك رسالة مع تاج الدولة ومجد الملك البلاسانى وغيرهما من أرباب دولته يقول له : إن كنت شريكى فى الملك، ويدك مع يدى فى السلطنة، فلذلك حكم، وإن كنت نائبى، وبحكمى، فيجب أن تلزم حد التبعية والنيابة، وهؤلاء أولادك قد استولى كل واحد منهم على كورة عظيمة، وولى ولاية كبيرة، ولم يقنعهم ذلك، حتى تجاوزوا أمر السياسة وطمعوا إلى أن فعلوا كذا وكذا، وأطال القول، وارسل معهم الأمير يلبرد، وكان من خواصه وثقاته، وقال له : تعرفنى ما يقول، فربما كتم هؤلاء شيئاً .

فحضروا عند الملك وأوردوا عليه الرسالة، فقال لهم : قولوا للسلطان إن كنت ما علمت أنى شريكك فى الملك فاعلم، فإنك ما نلت هذا الأمر إلا بتدبيرى ورأى، أما يذكر حين قتل أبوه فقمت بتدبير أمره، وقمعت الخوارج عليه من أهله، وغيرهم، منهم : فلان وفلان، وذكر جماعة من خرج عليه، وهوذلك الوقت يتمسك بى ويلزمنى، ولا يخالفنى، فلما قدت الأمور إليه، وجمعت الكلمة عليه، وفتحت له الأمصار القريبة والبعيدة، وأطاعه القاصى والدانى، أقبل يتجنى لى الذنوب، ويسمع فى السعايات ؟ قولوا له عنى : إن ثبات تلك القلنسوة معذوق بهذه الدواة، وإن اتفاقهما رباط كل رغيبة وسبب كل غنيمة، ومتى أطبقت هذه زالت تلك، فإن عزم على تغيير فليتزود للاحتياط قبل وقوعه، وليأخذ الحذر من الحادث أمام طروقه، وأطال فيما هذا سبيله، ثم قال لهم : قولوا للسلطان عنى مهما أردتم، فقد أهمنى ما لحقنى من توبيخه وفت فى عضدى .

فلما خرجوا من عنده اتفقوا على كتمان ما جرى عن السلطان، وأن يقولوا له ما مضمونه العبودية والتنصل، ومضوا إلى منازلهم، وكان الليل قد انتصف، ومضى يلبرد إلى السلطان فأعلمه ما جرى، وبكر الجماعة إلى السلطان، وهوينتظرهم، فقالوا له من الاعتذار والعبودية ما كانوا اتفقوا عليه، فقال لهم السلطان : إنه لم يقل هذا، وإنما قال كيت وكيت، فأشاروا حينئذ بكتمان ذلك رعاية لحق نظام الملك، وسابقته، فوقع التدبير عليه، حتى تم عليه من القتل ما

ثم، ومات السلطان بعده بخمسة وثلاثين يوماً، وانحلت الدولة، ووقع السيف، وكان قول نظام الملك شبه الكرامة له، وأكثر الشعراء مراثيه، فمن جيد ما قيل فيه شبل الدولة مقاتل بن عطية :

كان الوزير نظام الملك لؤلؤة   يتيمة صاغها الرحمن من شرف
عزت، فلم تعرف الأيلم قيمتها   فردها، غيرة منه، إلى الصدف

ورأى بعض نظام الملك بعد قتله فى المنام، فسأله عن حاله، فقال: كان يعرض على جميع عملى لولا الحديدة التى أصبت بها، يعنى القتل .

ذكر ابتداء حاله وشيء من أخباره

أما ابتداء حاله، فكان من أبناء الدهاقين بطوس، فزال ما كان لأبيه من مال، وملك، وتوفيت أمه وهورضيع، فكان أبوه يطوف به على المرضعات فيرضعنه حسبة، حتى شب، وتعلم العربية، وسر الله فيه يدعوه إلى علوالهمة، والأشتغال بالعلم، فتفقه، وصار فاضلاً، وسمع الحديث الكثير، ثم اشتغل بالأعمال السلطانية، ولم يزل الدهر يعلوا به ويخفض حضراً وسفراً .

وكان يطوف بلاد خراسان، ووصل إلى غزنة فى صحبة بعض المتصرفين، ثم لزم أبا على بن شاذان متولى الأمور ببلخ لداود والد السلطان ألب أرسلان، فحسنت حاله معه، وظهرت كفايته وأمانته، وصار معروفاً عندهم بذلك، فلما حضرت أبا على بن شاذان الوفاة أوصى الملك ألب أرسلان به، وعرفه حاله، فولاه شغله، ثم صار وزيراً له أن ولى السلطنة بعد عمه طغرلبك، واستمر على الوزارة لأنه ظهرت منه كفاية عظيمة، وآراء سديدة قادت السلطنة إلى ألب أرسلان، فلما توفى ألب أرسلان قال بأمر ابنه ملكشاه، وقد تقدم ذكر هذه الجمل مستوفى مشروحاً .

وقيل إن ابتداء أمره أنه كان يكتب للأمير تاجر، صاحب بلخ، وكان الأمير يصادر فى رأس كل سنة، ويأخذ ما معه، ويقول له : قد سمنت يا حسن ! ويدفع إليه فرساً ومقرعة ويقول : هذا يكفيك، فلما طال ذلك عليه أخفى ولديه فخر

الملك ومؤيد الملك، وهرب إلى جفرى بك داود، والد ألب أرسلان، فوقف فرسه فى الطريق، فقال : اللهم إنى أسألك فرساً تخلصنى عليه ! فسار غير بعيد، فلقيه تركمانى وتحته فرس جواد، فقال لنظام الملك : انزل على فرسك، فنزل عنه، فأخذ التركمانى وأعطاه فرسه، فركبه وقال له :لا تنسى يا حسن، قال نظام الملك : فقويت نفسى بذلك، وعلمت أنه ابتداء سعادة . فسار نظام الملك إلى مرو، ودخل على داود، فلما رآه أخذ بيده، وسلمه إلى ولده أرسلان، وقال له: هذا حسن الطوسى . فتسلمه، واتخذه والداً لا تخالفه .

وكان الأمير تاجر لما سمع بهرب نظام الملك سار فى أثره إلى مرو، فقال لداود: هذا كاتبى ونائبى قد أخذ أموالى، فقال له داود: حديثك مع محمد، يعنى ألب أرسلان، فكان اسمه محمداً، فلم يتجاسر تاجر على خطابه، فتركه وعاد .

وأما أخباره، فإنه كان عالماً، ديناً، جواداً عادلاً، حليماً كثير الصفح عن المذنبين، طويل الصمت، كان مجلسه عامراً بالقراء، والفقهاء، وأئمة المسلمين، وأهل الخير والصلاح، وأمر ببناء المدارس فى سائر الأمصار والبلاد، وأجرى لها الجرايات العظيمة، وأملى الحديث بالبلاد : ببغداد وخراسان وغيرهما، وكان يقول : إنى لست من أهل هذا الشأن، لما تولاه، ولكنى أحب أن أجعل نفسى على قطار نقلة حديث رسول الله، صلى الله عليه وسلم .

وكان إذا سمع المؤذن أمسك عن كل ما هوفيه وتجنبه، فإذا فرغ لا يبدأ بشىء قبل الصلاة، وكان إذا غفل المؤذن ودخل الوقت يأمره بالأذان، وهذا غاية حال المنقطعين إلى العبادة فى حفظ الأوقات، ولزوم الصلوات .

وأسقط المكوس والضرائب، وأزال لعن الأشعرية من المنابر، وكان الوزير عميد الملك الكندرى قد حسن للسلطان طغرلبك التقدم بلعن الرافضة، فأمره بذلك، فأضاف إليهم الأشعرية، ولعن الجميع، فلهذا فارق كثير من الأئمة بلادهم، مثل إمام الحرمين، وأبى القاسم القشيرى، وغيرهما، فلما ولى ألب أرسلان السلطنة أسقط نظام الملك ذلك جميعه، وأعاد العلماء إلى أوطانهم .

وكان نظام الملك إذا دخل عليه الإمام أبوالقاسم القشيرى، والإمام أبوالمعالى الجوينى، يقوم لهما، ويجلس فى مسنده، كما هو، وإذا دخل أبوعلى الفارمذى يقوم إليه، ويجلسه فى مكانه، ويجلس هو بين يديه، فقيل له فى ذلك، فقال : إن هذين وأمثالهما إذا دخلوا على يقولون لى : أنت كذا وكذا، يثنون على بما ليس فى، فيزيدنى كلامهم عجباً وتيهاً، وهذا الشيخ يذكر لى عيوب نفسى، وما فيه من الظلم، فتتكسر نفسى لذلك، وأرجع عن كثير مما أنا فيه .

وقال نظام الملك: كنت أتمنى أن يكون لى قرية خالصة، ومسجد أنفرد فيه لعبادة ربى، ثم بعد ذلك تمنيت أن يكون لى قطعة أرض أتقوتِ بريعها، ومسجد أعبد الله فيه، وأما الآن فأنا أتمنى أن يكون لى رغيف كل يوم ومسجد أعبد الله فيه.

وقيل : كان ليلة يأكل الطعام، وبجانبه أخوه أبوالقاسم، وبالجانب الآخر عميد خراسان، وإلى جانب العميد إنسان فقير، مقطوع اليد، فنظر نظام الملك، فرأى العميد يتجنب الأكل مع المقطوع، فأمره بالانتقال إلى الجانب الآخر، وقرب المقطوع إليه فأكل معه .

وكانت عادته أن يحضر الفقراء طعامه، ويقربهم إليه، ويدنيهم . وأخباره مشهورة كثيرة، قد جمعت لها المجاميع السائرة فى البلاد

ذكر وفاة السلطان وذكر بعض سيرته

سار السلطان ملكشاه، بعد قتل نظام الملك، إلى بغداد، ودخلها فى الرابع والعشرين من الشهر رمضان، ولقيه وزير الخليفة عميد الدولة بن جهير، وظهرت من تاج الملك كفاية عظيمة، وكان السلطان قد أمر أن تفصل خلع الوزارة لتاج الملك، وكان هوالذى سعى بنظام الملك، فلما فرغ من الخلع، ولم يبق غير لبسها والجلوس فى الدست، واتفق أن السلطان خرج إلى الصيد، وعاد ثالث شوال مريضاً، وأنشب الموت أظفاره فيه، ولم يمنع عنه سعة ملكه، وكثرة عساكره .

وكان سبب مرضه أنه أكل لحم صيد فحم وافتصد، ولم يستوف إخراج الدم، فثقل مرضه، وكانت حمى محرقة، فتوفى ليلة الجمعة، النصف من شوال .

ولما ثقل أرباب دولته أموالهم إلى حريم دار الخلافة، ولما توفى سترت زوجته تركان خاتون المعروفة بخاتون الجلالية موته وكتمته، وأعادت جعفراً ابن الخليفة من ابنة السلطان إلى أبيه المقتدى بأمر الله، وسارت من بغداد والسلطان معها محمولاً، وبذل الأموال للأمراء سراً، واستحلفتهم لابنها محمود، وكان تاج يتولى ذلك لها، وأرسلت قوام الدولة كربوقا الذى صار صاحب الموصل إلى أصبهان بخاتم السلطان، فاستنزل مستحفظ القلعة، وتسلمها، وأظهر أن السلطان أمره بذلك، ولم يسمع بسلطان مثله لم يصل عليه أحد، ولم يلطم عليه وجه .

وكان مولده سنة سبع وأربعين وأربعمائة، وكان من أحسن الناس صورة ومعنى، وخطب له من حدود الصين إلى آخر الشام، ومن القاضى بلاد الإسلام فى الشمال إلى آخر بلاداليمن، وحمل الروم الجزية، ولم يفته مطلب، وانقضت أيامه على أمن عام وسكون شامل، وعدل مطرد .

ومن أفعاله أنه لما خرج عليه أخوه تكش بخراسان اجتاز بمشهد على بن موسى الرضا بطوس، فزاره، فلما خرج قال لنظام الملك : بأى شىء دعوت ؟ قال : دعوت الله أن ينصرك، فقال : أنا فلم أدع بهذا بل قلت : اللهم انصر أصلحنا للمسلمين، وأنفعنا للرعية .

وحكى عنه أن سوادياً لقيه وهويبكى، فاستغاث به، وقال : كنت ابتعت بطيخاً بدريهمات لا أملك سواها، فغلبنى عليه ثلاثة نفر من الأتراك، فأخذوه منى، فقال السلطان له : اقعد ! ثم أحضر فراشاً وقال اشتهيت بطيخاً، وكان ذلك عند أول استوائه، وأمر بطلبه من العسكر، فغاب ثم عاد ومعه البطيخ فأمره بإحضار من وجده عنده، فأحضره، فسأله السلطان من أين له ذلك البطيخ؟ فقال: غلمانى جاؤونى به، فأمر أن يجىء بهم إليه، فمضى، وأمرهم بالهرب، وعاد فقال: لم أجدهم، فقال للسوادي: خذ مملوكى هذا قد وهبته لك عوضاً عن بطيخك، ويحضر الذين أخذوه، والله لئن أطلقته لأضربن عنقك. فأخذه السوادي، فاشترى الغلام نفسه منه بثلاثمائة دينار، فعاد السوادى إلى السلطان،

وقد قال: قد بعته نفسه بثلاثمائة دينار، فقال: أرضيت بذلك؟ قال: نعم ! قال: امض مصاحباً .

وقال عبد السميع بن داود العباسى : شاهدت ملكشاه وقد أتاه رجلان من أرض العراق السفلى، من قرية الحدادية، يعرفان بابنى غزال، فلقياه، فوقف لها، فقالا : إن مقطعنا الأمير خمارتكين قد صادرنا بألف وستمائة دينار، وقد كسر ثنيتى أحدنا، وأراهما السلطان، وقد قصدناك لتقتص لنا منه، فإن أخذت بحقنا كما أوجب الله عليك، وإلا فالله يحكم بيننا .

قال فرأيت السلطان وقد نزل عن دابته وقال : ليمسك كل واحد منكما بطرف كمى، واسحبانى إلى خواجه حسن، يعنى نظام الملك، فامتنعا من ذلك واعتذرا، فأقسم غليهما إلا فعلاً، فأخذ كل واحد منهما بكم من كميه ومشى معهما إلى نظام الملك، فبلغه الخبر، فخرج مسرعاً، فلقيه وقبل الأرض، وقال : يا سلطان العالم ! ما حملك على هذا ؟ فقال : كيف يكون حالى غداً عند الله إذا طولبت بحقوق المسلمين، وقد قلدتك هذا الأمر لتكفينى مثل هذا الموقف، فإن نال الرعية أذى فأنت المطالب، فانظر لى ولنفسك .

فقبل الأرض، ومشى فى خدمته، وعاد من وقته، وكتب بعزل الأمير خمارتكين عن إقطاعه، ورد المال عليهما، وأعطاهما مائة دينار من عنده، وأمرهما بإثبات البينة أنه قلع ثنيتيه ليقلع عوضهما، فرضيا وانصرفا .

وقيل إنه ورد بغداد ثلاث دفعات، فخافه الناس من غلاء الأسعار، وتعدى الجند، فكانت الأسعار أرخص منها قبل قدومه، وكان الناس يخترقون عساكره ليلاً ونهاراً، فلا يخافون أحداً، ولم يتعد عليهم أحد، وأسقط المكوس والمؤن من جميع البلاد، وعمر الطرق، والقناطر، والربط التى فى المفاوز، وحفر الأنهار الخراب، وعمر الجامع ببغداد، وعمل المصانع بطريق مكة، وبنى البلد بأصبهان، وبنى منارة القرون بالسبيعى بطرق مكة، وبنى مثلها بما وراء النهر، واصطاد مرة صيداً كثيراً، فأمر بعده، فكان عشرة آلاف رأس، فأمر بصدقة عشرة آلاف

دينار، وقال : إننى خائف من الله تعالى كيف أزهقت أرواح هذه الحيوانات بغير ضرورة ولا مأكلة، وفرق من الثياب والأموال بين أصحابه مالا يحصى، وصار بعد ذلك كلما صاد شيئاً تصدق بعدده دنانير، وهذا فعل من يحاسب نفسه على حركاته وسكناته، وقد أكثر الشعراء مرائيه أيضاً .

وقيل إن بعض أمراء السلطان كان نازلاً بهراة مع بعض العلماء اسمه عبد الرحمن فى داره، فقال يوماً ذلك الأمير للسلطان، وهو سكران : إن عبد الرحمن يشرب الخمر، ويعبد الأصنام من دون الله تعالى، ويحلل الحرام، فلم يجبه ملكشاه، فلما كان الغد ذلك الأمير، فأخذ السلطان السيف، وقال له : اصدقنى عن فلان، وإلا قتلتك ! فطلب منه الأمان ، فأمنه، فقال : إن عبد الرحمن له دار حسناء، وزوجة جميلة، فأردت أن تقتله فأفوز بداره وزوجته، فأبعد السلطان، وشكر الله تعالى على التوقف عن قبول سعايته، وتصدق بأموال جليلة المقدار .

ثم دخلت سنة خمسمائة

ذكر وفاة يوسف بن تاشفين وملك ابنه على

فى هذه السنة توفى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، ملك الغرب والأندلس، وكان حسن السيرة، خيراً، عادلاً، يميل إلى أهل الدين والعلم، ويكرمهم، ويصدر عن رأيهم، ولما ملك الأندلس، على ما ذكرناه، جمع الفقهاء وأحسن إليهم، فقالوا له : ينبغى أن تكون ولايتك من الخليفة لتجب طاعتك على الكوفة، فأرسل إلى الخليفة المستظهر بالله، أمير المؤمنين، رسولاً ومعه هدية كثيرة، وكتب معه كتاباً يذكر ما فتح الله من بلاد الفرنج، وما اعتمده من نصرة الإسلام، ويطلب تقليداً بولاية البلاد، فكتب له تقليد من ديوان الخليفة بما أراد، ولقب أمير المسلمين، وسيرت إليه الخلع، فسر بذلك سروراً كثيراً، وهوالذى بنى مدينة مراكش للمرابطين، وبقى على ملكه إلى سنة خمسمائة، فتوفى وملك بعده البلاد ولده على بن يوسف، وتلقب أيضاً أمير المسلمين، فازداد فى إكرام العلماء والوقوف عند إشارتهم، وكان إذا وعظه أحدهم خشع عند استماع الموعظة، ولان قلبه لها، وظهر ذلك عليه.

وكان يوسف بن تاشفين حليماً، كريماً، ديناً، خيراً، يحب أهل العلم والدين، ويحكمهم فى بلاده، وكان يحب العفووالصفح عن الذنوب العظام، فمن ذلك أن ثلاثة نفر اجتمعوا، فتمنى أحدهم ألف دينار يتجر بها، وتمنى الآخر عملا يعمل فيه لأمير المسلمين، وتمنى الآخر زوجته النفزاوية، وكانت من أحسن النساء، ولها الحكم فى بلاده، فبلغه الخبر، فأحضرهم، وأعطى متمنى المال ألف دينار، واستعمل الآخر، وقال للذى تمنى زوجته: يا جاهل ! ما حملك على هذا الذى لا تصل إليه ؟ ثم أرسله إليها، فتركته فى خيمة ثلاثة أيام تحمل إليه فى كل يوم طعاماً واحداً، ثم أحضرته وقالت له: ما أكلت هذه الأيام ؟ قال : طعاماً واحداً، فقالت : كل النساء شىء واحد، وأمرت له بمال وكسوة وأطلقته .

وذكر قتل فخر الملك بن نظام الملك،والحرب بين عبادة وخفاجة،وملك قلج أرسلان الموصل، وقتله وملك جاولى لها، وذكر أحوال الباطنية بأصبهان وقتل ابن عطاش، ووزارة أحمد بن نظام الملك.

ثم دخلت سنة إحدى وخمسمائة

ذكر قتل صدقة بن مزيد، ووفاة تميم بن المعز صاحب إفريقيا وولاية ابنه يحيى، وملكه قلعة قليبية، وذكر قدوم ابن عمار بغداد مستقرا.

ثم دخلت سنة اثنتى عشرة وخمسمائة

- ذكر ما فعله السلطان محمود بالعراق وولاية البرسقى شحنكية بغداد

ذكر وفاة المستظهر بالله

فى هذه السنة سادس عشر شهر ربيع الآخر، توفى المستظهر بالله أبوالعباس أحمد بن المقتدى بأمر الله، وكان مرضه التراقى، وكان عمره إحدى وأربعين سنة وستة أشهر وستة أيام، وخلافته أربعاً وعشرين سنة وثلاثة أشهر وأحد عشر يوماً، ووزر له عميد الدولة أبومنصور بن جهير، وسديد الملك أبوالمعالى المفضل

بن عبد الرزاق الأصبهانى، وزعيم الرؤساء أبوالقاسم ابن جهير، ومجد أبوالمعالى هبة الله بن عبد المطلب، ونظام الدين أبومنصور الحسين بن محمد، وناب عن الوزارة أمين الدولة أبوسعد بن الموصلايا، وقاضى القضاة أبوالحسن على بن الدامغانى، ومضى فى أيامه، ثلاثة سلاطين خطب لهم بالحضرة، وهم : تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان، والسلطان بركيارق ومحمد ابنا ملكشاه .

ومن غريب الاتفاق أنه لما توفى السلطان ألب أرسلان توفى بعده القائم بأمر الله، ولما توفى السلطان ملكشاه توفى بعده المقتدى بأمر الله، ولما توفى السلطان محمد توفى بعده المستظهر بالله .

ذكر بعض أخلاقه وسيرته

كان رضى الله عنه، لين الجانب، كريم الخلاق، يحب اصطناع الناس، ويفعل الخير، ويسارع إلى أعمال البر والمثوبات، مشكور المساعى لا يرد مكرمة تطلب منه .

وكان كثير الوثوق بمن يوليه، غير مصغ إلى ساع، ولا ملتفت إلى قوله، ولم يعرف منه تلون، وانحلال عزم، بأقوال أصحاب الأغراض .

وكانت أيامه سرور للرعية، فكأنها من حسنها أعياد، وكان إذا بلغه ذلك فرح به وسره، وإذا تعرض سلطان أونائب له الأذى أحد بالغ فى إنكار ذلك والزجر عنه.

وكان حسن الخط، جيد التوقيعات، لا يقاربه فيها أحد، يدل على فضل غزير، وعلم واسع، ولما توفى صلى عليه ابنه المسترشد بالله، وكبر أربعاً، ودفن فى حجرة له كان يألفها . ومن شعره قوله :

أذاب حر الهوى فى القلب ما جمدا ... لما مددت إلى رسم الوداع يدا

وكيف أسلك نهج الاصطبار وقد ... أرى طرائق فى مهوى الهوى قددا

قد أخلف الوعد بدر قد شغفت به ... من بعد ما قد وفى دهرى بما وعدا

إن كنت أنقض الحب فى خلدى ... من بعد هذا، فلا عاينته أبدا

ذكر خلافة الإمام المسترشد بالله،ووفاة ملك الفرنج وما كان بين الفرنج والمسلمين.

ثم دخلت سنة سبع عشرة وخمسمائة

ذكر مسير المسترشد بالله لحرب دبيس،وملك الفرنج حصن الأثارب.

ذكر الحرب بين المغاربة وعسكر مصر

فى هذه السنة وصل جمع كثير من لواتة من الغرب إلى ديار مصر، فأفسدوا فيها ونهبوها، وعملوا أعمالاً شنيعة، فجمع المأمون بن البطائحى، الذى وزر بمصر بعد الأفضل، عسكر مصر، وسار إليهم فقاتلهم فهزمهم، وأسر منهم وقتل خلقاً كثيراً، وقرر عليهم خرجاً معلوماً كل سنة يقومون به، وعادوا إلى بلادهم، وعاد المأمون إلى مصر مظفراً منصوراً .

ثم دخلت سنة ست وعشرين وخمسمائة

ـ ذكر قتل أبى على وزير الحافظ ووزارة يانس وموته

فى هذه السنة، فى المحرم، قتل الأفضل أبوعلى بن الأفضل بن بدر الجمالى وزير الحافظ لدين الله العلوى، صاحب مصر .

وسبب قتله : أنه قد حجر على الحافظ، ومنعه أن يحكم فى شىء من الأمور، قليل أوجليل، وأخذ ما فى قصر الخلافة إلى داره، وأسقط من الدعاء ذكر إسماعيل الذى هو جدهم، وإليه تنسب الإسماعيلية، وهو ابن جعفر بن محمد الصادق، وأسقط من الأذان حى على خير العمل، ولم يخطب للحافظ، وأمر الخطباء أن يخطبوا له بألقاب كتبها لهم، وهى : السيد الأفضل الأجل، سيد مماليك أرباب الدول، والمحامى عن حوزة الدين، وناشر جناح العدل على المسلمين الأقربين والأبعدين، ناصر إمام الحق فى حالتى غيبته وحضوره، والقائم بنصرته بماضى سيفه وصائب رأيه وتدبيره، أمين الله على عباده، وهادى القضاة إلى اتباع شرع الحق واعتماده، ومرشد دعاة المؤمنين بواضح بيانه وإرشاده، مولى النعم، ورافع الجور عن الأمم، ومالك فضيلتى السيف والقلم، أبوعلى أحمد السيد الأجل الأفضل، شاهنشاه أمير الجيوش .

وكان إمامى المذهب، يكثر ذم الآمر، والتناقص به، فنفرت منه شيعة العلويين ومماليكهم وكرهوه، وعزموا على قتله، فخرج فى العشرين من المحرم من هذه السنة إلى الميدان يلعب بالكرة مع أصحابه، فكمن له جماعة منهم مملوك فرنجى كان للحافظ، فخرجوا عليه، فحمل الفرنجى عليه، فطعنه فقتله، وحزوا رأسه، وخرج الحافظ من الخزانة التى كان فيها، ونهب الناس دار أبى على، وأخذ منها ما لا يحصى، وركب الناس والحافظ إلى داره، فأخذ ما بقى فيها وحمله إلى القصر.

وبويع يومئذ الحافظ بالخلافة، وكان قد بويع له بولاية العهد، وأن يكون كافلاً لحمل إن كان للآمر، فلما بويع بالخلافة استوزر أبا الفتح يانس الحافظى فى ذلك اليوم بعينه، ولقب أمير الجيوش، وكان عظيم الهيبة، بعيد الغور، كثير الشر فخافه الحافظ على نفسه، وتخيل منه يانس، فاحتاط، ولم يأكل عنده شيئاً، ولا شرب، فاحتال عليه الحافظ بأن وضع له فراشه فى بيت الطهارة ماء مسموماً، فاغتسل به، فوقع الدود فى سفله، وقيل له: متى قمت من مكانك هلكت، فكان يعالج بأن يجعل اللحم الطرى فى المحل، فيعلق به الدود فيخرج ويجعل عوضه، فقارب الشفاء، فقيل للحافظ: إنه قد صلح، وإن تحرك هلك، فركب إليه الحافظ كأنه يعوده، فقام له ومشى إلى بين يديه، وقعد الحافظ عنده، ثم خرج من عنده، فتوفى من ليلته، وكان موته فى السادس والعشرين من ذى الحجة من هذه السنة.

ولما مات يانس استوزر الحافظ ابنه حسناً، وخطب له بولاية العهد، وسيرد ذكر قتله سنة تسع وعشرين وخمسمائة .

وإنما ذكرت ألقاب أبى على تعجباً منها، ومن حماقة ذلك الرجل، فإن وزير صاحب مصر وحدها إذا كان هكذا فينبغى أن يكون وزير السلاطين السلجوقية كنظام الملك وغيره يدعون الربوبية، على أن تربة مصر هكذا تولد، ألا ترى إلى فرعون يقول: «أنا ربكم الأعلى»، وإلى أشياء أخر لا نطيل ذكرها .

ذكر الحرب بين السلطان مسعود وعمه السلطان سنجر، ومسير عماد الدين زنكى إلى بغداد.

ثم دخلت سنة سبع وعشرين وخمسمائة

ذكر ملك شمس الملوك بانياس

فى هذه السنة، فى صفر، ملك شمس الملوك، صاحب دمشق، حصن بانياس من الفرنج .

وسبب ذلك : أن الفرنج استضعفوا وطمعوا فيه، وعزموا على نقض الهدنة التى بينهم، فتعرضوا إلى أموال جماعة من تجار دمشق بمدينة بيروت وأخذوها، فشكا التجار إلى شمس الملوك، فراسل فى إعادة ما أخذوه، وكرر القول فيه، فلم يردوا شيئاً، فحمله الأنفة من هذه الحالة، والغيظ، على أن جمع عسكره وتأهب، ولا يعلم أحد أين يريد .

ثم سار، وسبق خبره، أواخر المحرم من هذه السنة، ونزل على بانياس أول صفر، وقاتلها لساعة، وزحف إليها زحفاً متتابعاً، وكانوا غير متأهبين، وليس فيها من المقاتلة من يقوم بها وقرب من سور المدينة، وترجل بنفسه، وتبعه الناس من الفارس والراجل، ووصلوا إلى السور فنقبوه ودخلوا البلد عنوةً، والتجأ من كان من جند الفرنج إلى الحصن وتحصنوا به، فقتل من البلد كثير من الفرنج، وأسر كثير، ونهبت الأموال، وقاتل القلعة قتالاً شديداً ليلاً ونهاراً، فملها رابع صفر بالأمان، وعاد إلى دمشق فوصلها سادسه .

وأما الفرنج فإنهم لما سمعوا نزوله على بانياس شرعوا يجمعون عسكراً يسيرون به إليه، فأتاهم خبر فتحها، فبطل ما كانوا فيه.

ذكر حرب بين المسلمين والفرنج

فى هذه السنة، فى صفر، سار ملك الفرنج، صاحب البيت المقدس، فى خيالته إلى أطراف أعمال حلب، فتوجه إليه الأمير أسوار، النائب بحلب، فى من عنده من العسكر، انضاف إليه كثير من التركمان، فاقتتلوا عند قنسرين، فقتل من الطائفتين جماعة كثيرة، انهزم المسلمون إلى حلب، وتردد ملك الفرنج فى أعمال حلب، فعاد أسوار وخرج إليه فيمن معه من العسكر، فوقع على طائفة منهم،

فأوقع بهم، وأكثر القتل فيهم والأسر، فعاد من سلم منهزماً إلى بلادهم، وانجبر ذلك المصاب بهذا الظفر، دخل أسوار حلب، ومعه الأسرى، ورءوس القتلى، وكان يوماً مشهوداً .

ثم إن طائفة من الفرنج من الرها قصدوا أعمال حلب للغارة عليها، فسمع بهم أسوار، فخرج إليهم هو والأمير حسان البعلبكى، فأوقعوا بهم، وقتلوهم عن آخرهم فى بلد الشمال، وأسروا من لم يقتل، ورجعوا إلى حلب سالمين .

ذكر عود السلطان مسعود إلى السلطنة وانهزام الملك طغرل

قد تقدم ذكر انهزام السلطان مسعود من عمه السلطان سنجر، وعوده إلى كنجة، وولاية الملك طغرل السلطنة، وأنه تحارب هو والملك داود ابن أخيه محمود، وانهزم داود ودخوله بغداد، فلما بلغ السلطان مسعود انهزام داود وقصده بغداد، سار هوإلى بغداد أيضاً، فلما قاربها لقيه داود، وترجل له وخدمه، ودخلا بغداد .

ونزول مسعود بدار السلطنة فى صفر من هذه السنة، وخاطب فى الخطبة له، فأجيب إلى ذلك، وخطب له ولداود بعده، وخلع عليهما، ودخلا إلى الخليفة فأكرمهما، ورفع الاتفاق على مسير مسعود وداود إلى أذربيجان، وأن يرسل الخليفة معهما عسكراً، فساروا، فلما وصلوا إلى مراغة حمل آقسنقر الأحمديلى مالاً كثيراً، وإقامة عظيمة، وملك مسعود سائر بلاد أذربيجان، وانهزم من بها من الأمراء مثل قراسنقر وغيره من بين بلاد أذربيجان، وانهزم من بها من الأمراء مثل قراسنقر وغيره من بين يديه، وتحصن منه كثير منهم بمدينة أردبيل، فقصدهم وحصرهم بها، وقتل منهم مقتلة عظيمة، وانهزم الباقون .

ثم سار بعد ذلك إلى همذان لمحاربة أخيه الملك طغرل، فلما سمع طغرل بقربه برز إلى لقائه، فاقتتلوا إلى الظهر، ثم انهزم طغرل، وقصد الرى، واستولى السلطان مسعود على همذان فى شعبان، ولما استقر مسعود بهمذان قتل آقسنقر الأحمديلى، قتله الباطنية، فقتل إن السلطان مسعود وضع عليه من قتله .

ثم إن طغرل لما بلغ قم عاد إلى أصبهان ودخلها، وأراد التحصن بها فسار إليه أخوه مسعود ليحاصره بها، فرأى طغرل أن أهل أصبهان لا يطاوعونه على الحصار، فرحل عنهم إلى بلاد فارس، استولى مسعود على أصبهان، وفرح أهلها به وسار من أصبهان نحوفارس يقتص أثر أخيه طغرل، فوصل إلى موضع بقرب البيضاء، فاستأمن إليه أمير من أمراء أخيه معه أربعمائة فارس، فأمنه، فخاف طغرل من عسكره أن ينحازوا إلى أخيه، فانهزم من بين يديه، وقصد الرى فى رمضان، وقتل وزيره أبوالقاسم الأنساباذى فى الطريق، فى شوال، قتله غلمان الأمير شيركير الذى سعى فى قتله، كما تقدم ذكره .

وسار السلطان مسعود يتبعه، فلحقه بموضع يقال له ذكراور، فوقع بينهما المصاف هناك، فلما اشتبكت الحرب انهزم الملك طغرل، فوقع عسكره فى أرض قد نضب عنها الماء، وهى وحل، فأسر منهم جماعة من الأمراء منهم : الحاجب تنكر، وابن بغرا، فأطلقهم السلطان مسعود، ولم يقتل فى هذا المصاف إلا نفر يسير ورجع السلطان مسعود إلى همذان .

ثم ذكر حصر المسترشد بالله الموصل، وذكر ملك شمس الملوك مدينة حماة، وهزيمة صاحب طرابلس الفرنجى.

وهنا ينتهى بنا الجزء العاشر

١١

ونبدأ الآن مع أحداث الجزء الحادى عشر والتى تبدأ من سنة ثمان وعشرين وخمسمائة وتنتهى بأحداث سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة.

ثم دخلت سنة ثمان وعشرين وخمسمائة

ذكر ملك شمس الملوك شقيق تيرون ونهبه بلد الفرنج،ذكر عودالملك طغرل إلى الجبل وانهزام الملك مسعود، وحصر أتابك زنكى آمد وملكه قلعة الصور،وملك قلاع الهكارية وكواشى.

ثم دخلت سنة تسع وعشرين وخمسمائة

ذكر وفاةالملك طغرل وملك مسعود بلد الجبل، وقتل شمس الملوك أخيه، وحصر أتابك زنكى دمشق، وقتل حسن بن الحافظ، ومسير المسترشد إلى حرب السلطان مسعود وانهزامه.

ذكر قتل المسترشد بالله وخلافة الراشد بالله

لما قبض المسترشد بالله أبومنصور بن الفضل بن المستظهر بالله أبى العباس أحمد، على ما ذكرناه، أنزله السلطان مسعود فى خيمة، ووكل به من يحفظه، وقام بما يجب من الخدمة، وترددت الرسل بينهما فى الصلح وتقرير القواعد على مال يؤديه الخليفة، وأن لا يعود يجمع العساكر وأن لا يخرج من داره، فأجاب السلطان إلى ذلك، وأركب الخليفة وحمل الغاشية بين يديه ولم يبق إلا أن يعود إلى بغداد. فوصل الخبر أن الأمير قران خوان قد قدم رسولاً من السلطان سنجر، فتأخر مسير المسترشد لذلك، وخرج الناس والسلطان مسعود

إلى لقائه، وفارق الخليفة بعض من كان موكلاً به، وكانت خيمته منفردة عن العسكر، فقصده أربعة وعشرون رجلاً من الباطنية ودخلوا عليه فقتلوه، وجرحوه ما يزيد على عشرين جراحة، ومثلوا به فجدعوا أنفه وأذنيه وتركوه عرياناً، وقتل معه نفر من أصحابه منهم أبوعبد الله بن سكينة، وكان قتله يوم الخميس سابع عشر ذى القعدة على باب مراغة، وبقى حتى دفنه أهل مراغة .

وأما الباطنية فقتل منهم عشرة، وقيل : بل قتلوا جميعهم، والله أعلم .

وكان عمره لما قتل ثلاثاً وأربعين سنة وثلاثة أشهر، وكانت خلافته سبع عشرة سنة وستة أشهر وعشرين يوماً، وأمه أم ولد، وكان شهماً شجاعاً، كثير الإقدام، بعيد الهمة، وأخباره المذكورة تدل على ما ذكرناه . وكان فصيحاً بليغاً حسن الخط، ولقد رأيت خطه فى غاية الجودة ورأيت أجوبته على الرقاع من أحسن ما يكتب وأفصحه .

ولما قتل المسترشد بالله بويع ولده أبوجعفر المنصور، ولقب الراشد بالله، وكان المسترشد قد بايع له بولاية العهد فى حياته، وجددت له البيعة بعد قتله يوم الإثنين السابع والعشرين من ذى القعدة، وكتب السلطان مسعود إلى بك أبه الشحنة ببغداد فبايع له، وحضر الناس البيعة، وحضر بيعته أحد وعشرون رجلاً من أولاد الخلفاء، وبايع له الشيخ أبوالنجيب، ووعظه، وبالغ فى الموعظة . وأما جمال الدولة إقبال فإنه كان ببغداد فى طائفة من العسكر، فلما جرت هذه الحادثة عبر إلى الجانب الغربى، وأصعد إلى تكريت وراسل مجاهد الدين بهروز، وحلفه وصعد إليه بالقلعة .

ذكر مسير السلطان سنجر إلى غزنة وعوده منها، وقتل دبيس بن صدقة، واستيلاء الفرنج على جزيرة جربة، وملكهم حصن روطة من بلاد الأندلس.

ثم دخلت سنة ثلاثين وخمسمائة

ذكر الحرب بين عسكر الراشد وعسكر السلطان، وملك شهاب الدين حمص، والفتنة بدمشق، وغزاة العسكر الأتابكى إلى بلاد الأفرنج، ووصول السلطان مسعود إلى العراق.

ذكر خلافة المقتفى لأمر الله

لما قطعت خطبة الراشد بالله استشار السلطان جماعة من أعيان بغداد منهم الوزير على بن طراد، وصاحب المخزن، وغيرهما، فيمن يصلح أن يلى الخلافة. فقال الوزير : أحد عمومة الراشد، وهورجل صالح. قال: من هوقال : من لا أقدر أن أفصح باسمه لئلا يقتل، فتقدم إليهم بعمل محضر فى خلع الراشد، فعملوا محضراً ذكروا فيه ما ارتكبه من أخذ الأموال وأشياء تقدح فى الإمامة ثم كتبوا فتوى: ما يقول العلماء فيمن هذه صفته، هل يصلح للإمامة أم لا ؟ فأفتوا أن من هذه صفته لا يصلح أن يكون إماماً. فلما فرغوا من ذلك أحضروا القاضى أبا طاهر بن الكرخى، فشهدوا عنده بذلك، فحكم بفسقه وخلعه، وحكم بعده غيره، ولم يكن قاضى القضاة حاضراً ليحكم فإنه كان عند أتابك زنكى بالموصل.

ثم إن شرف الدين ذكر للسلطان أبا عبد الله الحسين، وقيل محمد ابن المستظهر بالله، ودينه، وعقله، وعفته، ولين جانبه، فحضر السلطان دار الخلافة ومعه الوزير شرف الدين الزينبى، وصاحب المخزن ابن البقشلامى وغيرهما، وأمر بإحضار الأمير أبى عبد الله بن المستظهر من المكان الذى يسكن فيه، فأحضر وأجلس فى المثمنة، ودخل السلطان إليه والوزير شرف الدين وتحالفا، وقرر الوزير القواعد بينهما، وخرج السلطان من عنده وحضر الأمراء وأرباب المناصب والقضاء والفقهاء وبايعوا ثامن عشر ذى الحجة ولقب المقتفى لأمر الله.

قيل سبب اللقب أنه رأى النبى، صلى الله عليه وسلم، قبل أن يلى الخلافة بستة أيام، وهويقول له : إن هذا الأمر يصير إليك، فاقتف بى فلقب بذلك، ولما استخلف سيرت الكتب الحكمية بخلافته إلى سائر الأمصار واستوزر شرف الدين على بن طراد الزينبى فأرسل إلى الموصل، وأحضر قاضى القضاة أبا القاسم على بن الحسين الزينبى عم الوزير، وأعاده إلى منصبه، وقرر كمال الدين حمزة بن طلحة على منصبه صاحب المخزن، وجرت الأمور على أحسن نظام.

وبلغنى أن السلطان مسعوداً أرسل إلى الخليفة المقتفى لأمر الله فى تقرير إقطاع يكون لخاصته، فكان جوابه : إن فى الدار ثمانين بغلاً تنقل الماء من دجلة، فلينظر السلطان ما يحتاج إليه من شرب هذا الماء ويقوم به، فتقررت القاعدة على أن يجعل له ما كان للمستظهر بالله، فأجاب إلى ذلك .

وقال السلطان لما بلغه قوله : لقد جعلنا فى الخلافة رجلاً عظيماً نسأل .

والمقتفى عم الراشد هو والمسترشد ابنا المستظهر، وليا الخلافة، وكذلك السفاح والمنصور أخوان، وكذلك المهدى والرشيد أخوان، وكذلك الواثق والمتوكل أخوان، وأما ثلاثة إخوة ولوا الخلافة فالأمين والمأمون والمعتصم أولاد الرشيد، والمكتفى والمقتدر والقاهر بنوالمعتضد، والراضى والمتقى والمطيع بنوالمقتدر، وأما أربعة إخوة ولوها فالوليد وسليمان ويزيد وهشام بنو عبدالملك بن مروان لا يعرف غيرهم.

وحين استقرت الخلافة للمقتفى أرسل إليه الراشد بالله رسولاً من الموصل مع رسول أتابك زنكى، فأما رسول الراشد فلم تسمع رسالته، وأما رسول أتابك زنكى فكان كمال الدين محمد بن عبد الله الشهرزوى، فأحضر فى الديوان وسمعت رسالته، وحكى لى والدى عنه قال : لما حضرت الديوان قيل لى : تبايع أمير المؤمنين؟ فقلت: أمير المؤمنين عندنا فى الموصل وله فى أعناق الخلق بيعة متقدمة. وطال الكلام وعدت إلى منزلى .

فلما كان الليل جاءتنى امرأة عجوز سراً، واجتمعت بى وأبلغتنى رسالة عن المقتفى لأمر الله مضمونها عتابى على ما قلته واستنزالى عنه . فقلت : غداً أخدم خدمة يظهر أثرها .

فلما كان الغد أحضرت الديوان وقيل لى فى معنى البيعة، فقلت : أنا رجل فقيه قاض، ولا يجوز لى أن أبايع إلا بعد أن يثبت عندى خلع المتقدم . فأحضروا الشهود وشهدوا عندى فى الديوان بما أوجب خلعه، فقلت : هذا ثابت لا كلام فيه، ولكن لا بد لنا فى هذه الدعوة من نصيب، لأن أمير المؤمنين قد حصل له خلافة الله فى أرضه، والسلطان، فقد استراح ممن كان يقصده، ونحن بأى شىء

نعود؟ فرفع الأمر إلى الخليفة، فأمر أن يعطى أتابك زنكى صريفين ودرب هرون وحربى ملكاً، وهى من خاص الخليفة، ويزداد فى ألقابه، وقال: هذه قاعدة لم يسمح بها لأحد من زعماء الأطراف أن يكون لهم نصيب فى خاص الخليفة.

فبايعت وعدت مقضى الحوائج قد حصل لى جملة صالحة من المال والتحف. وكانت بيعة وخطب للمقتفى فى الموصل فى رجب سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة، ولما عاد كمال الدين بن الشهرزوزى سير على يده المحضر الذى عمل بخلع الراشد، فحكم به قاضى القضاة الزينى بالموصل، وكان عند أتابك زنكى.

ثم دخلت سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة

ذكر تفرق العساكر عن السلطان مسعود، وعزل بهرام عن الوزارة،وفتح المسلمين حصن وادى ابن الأحمر من الفرنج، وحصار زنكى مدينة حمص،وملك زنكى قلعة بعرين وهزيمة الفرنج،وخروج ملك الروم من بلاد الشام.

ثم دخلت سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة

ذكر ملك أتابك زنكى حمص وغيرها .

ذكر وصول ملك الروم إلى الشام وملكه بزاعة وما فعله بالمسلمين

قد ذكرنا سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة خروج ملك الروم من بلاده واشتغاله بالفرنج وابن ليون، فلما دخلت هذه السنة وصل إلى الشام وخافه الناس خوفاً عظيماً، وقصد بزاعة فحصرها، وهى مدينة لطيفة على ستة فراسخ من حلب، فمضى جماعة من أعيان حلب إلى أتابك زنكى وهويحاصر حمص، فاستغاثوا به واستنصروه، فسير معهم كثيراً من العساكر، فدخلوا إلى حلب ليمنعوها من الروم إن حصروها .

ثم إن ملك الروم قاتل بزاعة، ونصب عليها منجنيقات، وضيق على من بها فملكها بالأمان فى الخامس والعشرين من رجب، ثم غدر بأهلها فقتل منهم وأسر وسبى . وكان عدة من جرح فيها من أهلها خمسة آلاف وثمانمائة نفس، وتنصر قاضيها وجماعة من أعيانها نحواربع مائة نفس .

وأقام الروم بعد ملكها عشرة أيام يتطلبون من اختفى، فقيل لهم : إن جمعاً كثيراً من أهل هذه الناحية قد نزلوا إلى المغارات، فدخنوا عليهم، وهلكوا فى المغاور .

ثم رحلوا إلى حلب فنزلوا على فريق ومعهم الفرنج الذين بساحل الشام، وزحفوا إلى حلب من الغد فى خيلهم ورجلهم، فخرج إليهم أحداث حلب، فقاتلوهم قتالاً شديداً، فقتل من الروم وجرح خلق كثير، وقتل بطريق جليل القدر عندهم، وعادوا خاسرين، وأقاموا ثلاثة أيام، فلم يروا فيها طمعاً، فرحلوا إلى قلعة الأثارب، فخاف من فيها من المسلمين، فهربوا عنها تاسع شعبان، فملكها الروم وتركوا فيها سبايا بزاعة والأسرى ومعهم جمع من الروم يحفظونهم ويحمون القلعة وساروا، فلما سمع الأمير أسوار بحلب ذلك رحل فيمن عنده من العسكر إلى الأثارب، فأوقع بمن فيها من الروم، فقتلهم، وخلص الأسرى والسبى وعاد إلى حلب .

وأما عماد الدين زنكى فإنه فارق حمص وسار إلى سلمية فنازلها، وعبر ثقله الفرات إلى الرقة، وأقام جريدة ليتبع الروم ويقطع عنهم الميرة .

وأما الروم فإنهم قصدوا قلعة شيزر، فإنها من أمنع الحصون، وإنما قصدوها لأنها لم تكن لزنكى، فلا يكون له فى حفظها الاهتمام العظيم، وإنما كانت للأمير أبى العساكر سلطان بن على بن مقلد بن نصر بن منقذ الكنانى، فنازلوها وحصروها، ونصبوا عليها ثمانية عشر منجنيقاً، فأرسل صاحبها إلى زنكى يستنجده، فسار إليه فنزل على نهر العاصى بالقرب منها، بينها وبين حماة، وكان يركب كل يوم ويسير إلى شيزر هو وعساكره ويقفون بحيث يراهم الروم، ويرسل السرايا فتأخذ من ظفرت به منهم .

ثم إنه أرسل ملك الروم يقول له: إنكم قد تحصنتم منى بهذه الجبال، فانزلوا منها إلى الصحراء حتى نلتقى، فإن ظفرت بكم أرحت المسلمين منكم، وإن ظفرتم استرحتم وأخذتم شيزر وغيرها. ولم يكن له بهم قوة وإنما كان يرهبهم بهذا

القول وأشباهه، فأشار فرنج الشام على ملك الروم بمصافته، وهونوا أمره عليه، فلم يفعل، وقال : أتظنون أنه ليس له من العسكر إلا ما ترون ؟ إنما هو يريد أن تلقوه فيجيئه من نجدات المسلمين ما لا حد له .

وكان زنكى يرسل أيضاً إلى ملك الروم يوهمه بأن فرنج الشام خائفون منه، فلو فارق مكانه لتخلوا عنه، ويرسل إلى فرنج الشام يخوفهم من ملك الروم ويقول لهم: إن ملك بالشام حصناً واحداً ملك بلادكم جميعاً، فاستشعر كل من صاحبه، فرحل ملك الروم عنها فى رمضان، وكان مقامه عليها أربعة وعشرين يوماً، وترك المجانيق وآلات الحصار بحالها، فسار أتابك زنكى يتبع ساقه العسكر، فظفر بكثير ممن تخلف منهم، وأخذ جميع ما تركوه .

ولما كان الفرنج على بزاعة أرسل زنكى القاضى كمال الدين أبا الفضل محمد ابن عبد الله بن القاسم الشهرزورى إلى السلطان مسعود يستنجده، ويطلب العساكر، فمضى إلى بغداد، أنهى الحال إلى السلطان، وعرفه عاقبة الإهمال، وأنه ليس بينه وبين الروم إلا أن يملكوا حلب وينحدروا مع الفرات إلى بغداد، فلم يجد عنده حركة، فوضع إنساناً من أصحابه، يوم جمعة، فمضى إلى جامع القصر، ومعه جماعة من رنود العجم، وأمر أن يثور بهم إذا صعد الخطيب المنبر، ويصيح ويصيحوا معه : وا إسلاماه، وا دين محمداه ! ويشق ثيابه، ويرمى عمامته من رأسه، ويخرج إلى دار السلطان والناس معه يستغيثون كذلك، ووضع إنساناً آخر يفعل بجامع السلطان مثله .

فلما صعد الخطيب المنبر قام ذلك الرجل ولطم رأسه، وألقى عمامته وشق ثوبه، وأولئك معه، وصاحوا، فبكى الناس وتركوا الصلاة، ولعنوا السلطان، وساروا من الجامع يتبعون الشيخ إلى دار السلطان فوجدوا الناس فى جامع السلطان كذلك، وأحاط الناس بدار السلطان يستغيثون ويبكون، فخاف السلطان، فقال : أحضروا إلى ابن الشهرزورى، فأحضر، فقال كمال الدين : لقد خفت منه مما رأيت، فلما دخلت عليه قال لى: أى فتنة أثرت؟ فقلت : ما فعلت شيئاً. أنا كنت فى بيتى، وإنما الناس يغارون للدين والإسلام، ويخافون عاقبة هذا التوانى،

فاخرج إلى الناس ففرقهم عنا واحضر غداً واختر من العسكر من تريد، ففرقت الناس وعرفتهم ما أمر به من تجهيز العساكر وحضرت من الغد إلى الديوان، فجهزوا لى طائفة عظيمة من الجيش، فأرسلت إلى نصير الدين بالموصل أعرفه ذلك، وأخوفه من العسكر إن طرقوا البلاد، فإنهم يملكونها، فأعاد الجواب يقول: البلاد لا شك مأخوذة فلأن يأخذها المسلمون خير من أن يأخذها الكافرون .

فشرعنا فى التحميل للرحيل، وإذ قد وصلنى كتاب أتابك زنكى من الشام يخبر برحيل ملك الروم ويأمرنى بأن لا أستصحب من العسكر أحداً، فعرفت السلطان ذلك فقال : العسكر قد تجهز، ولا بد من الغزاة إلى الشام، فبعد الجهد وبذل الخدمة العظيمة له ولأصحابه أعاد العسكر .

ولما عاد ملك الروم عن شيزر مدح الشعراء أتابك زنكى وأكثروا، فمن ذلك ما قاله المسلم بن خضر بن قسيم الحموى من قصيدة أولها :

بعـــزمك أيهـــا الملك العظيم	تذل لك الصعـاب وتستـقـيم

ومنها :

ألـم تـر أن كـلـب الـروم لمـا	تبـيـن أنه الملك الرحـيـم
فـجـاء يطبق الفلوات خـيـلاً	كـأن الجـحـفل الليل البـهـيم
وقـد نزل الزمـان على رضـاه	ودان لخطبـة الخطب العظيم
فـحـين رمـيتـه بك فى خـمـيس	تـيـقـن أن ذلك لا يـدوم
وأبصـر فى المفـاضـة منك جـيشـاً	فـأحـرب لا يسـيـر ولا يقـيم
كـأنك فى العـجـاج شـهـاب نور	توقـد وهوشـيطان رجـيم
أراد بقـاء مـهـجـتـه فـولى	وليس سوى الحمـام له حـمـيم

وهى قصيدة طويلة، ومن عجيب ما يحكى أن ملك الروم لما عزم على حصر شيزر سمع من بها ذلك، فقال الأمير مرشد بن على أخو صاحبها وهو يفتح مصحفاً : اللهم بحق من أنزلته عليه إن قضيت بمجىء ملك الروم فاقبضنى إليك ! فتوفى بعد أيام .

وذكر الحرب بين السلطان مسعود والملك داود ومن معه من الأمراء.

ذكر قتل الراشد بالله

لما وصل الراشد بالله إلى همذان، وبها الملك داود وبوزابه ومن معهما من الأمراء والعساكر بعد انهزام السلطان مسعود وتفرق العساكر، على ما تقدم ذكره، سار الراشد بالله إلى خوزستان مع الملك داود، ومعهما خوارزم شاه، فقاربا الحويزة، فسار مسعود إلى بغداد ليمنعهم عن العراق، فعاد الملك داود إلى فارس وعاد خوارزم شاه إلى بلاده، وبقى الراشد وحده، فلما أيس من عساكر العجم سار إلى أصفهان .

فلما كان الخامس والعشرون من رمضان وثب عليه نفر من الخراسانية الذين كانوا فى خدمته، فقتلوه وهويريد القيلولة، وكان فى أعقاب مرض وقد برئ منه، ودفن بظاهر أصفهان بشهرستان، فركب من معه فقتلوا الباطنية .

ولما وصل الخبر إلى بغداد جلسوا للعزاء به فى بيت النوبة يوماً واحداً . وكان أبيض أشقر، حسن اللون مليح الصورة، مهيباً شديد القوة والبطش .

قال أبوبكر الصولى : الناس يقولون إن كل سادس يقوم بأمر الناس من أول الإسلام لا بد من أن يخلع، وربما قتل . قال فتأملت ذلك، فرأيته كما قيل، فإن أول من قام بأمر هذه الأمة محمد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ثم أبوبكر وعمر وعثمان وعلى والحسن، رضى الله عنهم، فخلع، ثم معاوية ويزيد ابنه، ومعاوية بن يزيد، ومروان، وعبد الملك ابن مروان، وعبد الله بن الزبير، فخلع وقتل، ثم الوليد بن عبد الملك، وأخوه سليمان، وعمر بن عبد العزيز، ويزيد، وهشام ابنا عبد الملك، والوليد بن يزيد ابن عبد الملك، فخلع وقتل، ثم لم ينتظم أمر بنى أميه، ثم ولى السفاح، والمنصور والمهدى والهادى والرشيد والأمين، فخلع وقتل، والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل والمنتصر والمستعين، فخلع وقتل، والمعتز والمهتدى والمعتمد والمعتضد والمكتفى، فخلع، ثم رد، ثم قتل، ثم القاهر والراضى والمتقى والمستكفى والمطيع والطائع . فخلع، ثم القادر والقائم والمقتدى والمستظهر

والمسترشد والراشد، فخلع وقتل . قلت : وفى هذا نظر لأن البيعة لابن الزبير كانت قبل البيعة لعبد الملك بن مروان، وكونه جعله بعده لا وجه له، والصولى إنما ذكر إلى أيام المقتدر بالله ومن بعده ذكره غيره .

ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة

ذكر الحرب بين السلطان سنجر وخوارزم شاه،

ذكر قتل محمود صاحب دمشق وملك أخيه محمد

فى هذه السنة، فى شوال، قتل شهاب الدين محمود بن تاج الملوك بورى بن طغدكين، صاحب دمشق، على فراشه غيلة، قتله ثلاثة من غلمانه هم خواصه وأقرب الناس منه فى خلوته وجلوته، وكانوا ينامون عنده ليلاً، فقتلوه وخرجوا من القلعة وهربوا، فنجا أحدهم وأخذ الآخران فصلبا .

وكتب من بدمشق إلى أخيه جمال الدين محمد بن بورى صاحب بعلبك، وهو بها، بصورة الحال واستدعوه ليملك بعد أخيه، فحضر فى أسرع وقت، فلما دخل البلد جلس للعزاء بأخيه، وحلف له الجند وأعيان الرعية، وسكن الناس، وفوض أمر دولته إلى معين الدين أنز، مملوك جده، وزاد فى علو مرتبته، وصار هوالجملة والتفصيل، وكان أنز خيراً عاقلاً حسن السيرة فجرت الأمور عنده على أحسن نظام .

ذكر ملك زنكى بعلبك

فى هذه السنة، فى ذى القعدة، سار عماد الدين أتابك زنكى بن آقسنقر إلى بعلبك، فحصرها ثم ملكها، وسبب ذلك أن محموداً صاحب دمشق لما قتل كانت والدته زمرد خاتون عند أتابك زنكى بحلب، قد تزوجها، فوجدت لقتل ولدها وجداً شديداً، وحزنت عليه، وأرسلت إلى زنكى وهوبديار الجزيرة تعرفه الحادثة، وتطلب منه أن يقصد دمشق ويطلب بثأر ولدها. فلما وقف على هذه الرسالة بادر فى الحال من غير توقف ولا تريث، وسار مجداً ليجعل ذلك طريقاً إلى ملك البلد، وعبر الفرات عازماً على قصد دمشق، فاحتاط من بها، واستعدوا،

واستكثروا من الذخائر، ولم يتركوا شيئاً مما يحتاجون إليه إلا وبذلوا الجهد فى تحصيله، وأقاموا ينتظرون وصوله إليهم، فتركهم وسار إلى بعلبك .

وقيل : كان السبب فى ملكها أنها كانت لمعين الدين أنز، كما ذكرناه، وكان له جارية يهواها، فلما تزوج أم جمال الدين سيرها إلى بعلبك، فلما سار زنكى إلى الشام عازماً على قصد دمشق سير إلى أنز يبذل له البذول العظيمة ليسلم إليه دمشق، فلم يفعل .

وسار أتابك إلى بعلبك فوصل إليها فى العشرين من ذى الحجة من السنة فنازلها فى عساكره، وضيق عليها، وجد فى محاربتها، ونصب عليها من المنجنيقات أربعة عشرة عدداً ترمى ليلاً ونهاراً، فأشرف من بها على الهلاك، وطلبوا الأمان، وسلموا إليه المدينة، وبقيت القلعة وبها جماعة من شجعان الأتراك، فقاتلهم، فلما أيسوا من معين ونصير طلبوا الأمان فأمنهم، فسلموا إليه القلعة، فلما نزلوا منها وملكها غدر بهم وأمر بصلبهم فصلبوا ولم ينج منهم إلا القليل، فاستقبح الناس ذلك من فعله واستعظموه، وخافه غيرهم وحذروه لاسيما أهل دمشق فإنهم قالوا : لوملكنا لفعل بنا مثل فعله بهؤلاء، فازدادوا نفوراً وجداً فى محاربته.

ولما ملك زنكى بعلبك أخذ الجارية التى كانت لمعين الدين أنز بها، فتزوجها بحلب، فلم تزل بها إلى أن قتل، فسيرها ابنه نور الدين محمود إلى معين الدين أنز، وهى كانت أعظم الأسباب فى المودة بين نور الدين وبين أنز، والله أعلم.

ثم دخلت سنة أربع وثلاثين وخمسمائة

ذكر حصر أتابك زنكى دمشق، وملك زنكى شهرزور وأعمالها.

ثم دخلت سنة خمس وثلاثين وخمسمائة

ذكر مسير جهاردانكى إلى العراق وما كان منه

فى هذه السنة أمر السلطان مسعود الأمير إسماعيل المعروف بجهاردانكى، والبقش كون خر، بالمسير إلى خوزستان وفارس وأخذهما من بوازبة، وأطلق لهما

نفقة على بغداد، فسارا فيمن معهما إلى بغداد، فمنعهم مجاهد الدين بهروز من دخولها، فلم يقبلوا منه، فأرسل إلى المعابر فخسفها وغرقها، وجد فى عمارة السور، وسد باب الظفرية وباب كلواذى، وأغلق باقى الأبواب، وعلق عليها السلاح وضرب الخيام للمقاتلة .

فلما علما بذلك عبرا بصرصر، وقصدا الحلة، فمنعا منها، فقصدا واسط، فخرج إليهما الأمير طرنطاى وتقاتلوا، فانهزم طرنطاى، ودخلوا واسط فنهبوها ونهبوا بلد فرسان والنعامية، وانضم طرنطاى إلى حماد بن أبى الخير صاحب البطيحة، ووافقهم عسكر البصرة، وفارق إسماعيل والبقش بعض عسكرهما وصارا مع طرنطاى فضعف أولئك، فسار إلى تستر واستشفع إسماعيل إلى السلطان فعفا عنه .

ذكر عدة حوادث

فى هذه السنة وصل رسول من السلطان سنجر، ومعه بردة النبى، صلى الله عليه وسلم، والقضيب، وكانا قد أخذا من المسترشد، فأعادهما الآن إلى المقتفى.

وفى هذه السنة توفى أتابك قراسنقر صاحب أذربيجان وأرانية بمدينة أردبيل، وكان مرضه السل، وطال به وكان من مماليك الملك طغرل، وسلمت أذربيجان وأرانية إلى الأمير جاولى الطغرلى. وكان قراسنقر علا شأنه على سلطانه وخافه السلطان .

وفيها كان بين أتابك زنكى وبين داود سقمان بن أرتق، صاحب حصن كيفا، حرب شديدة، وانهزم داود بن سقمان، وملك زنكى من بلاده قلعة بهمرد وأدركه الشتاء فعاد إلى الموصل .

وفيها ملك الإسماعيلية حصن مصيات بالشام، وكان واليه مملوكاً لبنى منقذ أصحاب شيزر، فاحتالوا عليه، ومكروا به حتى صعدوا إليه وقتلوه، وملكوا الحصن، وهو بأيديهم إلى الآن .

وفيها توفى سديد الدولة بن الأنبارى واستوزر الخليفة بعده نظام الدين أبا نصر محمد بن محمد بن جهير، وكان قبل ذلك أستاذ الدار .

وفيها توفى يرقش بازدار صاحب قزوين .

وفيها، فى رجب، ظفر ابن الدانشمند، صاحب ملطية وغيرها من تلك النواحى من الروم فقتلهم وغنم ما معهم .

وفيها، فى رمضان، سارت طائفة من الفرنج بالشام إلى عسقلان ليغيروا على أعمالها، وهى لصاحب مصر، فخرج إليهم العسكر الذى بعسقلان فقاتلهم، فظفر المسلمون وقتلوا من الفرنج كثيراً فعادوا منهزمين .

وفيها بنيت المدرسة الكمالية ببغداد، بناها كمال الدين أبوالفتوح بن طلحة صاحب المخزن، ولما فرغت درس فيها الشيخ أبوالحسن بن الخل، وحضره أرباب المناصب وسائر الفقهاء .

وفيها، فى رجب، مات القاضى أبوبكر بن محمد بن عبد الباقى الأنصارى، قاضى المارستان، عن نيف وتسعين سنة، وله الإسناد العالى فى الحديث، وكان عالماً بالمنطق والحساب والهيئة وغيرها من علوم الأوائل، وهوآخر من حدث فى الدنيا عن أبى إسحق البرمكى والقاضى أبى الطيب الطبرى وأبى طالب العشارى وأبى محمد الجوهرى وغيرهم .

وتوفى الإمام الحافظ أبوالقاسم إسماعيل بن محمد بن الفضل الأصفهانى عاشر ذى الحجة، ومولده سنة تسع وخمسين (وأربعمائة)، وله التصانيف المشهورة .

وتوفى يوسف بن الحسين أبويعقوب الهمذانى من أهل بروجرد، وسكن مرو، وتفقه على أبى إسحق الشيرازى، وروى الحديث، واشتغل بالرياضات والمجاهدات، ووعظ ببغداد، فقام إليه متفقه يقال له ابن السقاء وسأله وآذاه فى السؤال فقال: اسكت، إنى أشم منك ريح الكفر ! فسافر الرجل إلى بلد الروم وتنصر.

وفيها مات أبوالقاسم على بن أفلح الشاعر المشهور .

ثم دخلت سنة ست وثلاثين وخمسمائة

ذكر انهزام السلطان سنجر من الأتراك الخطا ـ وملكهم ما وراء النهر

قد ذكر أصحاب التواريخ فى هذه الحادثة أقاويل نحن نذكرها جميعها للخروج من عهدتها، فنقول: فى هذه السنة، فى المحرم، انهزم السلطان سنجر من الترك الكفار .

وسبب ذلك أن سنجر كان قتل ابناً لخوارزم شاه أتسز بن محمد، كما ذكرناه قبل، فبعث خوارزم شاه إلى الخطا، وهم بما وراء النهر، يطمعهم فى البلاد ويروج عليهم أمرها، وتزوج إليهم، وحثهم على قصد مملكة السلطان سنجر، فساروا فى ثلاثمائة ألف فارس، وسار إليهم سنجر فى عساكره، فالتقوا بما وراء النهر، واقتتلوا أشد قتال، وانهزم سنجر فى جميع عساكره، وقتل منهم مائة ألف قتيل، منهم : أحد عشر ألفاً كلهم صاحب عمامة، وأربعة آلاف امرأة، وأسرت زوجة السلطان سنجر، ثم سنجر منهزماً إلى ترمذ، وسار منها إلى بلخ.

و لما انهزم سنجر قصد خوارزم شاه مدينة مرو، فدخلها مراغمة للسلطان سنجر، وقتل بها، وقبض على أبى الفضل الكرمانى الفقيه الحنفى على جماعة من الفقهاء وغيرهم من أعيان البلد .

ولم يزل السلطان سنجرمسعوداً إلى وقتنا هذا لم تنهزم له راية، ولما تمت عليه هذه الهزيمة أرسل إلى السلطان مسعود وأذن له فى التصرف فى الرى وما يجرى معهما على قاعدة أبيه السلطان محمد، وأمره أن يكون مقيماً فيها بعساكره بحيث إن دعت حاجة استدعاه لأجل هذه الهزيمة، فوصل عباس صاحب الرى إلى بغداد بعساكره، وخدم السلطان مسعوداً خدمة عظيمة، وسار السلطان إلى الرى امتثالاً لأمر عمه سنجر .

وقيل : إن بلاد تركستان، وهى كاشغر، وبلاساغون، وختن، وطراز وغيرها مما يجاورها من بلاد ما وراء النهر كانت بيد الملوك الخانية الأتراك، وهم مسلمون من نسل افراسياب التركى، إلا أنهم مختلفون. وكان سبب إسلام جدهم الأول

واسمه سبق قراخاقان أنه رأى فى منامه كأن رجلاً نزل من السماء فقال بالتركية ما معناه : اسلم تسلم فى الدنيا والآخرة، فأسلم فى منامه، وأصبح فأظهر إسلامه، فلما مات قام مقامه ابنه موسى بن سبق، ولم يزل الملك بتلك الناحية فى أولاده إلى أرسلان خان محمد ابن سليمان بن داود بغراخان بن إبراهيم الملقب بطمغاج خان بن ايلك الملقب بنصر أرسلان بن على بن موسى بن سبق، فخرج على قدرخان فانتزع الملك منه، فقتل سنجر قدرخان، كما ذكرناه، سنة أربع وتسعين وأربعمائة، وأعاد الملك إلى أرسلان خان، وثبت قدمه . وخرج خوارج، فاستصرخ السلطان سنجر فنصره وأعاده إلى ملكه أيضاً .

وكان من جنده نوع من الأتراك يقال لهم القارغلية والأتراك الغزية الذين نهبوا خراسان على ما نذكره إن شاء الله، وهم نوعان : نوع يقال لهم أجق، وأميرهم طوطى بن دادبك، ونوع يقال لهم برق، وأميرهم قرعوت بن عبد الحميد، فحسن الشريف الأشرف بن محمد بن أبى شجاع العلوى السمرقندى لولد أرسلان خان المعروف بنصر خان طلب الملك من أبيه وأطمعه، فسمع محمد خان الخبر، فقتل الابن والشريف الأشرف .

وجرت بين أرسلان خان وبين جنده القارغلية وحشة دعتهم إلى العصيان عليه وانتزع الملك منه، فعاد الاستغاثة بالسلطان سنجر، فعبر جيحون بعساكره سنة أربع وعشرين وخمسمائة، وكان بينهما مصاهرة، فوصل إلى سمر قند، وهرب القارغلية من بين يديه .

واتفق أن السلطان سنجر خرج إلى الصيد، فرأى خيالة، فقبض عليهم فأقروا بأن أرسلان خان وضعهم على قتله، فعاد إلى سمرقند، فحصر أرسلان خان بالقلعة فملكها، وأخذه أسيراً، وسيره إلى بلخ فمات بها، وقيل بل غدر به سنجر، واستضعفه، فملك البلد منه فأشاع عنه ذلك .

فلما ملك سمرقند استعمل عليها بعده قلج طمغاج أبا المعالى الحسن بن على ابن عبد المؤمن المعروف بحسن تكين، وكان من أعيان بيت الخانية، إلا أن أرسلان خان أطرحه، فلما ولى سمرقند لم تطل أيامه، فمات عن قليل، فأقام

سنجر مقامه الملك محمود بن أرسلان خان محمد بن سليمان بن داود بغراخان، وهوابن الذى أخذ منه سنجر سمرقند، وكان محمود هذا ابن أخت سنجر، وكان قبل ذلك، سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة، قد وصل الأعور الصينى إلى حدود كاشغر فى عدد كثير لا يعلمهم إلا الله، فاستعد له صاحب كاشغر، وهوالخان أحمد بن الحسن، وجمع جنوده، فخرج إليه والتقوا، فاقتتلوا، وانهزم الأعور الصينى، وقتل كثير من أصحابه، ثم إنه مات، فقام مقامه كوخان الصينى .

وكوبلسان الصين لقب لأعظم ملوكهم، وخان لقب الملوك الترك فمعناه أعظم الملوك . وكان يلبس لبسة ملوكهم من المقنعة والخمار، وكان مانوى المذهب . ولما خرج من الصين إلى تركستان انضاف إليه الأتراك الخطا، وكانوا قد خرجوا قبله من الصين، وهم فى خدمة الخانية أصحاب تركستان .

وكان أرسلان خان محمد بن سليمان يسير كل سنة عشرة آلاف خركاة وينزلهم على الدروب التى بينه وبين الصين، يمنعون أحداً من الملوك أن يتطرق إلى بلاده، وكان لهم على ذلك جرايات وإقطاعات، فاتفق أنه وجد عليهم فى بعض السنين، فمنعم عن نسائهم لئلا يتوالدوا، فعظم عليهم، ولم يعرفوا وجهاً يقصدونه وتحيروا، فاتفق أنه اجتاز بهم قفل عظيم فيه الأموال الكثيرة والأمتعة النفيسة، فأخذوه وأحضروا التجار وقالوا لهم : إن كنتم تريدون أموالكم فتعرفونا بلداً كثير المرعى فسيحاً، يسعنا ومعنا أموالنا، فاتفق رأى التجار على بلد بلاساغون فوصفوه لهم، فأعادوا إليهم أموالهم، وأخذوا الموكلين بهم لمنعهم عن نسائهم وكتفوهم، وأخذوا نساءهم، وساروا إلى بلاساغون، وكان أرسلان خان يغزوهم ويكثر جهادهم فخافوه خوفاً عظيماً .

فلما طال ذلك عليهم وخرج كوخان الصينى انضافوا إليه أيضاً، فعظم شأنهم وتضاعف جمعهم، وملكوا بلاد تركستان، وكانوا إذا ملكوا المدينة لا يغيرون على أهلها شيئاً، بل يأخذون من كل بيت ديناراً من أهل البلاد وغيرها من القرى، وأما المزدرعات وغير ذلك فلأهله، وكل من أطاعهم من الملوك شد فى وسطه شبه لوح فضة، فتلك علامة من أطاعهم .

ثم ساروا إلى بلاد ما وراء النهر، فاستقبلهم الخاقان محمود بن محمد بن حدود خجندة فى رمضان سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة، واقتتلوا، فانهزم الخاقان محمود بن محمد، وعاد إلى سمرقند، فعظم الخطب على أهلها، واشتد الخوف والحزن، وانتظروا البلاد صباحاً ومساء، وكذلك أهل بخارى وغيرها من بلاد ما وراء النهر، وأرسل الخاقان محمود إلى السلطان سنجر يستمده وينهى إليه ما لقى المسلمون، ويحثه على نصرتهم، فجمع العساكر، فاجتمع عنده ملوك خراسان : صاحب سجستان والغور، وملك غزنة، وملك مازندران وغيرهم، فاجتمع له أكثر من مائة ألف فارس وبقى العرض ستة أشهر .

وسار سنجر إلى لقاء الترك، فعبر إلى ما وراء النهر فى ذى الحجة سنة خمس وثلاثين وخمسمائة، فشكا إليه محمود بن محمد خان من الأتراك القارغلية، فقصدهم سنجر، فالتجأوا إلى كوخان الصينى ومن معه من الكفار، وأقام سنجر بسمرقند، فكتب إليه كوخان كتاباً يتضمن الشفاعة فى الأتراك القارغلية، ويطلب منه أن يعفوعنهم، فلم يشفعه فيهم، وكتب إليه يدعوه إلى الإسلام ويتهدده إن لم يجب إليه ويتوعده بكثرة عساكره، ووصفهم، وبالغ فى قتالهم بأنواع السلاح حتى قال : وإنهم يشقون الشعر بسهامهم، فلم يرض هذا الكتاب وزيره طاهر بن فخر الملك بن نظام الملك فلم يصغ إليه، وسير الكتاب، فلما قرئ الكتاب على كوخان أمر بنتف لحية الرسول، وأعطاه إبرة، وكلفه شق شعرة من لحيته فلم يقدر أن يفعل ذلك، فقال : كيف يشق غيرك شعرة بسهم وأنت عاجز عن شقها بإبرة ؟ .

واستعد كوخان للحرب، وعنده جنود الترك والصين والخطا وغيرهم، وقصد السلطان سنجر، فالتقى العسكران، وكانا كالبحرين العظيمين، بموضع يقال له قطوان، وطاف بهم كوخان حتى ألجأهم إلى داود يقال له درغم، وكان على ميمنة سنجر الأمير قماج، وعلى ميسرته ملك سجستان، والأثقال وراءهم، فاقتتلوا خامس صفر سنة ست وثلاثين وخمسمائة .

وكانت الأتراك القارغلية الذين هربوا من سنجر من أشد الناس قتالاً، ولم يكن ذلك اليوم من عسكر السلطان سنجر أحسن قتالاً من صاحب سجستان، فأجلت الحرب عن هزيمة المسلمين، فقتل منهم ما لا يحصى من كثرتهم، واشتمل وادى درغم على عشرة آلاف من القتلى والجرحى، ومضى السلطان سنجر منهزماً، وأسر صاحب سجستان والأمير قماج وزوجة السلطان سنجر، وهى ابنة أرسلان خان، فأطلقهم الكفار، وممن قتل الحسام عمر بن عبد العزيز ابن مازة البخارى الفقيه الحنفى المشهور . ولم يكن فى الإسلام وقعة أعظم من هذه ولا أكثر ممن قتل فيها بخراسان .

واستقرت دولة الخطا والترك والكفار بما وراء النهر، وبقى كوخان إلى رجب من سنة سبع وثلاثين وخمسمائة فمات فيه، وكان جميلاً، حسن الصورة، لا يلبس إلا الحرير الصينى، له هيبة عظيمة على أصحابه، ولم يسلط أميراً على أقطاع بل كان يعطيهم من عنده، ويقول : متى أخذوا الأقطاع ظلموا، وكان لا يقدم أميراً على أكثر من مائة فارس حتى لا يقدر على العصيان عليه، وكان ينهى أصحابه عن الظلم، وينهى عن السكر ويعاقب عليه، ولا ينهى عن الزنا ولا يقبحه.

وملك بعده ابنة له فلم تطل مدتها حتى ماتت، فملك بعدها أمها زوجة كوخان وابنة عمه، وبقى ما وراء النهر بيد الخطا إلى أن أخذه منهم علاء الدين محمد خوارزم شاه سنة اثنتى عشرة وستمائة، على ما نذكره إن شاء الله .

وذكر مافعله خوارزم شاه بخراسان.

ثم دخلت سنة تسع وثلاثين وخمسمائة

ـ ذكر فتح الرها وغيرها من بلاد الجزيرة مما كان بيد الفرنج

فى هذه السنة، سادس جمادى الآخرة، فتح أتابك عماد الدين زنكى بن أقسنقر مدينة الرها، وفتح غيرها من حصونهم بالجزيرة أيضاً، وكان ضررهم قد عم بلاد الجزيرة وشرهم قد استطار فيها، ووصلت غاراتهم إلى أدانيها وأقاصيها، وبلغت آمد ونصيبين ورأس عين والرقة .

وكانت مملكتهم بهذه الديار من قريب ماردين إلى الفرات مثل الرها، وسروج، والبيرة، وسن ابن عطير، وحملين، والموزر، والقرادى وغير ذلك . وكانت هذه الأعمال مع غيرها مما هوغرب الفرات لجوسلين، وكان صاحب رأى الفرنج والمقدم على عساكرهم، لما هوعليه من الشجاعة والمكر .

وكان أتابك يعلم أنه متى قصد حصرها اجتمع فيها من الفرنج من يمنعها، فيتعذر عليه ملكها لما هى عليه من الحصانة، فاشتغل بديار بكر ليوهم الفرنج أنه غير متفرغ لقصد بلادهم . فلما رأوا أنه غير قادر على ترك الملوك الأرتقية وغيرهم من ملوك ديار بكر، حيث أنه محارب لهم، اطمأنوا، وفارق جوسلين الرها وعبر الفرات إلى بلاد الغربية، فجاءت عيون أتابك إليه فأخبرته فنادى فى العسكر بالرحيل وأن لا يختلف عن الرها أحد من غد يومه، وجمع الأمراء عنده، وقال : قدموا الطعام، وقال : لا يأكل معى على مائدتى هذه إلا من يطعن غداً معى على باب الرها، فلم يتقدم إليه غير أمير واحد وصبى لا يعرف، لما يعلمون من إقدامه وشجاعته، وأن أحداً لا يقدر على مساواته فى الحرب. فقال الأمير لذلك الصبى : ما أنت فى هذا المقام ؟ فقال أتابك : دعه فوالله إنى أرى وجهاً لا يتخلف عنى.

وسار والعساكر معه، ووصل إلى الرها، وكان هو أول من حمل على الفرنج ومعه ذلك الصبى، وحمل فارس من خيالة الفرنج على أتابك عرضاً، فاعترضه ذلك الأمير فطعنه فقتله، وسلم الشهيد، ونازل البلد، وقاتله ثمانية وعشرين يوماً، فزحف إليه عدة دفعات، وقدم النقابين فنقبوا سور البلد منه، فسقطت البدنة التى نقبها النقابون وأخذ البلد عنوة وقهراً، وحصر قلعته فملكها أيضاً، ونهب الناس الأموال وسبوا الذرية وقتلوا الرجال .

فلما رأى أتابك البلد أعجبه، ورأى أن تخريب مثله لا يجوز فى السياسة، فأمر فنودى فى العساكر برد من أخذوه من الرجال والنساء والأطفال إلى بيوتهم، وإعادة ما غنموه من أثاثهم وأمتعتهم، فردوا الجميع عن آخره لم يفقد

منهم أحد إلا الشاذ النادر الذى أخذ وفارق من أخذه العسكر، فعاد البلد إلى حاله الأول، وجعل فيه عسكراً يحفظه، وتسلم مدينة سروج وسائر الأماكن التى كانت بيد الفرنج شرقى الفرات، ما عد البيرة فإنها حصينة منيعة وعلى شاطئ الفرات، فسار إليها وحصرها، وكانوا قد أكثروا وميرتها ورجالها، فبقى على حصارها إلى أن رحل عنها، على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

حكى أن بعض العلماء بالأنساب والتواريخ قال : كان صاحب جزيرة صقلية قد أرسل سرية فى البحر إلى طرابلس الغرب وتلك الأعمال، فنهبوا وقتلوا، وكان بصقلية إنسان من العلماء المسلمين، وهومن أهل الصلاح، وكان صاحب صقلية يكرمه ويحترمه، ويرجع إلى قوله، ويقدمه على من عنده من النفوس والرهبان، وكان أهل ولايته إنه مسلم بهذا السبب .

ففى بعض الأيام كان جالساً فى منظرة له تشرف على البحر وإذ قد أقبل مركب لطيف، وأخبره من فيه أن عسكره دخلوا بلاد الإسلام، وغنموا وقتلوا وظفروا، وكان المسلم إلى جانبه وقد أغفى ، فقال له الملك : يا فلان ! أما تسمع ما يقولون؟ قال: لا ! قال: إنهم يخبرون بكذا وكذا . أين كان محمد عن تلك البلاد وأهلها؟ فقال له: كان قد غلب عنهم، وشهد فتح الرها، وقد فتحها المسلمون الآن، فضحك منه من هناك من الفرنج، فقال الملك: لا تضحكوا، فوالله ما يقول إلا الحق، فبعد أيام وصلت الأخبار من فرنج الشام بفتحها .

وحكى لى جماعة من أهل الدين والصلاح أن إنساناً صالحاً رأى الشهيد فى منامه فقال له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لى بفتح الرها .

ثم دخلت سنة أربعين وخمسمائة

ذكر اتفاق بوزابة (صاحب فارس وخوزستان) والأمير عباس صاحب الرى على السلطان، واستيلاء على بن دبيس بن صدقة على الحلة.

ثم دخلت سنة إحدى وأربعين وخمسمائة

ذكر ملك الفرنج طرابلس الغرب .

ذكر قتل أتابك عماد الدين زنكى وشىء من سيرته

فى هذه السنة، لخمس مضين من ربيع الآخر، قتل أتابك الشهيد عماد الدين زنكى بن آقسنقر صاحب الموصل والشام، وهويحاصر قلعة جعبر، على ما ذكرناه، قتله جماعة من مماليكه ليلاً غيلة، وهربوا إلى قلعة جعبر، فصاح من بها إلى العسكر يعلمونهم بقتله، وأظهروا الفرح، فدخل أصحابه، فأدركوه وبه رمق .

حدثنى والدى عن بعض خواصه قال : دخلت إليه فى الحال وهوحى، فحين رآنى ظن أنى أريد قتله، فأشار إلى بإصبعه السبابة يستعطفنى، فوقعت من هيبته، فقلت : يا مولاى من فعل بك هذا ؟ فلم يقدر على الكلام، وفاضت نفسه لوقته، رحمه الله .

قال : وكان حسن الصورة، أسمر اللون، مليح العينين، قد وخطه الشيب، وكان قد زاد عمره على ستين سنة، لأنه كان لما قتل والده صغيراً كما ذكرناه قبل، ولما قتل دفن بالرقة .

وكان شديد الهيبة على عسكره ورعيته، عظيم السياسة، لا يقدر القوى على ظلم الضعيف، وكانت البلاد، قبل أن يملكها، خراباً من الظلم، وتنقل الولاة، ومجاورة الفرنج، فعمرها وامتلأت أهلاً وسكاناً .

حكى لى والدى قال : رأيت الموصل وأكثرها خراب، بحيث يقف الإنسان قريب محلة الطبالين ويرى الجامع العتيق، والعرصة، ودار السلطان، ليس بين ذلك عمارة، وكان الإنسان لا يقدر على المشى إلى الجامع العتيق إلا ومعه من يحميه، لبعده عن العمارة، وهوالآن فى وسط العمارة وليس فى هذه البقاع المذكورة كلها أرض براح، وحدثنى أيضاً أنه وصل إلى الجزيرة فى الشتاء، فدخل الأمير عز الدين الدبيسى، وهومن أكابر أمرائه، ومن جملة أقطاعه مدينة دقوقا،

ونزل فى دار إنسان يهودى، فاستغاث اليهودى إلى أتابك، وأنهى حاله إليه، فنظر إلى الدبيسى، فتأخر، ودخل البلد، وأخرج بركه وخيامه. قال : فلقد رأيت غلمانه ينصبون خيامه فى الوحل، وقد جعلوا على الأرض تبناً يقيهم الطين، وخرج فنزلها، وكانت سياسته إلى هذا الحد.

وكانت الموصل من أقل بلاد الله فاكهة، فصارت فى أيامه، وما بعدها، من أكثر البلاد فواكه ورياحين وغير ذلك .

وكان أيضاً شديد الغيرة ولا سيما على نساء الأجناد، وكان يقول : إن لم نحفظ نساء الأجناد بالهيبة، وإلا فسدن لكثرة غيبة أزواجهن فى الأسفار .

وكان أشجع خلق الله، أما قبل أن يملك فيكفيه أنه حضر مع الأمير مودود صاحب الموصل مدينة طبرية، وهى للفرنج، فوصلت طعنته باب البلد وأثر فيه، وحمل أيضاً على قلعة عقر الحميدية، وهى على جبل عال، فوصلت طعنته إلى سورها، إلى أشياء أخر .

وأما بعد الملك فقد كان الأعداء محدقين ببلاده، وكلهم يقصدها، ويريد أخذها، وهولاء يقنع بحفظها، حتى إنه لا ينقضى عليه عام إلا ويفتح من بلادهم. فقد كان الخليفة المسترشد بالله مجاوره فى ناحية تكريت، وقصد الموصل وحصرها، ثم إلى جانبه، من ناحية شهرزور وتلك الناحية، السلطان مسعود، ثم ابن سقمان صاحب خلاط، ثم داود بن سقمان صاحب حصن كيفما، ثم صاحب آمد وماردين، ثم الفرنج من مجاورة ماردين إلى دمشق، ثم أصحاب دمشق، فهذه الولايات قد أحاطت بولايته من كل جهاتها، فهويقصد هذا مرة وهذا مرة، ويأخذ من هذا ويصانع هذا، إلى أن ملك من كل من يليه طرفاً من بلاده. وقد أتينا على أخباره فى كتاب الباهر فى تاريخ دولته ودولة أولاده، فيطلب من هناك .

وذكر ملك ولديه سيف الدين غازى، ونور الدين محمود.

ثم دخلت سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة

ذكر قتل بوزابة، وطاعة أهل قابس للفرنج وغلبة المسلمين عليها، وملك الفرنج المرية وغيرها من الأندلس.

ذكر ملك نور الدين محمود بن زنكى عدة مواضع من بلد الفرنج.

فى هذه السنة دخل نور الدين محمود بن الزنكى، صاحب حلب، بلد الفرنج، ففتح منه مدينة ارتاح بالسيف ونهبها وحصن مابولة ويصرفون وكفرلاثا. وكان الفرنج بعد قتل والده زنكى قد طمعوا، وظنوا أنهم بعده يستردون ما أخذه، فلما رأوا من نور الدين هذا الجد فى أول أمره علموا أن ما أملوه بعيد .

وذكر أخذ الحلة من على بن دبيس .

ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة

ذكر ملك الفرنج مدينة المهدية بأفريقيا.

ذكر حصر الفرنج دمشق وما فعل سيف الدين غازى بن زنكى

فى هذه السنة سار ملك الألمان من بلاده فى خلق كثير وجمع عظيم من الفرنج، عازماً على قصد بلاد الإسلام، وهو لا يشك فى ملكها بأيسر قتال لكثرة جموعه، وتوفر أمواله وعدده، فلما وصل إلى الشام قصده من به من الفرنج وخدموه، وامتثلوا أمره ونهيه، فأمرهم بالمسير معه إلى دمشق ليحصرها ويملكها بزعمه، فساروا معه ونازلوها وحصروها، وكان صاحبها مجير الدين أبق بن بورى بن طغدكين، وليس له من الأمر شىء، وإنما الحكم فى البلد لمعين الدين عاقلاً، وعادلاً، خيراً حسن السيرة، فجمع العساكر وحفظ البلد .

وأقام الفرنج يحاصرونهم، ثم إنهم زحفوا سادس ربيع الأول بفارسهم وراجلهم، فخرج إليهم أهل البلد والعسكر فقاتلوهم، وصبروا لهم، وفيمن خرج للقتال الفقيه حجة الدين يوسف بن دى ناس الفندلاوى المغربى، وكان شيخاً كبيراً، فقيهاً عالماً، فلما رآه معين الدين، وهو راجل، قصده وسلم عليه، وقال له:

يا شيخ أنت معذور لكبر سنك، ونحن نقوم بالذب عن المسلمين، وسأله أن يعود، فلم يفعل وقال له : قد بعت واشترى منى، فوالله لا أقلته ولا استقلته، فعنى قول الله تعالى :﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾.

وتقدم فقاتل الفرنج حتى قتل عند النيرب نحونصف فرسخ عن دمشق . وقوى الفرنج وضعف المسلمون، فتقدم ملك الألمان حتى نزل بالميدان الأخضر، فأيقن الناس بأنه يملك البلد . وكان معين الدين قد أرسل إلى سيف الدين غازى بن أتابك زنكى يدعوه إلى نصرة المسلمين وكف العدوعنهم، فجمع عساكره وسار إلى الشام، واستصحب معه أخاه نور الدين محمود من حلب، فنزلوا بمدينة حمص، وأرسل إلى معين الدين يقول له: قد حضرت ومعى كل من يحمل السلاح فى بلادى، فأريد نوابى بمدينة دمشق لأحضر وألقى الفرنج، فإن انهزمت دخلت أنا وعسكرى البلد واحتمينا به وإن ظفرت فالبلد لكم لا أنازعكم فيه .

فأرسل إلى الفرنج يتهددهم إن لم يرحلوا عن البلد، فكف الفرنج عن القتال خوفاً من كثرة الجراح، وربما اضطروا إلى قتال سيف الدين، فأبقوا على نفوسهم، فقوى أهل البلد على حفظه، واستراحوا من لزوم الحرب، وأرسل معين الدين إلى الفرنج الغرباء : إن ملك المشرق قد حضر، فإن رحلتم، وإلا سلمت البلد إليه، وحينئذ تندمون، وأرسل إلى فرنج الشام يقول لهم : بأى عقل تساعدون هؤلاء علينا، وأنتم تعلمون أنهم إن ملكوا دمشق أخذوا ما بأيديهم من البلاد الساحلية، وأما أنا فإن رأيت الضعف عن حفظ البلد سلمته إلى سيف الدين، وأنتم تعلمون أنه ملك دمشق لا يبقى لكم معه مقام فى الشام، فأجابوه إلى التخلى عن ملك الألمان، وبذل لهم تسليم حصن بانياس إليهم .

واجتمع الساحلية بملك الألمان، وخوفوه من سيف الدين وكثرة عساكره وتتابع الأمداد إليه، وأنه ربما أخذ دمشق وتضعف عن مقاومته، ولم يزالوا به حتى رحل عن البلد، وتسلموا قلعة بانياس، وعاد الفرنج الألمانية إلى بلادهم من وراء القسطنطينية، وكفى الله المؤمنين شرهم .

وقد ذكر الحافظ أبوالقاسم بن عساكر فى تاريخ دمشق: أن بعض العلماء حكى له أنه رأى الفندلاوى فى المنام، فقال له: ما فعل الله بك: وأين أنت؟ فقال: غفر لى، وأنا فى جنات عدن على سرر متقابلين .

ثم دخلت سنة أربع وأربعين وخمسمائة

ذكروفاة سيف الدين غازى وبعض سيرته، وملك أخيه قطب الدين،واستيلاء نور الدين على سنجار، ووفاة الحافظ وولاية الظافر، ووزارة ابن السلار،وقتل البرنس صاحب أنطاكية،والخلف بين صاحب صقلية وملك الروم.

ثم دخلت سنة خمس وأربعين وخمسمائة

ذكر أخذ العرب الحجاج، وفتح حصن فاميا، وحصر الفرنج قرطبة ورحيلهم عنها.

ثم دخلت سنة ست وأربعين وخمسمائة

ذكر انهزام نور الدين من جوسلين، وأسرجوسلين بعد ذلك، وحصر غرناطة والمرية من بلاد الأندلس.

ثم دخلت سنة سبع وأربعين وخمسمائة

ذكر ملك عبد المؤمن بن على بجاية وملك بنى حماد، وظفره بصنهاجة،ووفاة السلطان مسعود

وملك ملكشاه محمد بن محمود، والحرب بين نور الدين محمود وبين الفرنج.

ذكر انقراض دولة سبكتكين

لما أنفذ غياث الدين إلى أخيه شهاب الدين يطلب إنفاذ خسروشاه إليه أمره شهاب الدين بالتجهز والمسير، فقال : أنا لا أعرف أخاك، ولا لى حديث إلا معك، ولا يمين إلا فى عنقك، فمناه وطيب قلبه، وجهزه وسيره وسير معه ولده، وأصبحهما جيشاً يحفظونهما، فسارا كارهين، فلما بلغا فرشابور خرج أهلها إليهما يبكون ويدعون لهما، فزجرهم الموكلون بهما، وقالوا : سلطان يزور سلطاناً

آخر، لأى شىء تبكون ؟ وضربوهم فعادوا، وخرج ولد خطيبها إلى خسروشاه عن أبيه متوجعاً له، قال : فلما دخلت عليه أعلمته رسالة أبى، وقلت : إنه قد اعتزل الخطابة، ولا حاجة به إلى خدمة غيركم. فقال لى: سلم عليه. وأعطانى فرجية فوطاً ومصلى من عمل الصوفية، وقال: هذه تذكره أبيه عند أبى، فسلمها إليه وقل له : در مع الدهر كيفما دار، وأنشد بلسان فصيح :

وليس كعهد الداريا أم مالك ولكن أحاطت بالرقاب السلاسل

قال: فانصرفت إلى أبى وعرفته الحال، فبكى، وقال: قد أيقن الرجل بالهلاك، ثم رحلوا . فلما بلغوا بلد الغور لم يجتمع بهما غياث الدين بل أمر بهما فرفعا إلى بعض القلاع، فكان آخر العهد بهما .

وهوآخر ملوك آل سبكتكين، وكان ابتداء دولتهم سنة ست وستين وثلاثمائة، فتكون مدة ولايتهم مائتى سنة وثلاث عشرة سنة تقريباً . وكان ملوكهم من أحسن الملوك سيرة، ولاسيما جده محمود، فإن آثاره فى الجهاد معروفة، وأعماله للآخرة مشهورة :

لوكان يقعد فوق الشمس من كرم قوم بأولهم اومجدهم قعدوا

فتبارك الذى لا يزول ملكه، ولا تغيره الدهور، فأف له الدنيا الدنية، كيف تفعل هذا بأبنائها، نسأل الله تعالى أن يكشف عن قلوبنا حتى نراها بعين الحقيقة، وأن يقبل بنا إليه، وأن يشغلنا به عما سواه، إنه على كل شىء قدير .

هكذا ذكر بعض فضلاء خراسان أن خسروشاه آخر ملوك آل سبكتكين، وقد ذكر غيره أنه توفى فى الملك، وملك بعده ابنه ملكشاه .

وسنذكره فى سنة تسع وخمسين وخمسمائة، وبالجملة فابتداء دولة الغورية عندى فيه خلف لو ينكشف الحق فأصلحه إن شاء الله تعالى .

ذكر الخطبة لغياث الدين بالسلطة، وذكر ظفر الهند على المسلمين.

ذكر ظفر المسلمين بالهند

لما سلم شهاب الدين وعاد إلى آجرة، وأتاه المدد من أخيه غياث الدين، عاد الهنود فجددوا سلاحهم، ووفروا جمعهم، وأقاموا عوض من قتل منهم، وسارت ملكتهم وهم معها فى عدد يضيق عنه الفضاء، فراسلها شهاب الدين يخدعها بأنه يتزوجها، فلم تجبه إلى ذلك، وقالت : إما الحرب، وإما أن تسلم بلاد الهند وتعود إلى غزنة، فأجابها إلى العود إلى غزنة، وأنه يستأذن أخاه غياث الدين، فعل ذلك مكراً وخديعة .

وكان بين العسكرين نهر، وقد حفظ الهنود المخاضات، فلا يقدر أحد من المسلمين أن يجوزه، وأقاموا ينتظرون ما يكون من جواب غياث الدين بزعمهم، فبينما هم كذلك إذ وصل إنسان هندى إلى شهاب الدين وأعلمه أنه يعرف مخاضاً قريباً من عسكر الهنود، وطلب أن يرسل معه جيشاً يعبرهم المخاض، ويكسبون الهنود وهم غارون غافلون، فخاف شهاب الدين أن تكون خديعة ومكراً، فأقام له ضمناء من أهل آجرة والمولتان، فأرسل معه جيشاً كثيفاً، وجعل عليهم الأمير الحسين بن خرميل الغورى، وهوالذى صار بعد صاحب هراة، وكان من الشجاعة والرأى بالمنزلة المشهورة .

فسار الجيش مع الهندى، فعبروا النهر، فلم يشعر الهنود إلا وقد خالطهم المسلمون ووضعوا السيف فيهم، فاشتغل الموكلون بحفظ المخاضات، فعبر شهاب الدين وباقى العساكر، وأحاطوا بالهنود، وأكثروا القتل فيهم، ونادوا بشعار الإسلام، فلم ينج من الهنود إلا من عجز المسلمون عن قتله وأسره، وقتلت ملكتهم، وتمكن شهاب الدين بعد هذه الوقعة من بلاد الهند، وأمن معرة فسادهم، والتزموا له بالأموال وسلموا إليه الرهائن وصالحوه وأقطع مملوكه قطب الدين ايبك مدينة دهلى، وهى كرسى الممالك التى فتحها من الهند، فأرسل عسكراً من الخليج مع محمد بن بختيار، فملكوا من بلاد الهند مواضع ما وصل إليها مسلم قبله، حتى قاربوا حدود الصين من جهة المشرق .

وقد حدثنى صديق لى من التجار بوقعتين تشبهان هاتين الوقعتين المذكورتين وبينهما بعض الخلاف، وقد ذكرناهما سنة ثمان وثمانين وخمسمائة .

ثم دخلت سنة ثمان وأربعين وخمسمائة

ذكر انهزام سنجر من الغز ونهبهم خراسان وما كان منهم، وملك المؤيد نيسابور وغيرها، وقتل ابن السلار وزير الظافر ووزارة عباس، وملك الفرنج مدينة بونة، ووفاة بهرام شاه صاحب غزنة.

ثم دخلت سنة تسع وأربعين وخمسمائة

ذكر قتل الظافر وخلافة ابنه الفائز

فى هذه السنة، فى المحرم، قتل الظافر بالله أبوالمنصور إسماعيل بن الحافظ لدين الله عبد المجيد العلوى، صاحب مصر .

وكان سبب قتله أن وزيره عباساً كان ولد اسمه نصر، فأحبه الظافر، وجعله من ندمائه وأحبابه الذين لا يقدر على فراقهم ساعة واحدة، فاتفق أن قدم من الشام مؤيد الدولة الأمير أسامة بن منقذ الكنانى فى وزارة ابن السلار، واتصل بعباس، فحسن له قتل العادل بن السلار زوج أمه، فقتله، وولاه الظافر الوزارة، فاستبد بالأمر، وتم له ذلك .

وعلم الأمراء والأجناد أن ذلك من فعل ابن منقذ، فعزموا على قتله، فخلا بعباس وقال له : كيف تصبر على ما أسمع من قبيح القول قال : وما ذلك ؟ قال: الناس يزعمون أن الظافر يفعل بابنك نصر، وكان نصر خصيصاً بالظافر، وكان ملازماً له ليله ونهاره، وكان من أجمل الناس صورة، وكان الظافر يتهم به، فانزعج لذلك وعظم عليه، وقال: كيف الحيلة؟ قال : تقتله فيذهب عنك العار، فذكر الحال لولده نصر، فاتفقا على قتله.

وقيل إن الظافر أقطع نصر بن عباس قرية قليوب، وهى من أعظم قرى مصر، فيدخل إليه مؤيد الدولة بن منقذ، وهوعند أبيه العباس. قال له نصر :

قد أقطعنى مولانا قرية قليوب. فقال له مؤيد الدولة: ما هى فى مهرك بكثير، فعظم عليه وعلى أبيه، وأنف من هذه الحال، وشرع فى قتل الظافر بأمر أبيه، فحضر نصر عند الظافر وقال له: اشتهى أن تجىء إلى دارى لدعوة صنعتها، ولا تكثر من الجمع، فمشى معه فى نفر يسير من الخدم ليلاً، فلما دخل الدار قتله وقتل من معه، وأفلت خادم صغير اختبأ فلم يروه، ودفن القتلى فى داره .

وأخبر أخاه عباساً الخبر، فبكر إلى القصر، وطلب من الخدم الخصيصين بخدمة الظافر أن يطلبوا له إذناً فى الدخول عليه لأمر يريد أن يأخذ رأيه فيه.

فقالوا : إنه ليس فى القصر. فقال: لابد منه. وكان غرضه أن ينفى التهمة عنه بقتله، وأن يقتل من بالقصر ممن يخاف أن ينازعه فيمن يقيمه فى الخلافة، فلما ألح عليهم عجزوا عن إحضاره .

فبينما هم يطلبونه حائرين دهشين لا يدرون ما الخبر إذ وصل إليهم الخادم الصغير الذى شاهد قتله، وقد هرب من دار عباس عند غفلتهم عنه، وأخبرهم بقتل الظافر، فخرجوا إلى عباس، وقالوا له : سل ولدك عنه فإنه يعرف أين هو لأنهما خرجا جميعاً . فلما سمع ذلك منهم قال : أريد أن أعتبر القصر لئلا يكون قد اغتاله أحد من أهله، فاستعرض القصر، فقتل أخوين للظافر، وهما يوسف وجبريل، وأجلس الفائز بنصر الله أبا القاسم عيسى ابن الظافر بأمر الله إسماعيل ثانى يوم قتل أبوه، وله من العمر خمس سنين، فحمله عباس على كتفه وأجلسه على سرير الملك وبايع له الناس، وأخذ عباس من القصر من الأموال والجواهر والأعلاق النفسية ما أراد، ولم يترك فيه إلا ما لا خير فيه .

ذكر وزارة الصالح طلائع بن رزيك

كان السبب فى وزارة الصالح طلائع بن رزيك أن عبّاساً، لما قتل الظافر وأقام الفائز، ظن أن الأمر يتم له على ما يريده، فكان الحال خلاف ما اعتقده، فإن الكلمة اختلفت عليه، وثار به الجند والسودان، وصار إذا أمر بالأمر لا يلتفت إليه

ولايسمع قوله، فأرسل من القصر من النساء والخدم إلى الصالح طلائع بن زريك يستغيثون به، وأرسلوا شعورهم طى الكتب، وكان فى منية بنى حصيب والياً عليها وعلى أعمالها، وليست من الأعمال الجليلة، وإنما كانت أقرب الأعمال إليهم، وكان فيه شهامة، فجمع ليقصد عبّاساً، وسار إليه، فلما سمع عباس ذلك خرج من مصر نحوالشام بما معه من الأموال التى لا تحصى كثرة، والتحف والأشياء التى لا توجد إلا هناك مما كان أخذه من القصر. فلما سار وقع به الفرنج فقتلوه وأخذوا جميع ما معه فتقووا به .

وسار الصالح فدخل القاهرة بأعلام سود وثياب سود حزناً على الظافر، والشعور التى أرسلت إليه من القصر على رؤوس رماح، وكان هذا من الفأل العجيب، فإن الأعلام السود العباسية دخلتها وأزالت الأعلام العلوية بعد خمس عشرة سنة .

ولما دخل الصالح القاهرة خلع عليه خلع الوزارة، واستقر فى الأمر، وأحضر الخادم الذى شاهد قتل الظافر، فأراه موضع دفنه، فأخرجه ونقله إلى مقابرهم بالقصر .

ولما قتل الفرنج عبّاساً أسروا ابنه، فأرسل الصالح إلى الفرنج وبذل لهم مالاً وأخذه منهم، فسار من الشام مع أصحاب الصالح، فلم يكلم أحداً منهم كلمة إلى أن رأى القاهرة فأنشد :

بلى نحن كنا أهلها فأبادنا صروف الليالى والجدود العوائر

وأدخل القصر، فكان آخر العهد به، فإنه قتل، وصلب على باب زويلة، واستقصى الصالح بيوت الكبار والأعيان بالديار المصرية فأهلك أهلها وأبعدهم عن ديارهم، وأخذ أموالهم، فمنهم من هلك، ومنهم من تفرق فى بلاد الحجاز واليمن وغيرهما، فعل ذلك خوفاً منهم أن يثوروا عليه وينازعوه فى الوزارة، وكان ابن منقذ قد هرب مع عباس، فلما قتل هرب إلى الشام .

ثم دخلت سنة خمسين وخمسمائة

فى هذه السنة سار الخليفة المقتفى لأمر الله إلى دقوقا فحصرها وقاتل من بها، ثم رحل عنها لأنه بلغه أن عسكر الموصل قد تجهزوا للمسير لمنعه عنها،فرحل ولم يبلغ غرضاً .

وفيها استولى شملة التركمانى على خوزستان وكان قد جمع جمعاً كثيراً من التركمان وسار يريد خوزستان، وصاحبه حينئذ ملكشاه بن محمد، فسير الخليفة إليه عسكراً، فلقيهم شملة فى رجب، وقاتلهم، فانهزم عسكراً، فلقيهم شملة فى رجب، وقاتلهم، فانهزم عسكر الخليفة، وأسر وجوههم، ثم أحسن إليهم وأطلقهم، وأرسل يعتذر، فقبل عذره، وسار إلى خوزستان فملكها وأزاح عنها ملكشاه ابن السلطان محمود .

وفيها سار الغز إلى نيسابور، فملكوها بالسيف، فدخلوها وقتلوا محمد ابن يحيى الفقيه الشافعى ونحواً من ثلاثين ألفاً، وكان السلطان سنجر له اسم السلطنة، وهومعتقل لا يلتفت إليه، حتى إنه أراد كثيراً من الأيام أن يركب، فلم يكن له من يحمل سلاحه، فشده على وسطه وركب .

وكان إذا قدم إليه طعام يدخر منه ما يأكله وقتاً آخر، خوفاً من انقطاعه عنه، لتقصيرهم فى واجبه، ولأنهم ليس هذا مما يعرفونه .

وفيها وثب قسوس الأرمن بمدينة آنى فأخذوها من الأمير شداد وسلموها إلى أخيه فضلون .

وفيها، فى ذى الحجة، قتل الأتراك القارغلية طمغاج خان بن محمد بما وراء النهر، وألقوه فى الصحراء، ونسبوه إلى أشياء قبيحة، وكان مدة ملكه مستضعفاً غير مهيب .

وفيها توفى أبوالفضل محمد بن ناصر بن على البغدادى الحافظ الأديب وكان مشهوراً بالفضل، وكان شافعياً، وصار حنبلياً مغالياً، ومولده سنة سبع وستين وأربعمائة فى شعبان، وكان موته أيضاً فى شعبان .

وفيها كان بالعراق وما جاوره من البلاد زلزلة كبيرة فى ذى الحجة .

وفيها توفى يحيى الغسانى النحوى الموصلى وكان فاضلاً خيراً، وتاج الدين أبوطاهر يحيى بن عبد الله بن القاسم الشهروزى، قاضى جزيرة ابن عمر .

ثم دخلت سنة خمس وخمسين وخمسمائة

ذكر وفاة الخليفة المقتفى لأمر الله وشىء من سيرته

فى هذه السنة، ثانى ربيع الأول، توفى أمير المؤمنين المقتفى لأمر الله أبوعبد الله محمد بن المستظهر بالله أبى العباس أحمد بن المقتدى بأمر الله، رضى الله عنه، بعلة التراقى، وكان مولده ثانى عشر ربيع الآخر سنة تسع وثمانين وأربعمائة، وأمه أم ولد تدعى ياعى، وكانت خلافته أربعاً وعشرين سنة وثلاثة أشهر وستة عشر يوماً، ووافق أباه المستظهر بالله فى علة التراقى وماتا جميعاً فى ربيع الأول .

وكان حليماً كريماً عادلاً حسن السيرة من الرجال ذوى الرأى والعقل الكثير. وهوأول من استبد بالعراق منفرداً عن سلطان يكون من أول أيام الديلم إلى الآن، وأول خليفة تمكن من الخلافة وحكم على عسكره وأصحابه من حين تحكم المماليك على الخلفاء من عهد المستنصر إلى الآن، إلا أن يكون المعتضد، وكان شجاعاً مقداماً مباشراً للحروب بنفسه، وكان يبذل الأموال العظيمة لأصحاب الأخبار فى جميع البلاد حتى كان لا يفوته منها شىء .

ذكر خلافة المستنجد بالله

وفى هذه السنة بويع المستنجد بالله أمير المؤمنين، واسمه يوسف، وأمه أم ولد تدعى طاووس، بعد موت والده، وكان للمقتفى حظية، وهى أم ولده أبى على، فلما اشتد مرض المقتفى وأيست منه أرسلت إلى جماعة من الأمراء وبذلت لهم الإقطاعات الكثيرة والأموال الجزيلة ليساعدوها على أن يكون ولدها الأمير أبوعلى خليفة . قالوا : كيف الحيلة مع ولى العهد ؟ فقالت : إذا دخل على والده قبضت عليه . وكان يدخل على أبيه كل يوم .

فقالوا : لا بد لنا من أحد من أرباب الدولة، فوقع اختيارهم على أبى المعالى ابن الكيا الهراسى، فدعوه إلى ذلك، فأجابهم على أن يكون وزيراً، فبذلوا له ما طلب .

فلما استقرت القاعدة بينهم وعلمت أم أبى على أحضرت عدة من الجوارى وأعطتهن السكاكين، وأمرتهن بقتل ولى العهد المستنجد بالله. وكان له خصى صغير يرسله كل وقت يتعرف أخبار والده، فرأى الجوارى بأيديهن السكاكين، ورأى بيد أبى على وأمه سيفين، فعاد إلى المستنجد فأخبره، وأرسلت هى إلى المستنجد تقول له إن والده قد حضره الموت ليحضر ويشاهده، فاستدعى أستاذ الدار عضد الدين وأخذه معه وجماعة من الفراشين، ودخل الدار وقد لبس الدرع وأخذ بيده السيف، فلما دخل ثار به الجوارى، فضرب واحدة منهن فجرحها، وكذلك أخرى، فصاح ودخل أستاذ الدار ومعه الفراشون، فهربت الجوارى، وأخذ أخاه أبا على وأمه فسجنهما، وأخذ الجوارى فقتل منهن، وغرق منهن ودفع الله عنه .

فلما توفى المقتفى لأمر الله جلس للبيعة، فبايعه أهله وأقاربه، وأولهم عمه أبوطالب، ثم أخرجوه أبوجعفر بن المقتفى، وكان أكبر من المستنجد، ثم بايعه الوزير ابن هبيرة، وقاضى القضاة، وأرباب الدولة والعلماء، وخطب له يوم الجمعة، ونثرت الدنانير والدراهم .

حكى عنه الوزير عون الدين بن هبيرة أنه قال : رأيت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فى المنام منذ خمس عشرة سنة، وقال لى : يبقى أبوك فى الخلافة خمس عشرة سنة، فكان كما قال، صلى الله عليه وسلم . قال : ثم رأيته قبل موت أبى المقتفى بأربعة أشهر، فدخل بى فى باب كبير، ثم ارتقى إلى رأس جبل، وصلى بى ركعتين، ثم ألبسني قميصاً، ثم قال لى : قل اللهم اهدنى فيمن هديت، وذكر دعاء القنوت .

ولما ولى الخلافة أقر ابن هبيرة على وزراته وأصحاب الولايات على ولايتهم، وأزال المكوس والضرائب، وقبض على القاضى ابن الرخم وقال : وكان بئس الحاكم، وأخذ منه مالاً كثيراً، وأخذت كتبه فأحرق منها فى الرحبة ما كان من علوم الفلاسفة، فكان منها : كتاب الشفاء لابن سينا، وكتاب إخوان الصفا، وما شاكلهما، وقدم عضد الدين بن رئيس الرؤساء، وكان أستاذ الدار يمكنه، وتقدم إلى الوزير أن يقوم له، وعزل قاضى القضاة أبا الحسن على بن أحمد الدامغانى، ورتب مكانه أبا جعفر عبد الواحد الثقفى، وخلع عليه .

ثم دخلت سنة ست وخمسين وخمسمائة

ذكر قتل الصالح بن رزيك ووزارة ابنه رزيك

فى هذه السنة، فى شهر رمضان، قتل الملك الصالح أبوالغارات طلائع بن رزيك الأرمنى، وزير العاضد العلوى، صاحب مصر، وكان سبب قتله أنه تحكم فى الدولة التحكم العظيم، واستبد بالأمر والنهى وجباية الأموال إليه، لصغر العاضد، ولأنه هوالذى ولاه، ووتر الناس، فإنه أخرج كثيراً من أعيانهم وفرقهم فى البلاد ليأمن وثوبهم عليه، ثم إنه زوج ابنته من العاضد فعاداه أيضاً الحرم من القصر، فأرسلت عمة العاضد الأموال إلى أمراء المصريين، ودعتهم إلى قتله.

وكان أشدهم فى ذلك إنسان يقال له ابن الراعى، فوقفوا له فى دهليز القصر، فلما دخل ضربوه بالسكاكين على دهش منه فجرحوه جراحات مهلكة، إلا أنه حمل إلى داره وفيه حياة، فأرسل إلى العاضد يعاتبه على الرضى بقتله مع أثره فى خلافته، فأقسم العاضد أنه لا يعلم بذلك، ولم يرض به . فقال : إن كنت بريئاً فسلم عمتك إلى حتى أنتقم منها، فأمر بأخذها، فأرسل إليها فأخذها قهراً وأحضرت عنده فقتلها ووصى بالوزارة لابنه رزيك ولقب العادل، فانتقل الأمر إليه بعد وفاة أبيه . وللصالح أشعار حسنة بليغة تدل على فضل غزير، فمنها فى الافتخار :

أبى الله إلا أن يدوم لنا الدهر ... ويخدمنا فى ملكنا العز والنصر

علمنا بأن المال تفنى الوفه ... ويبقى لنا من بعده الأجر والذكر

خلطنا الندى بالبأس حتى كأننا ... سحاب لديه البرق والرعد والقطر

قرانا إذا رحنا إلى الحرب مرة ... يرانا ومن أضيافنا الذئب والنسر

كما أننا فى السلم نبذل جودنا ... ويرتع فى إنعامنا العبد والحر

وهى طويلة .

وكان الصالح كريماً فيه أدب، وله شعر جيد، وكان لأهل العلم عنده إنفاق، ويرسل إليهم العطاء الكثير، بلغه أن الشيخ أبا محمد بن الدهان النحوى البغدادى المقيم بالموصل قد شرح بيتاً من شعره وهوهذا :

تجنب سمعى ما يقول العواذل ... وأصبح لى شغل من الغزوشاغل

فجهز إليه هدية سنية ليرسلها إليه، فقتل قبل إرسالها .

وبلغه أيضاً أن إنساناً من أعيان الموصل قد أثنى عليه بمكة، فأرسل إليه كتاباً يشكره ومعه هدية .

وكان الصالح إمامياً لم يكن على مذهب العلويين المصريين، ولما ولى العاضد الخلافة، ركب سمع الصالح ضجة عظيمة، فقال : ماالخبر ؟ فقيل : إنهم يفرحون بالخليفة . فقال : كأنى بهؤلاء الجهلة وهم يقولون ما مات الأول حتى استخلف هذا . وما علموا أننى كنت من ساعة أستعرضهم استعراض الغنم .

قال عمارة : دخلت إلى الصالح قبل قتله بثلاثة أيام، فناولنى قرطاساً فيه بيتان من شعره وهما :

نحن فى غفلة ونوم وللمو ... ت عيون يقظانة لا تنام

قد رحلنا إلى الحمام سنيناً ... ليت شعرى متى يكون الحمام

فكان آخر عهدى به. وقال عمارة أيضاً: ومن عجيب الاتفاق أننى أنشدته ابنه قصيدة أقول فيها :

أبوك تسطو الليالى بحدة	وأنت يمين إن سطا وشمال
لرتبته العظمى وإن طال عمره	إليك مصير واجب ومنال
تخالسك اللحظ المصون ودونها	حجاب شريف لا انقضا وحجال

فانتقل الأمر إليه بعد ثلاثة أيام .

ثم دخلت سنة ثمان وخمسين وخمسمائة

ذكر وزارة شاور للعاضد بمصر ثم وزارة الضرغام بعده

فى هذه السنة، فى صفر، وزر شاور للعاضد لدين الله العلوى صاحب مصر، وكان ابتداء أمره ووزارته أنه كان يخدم الصالح بن رزيك ولزمه، فأقبل عليه الصالح وولاه الصعيد، وهوأكبر الأعمال بعد الوزارة، فلما ولى الصعيد ظهرت منه كفاية عظيمة وتقدم زائد، واستمال الرعية والمقدمين من العرب وغيرهم، فعسر أمره على الصالح، ولم يمكنه عزله، فاستدام استعماله لئلا يخرج عن طاعته. فلما جرح الصالح كان من جملة وصيته لولده العادل : إنك لا تغير على شاور، فإننى أنا أقوى منك وقد ندمت على استعماله، ولم يمكنى عزله، فلا تغيروا ما به فيكون لكم منه ما تكرهون .

فلما توفى الصالح من جراحته وولى ابنه العادل الوزارة حسن له أهله عزل شاور واستعمال بعضهم مكانه، وخوفوه منه إن أقره على عمله، فأرسل إليه بالعزل، فجمع جموعاً كثيرة وسار إلى القاهرة بهم، فهرب منه العادل ابن الصالح ابن رزيك فأخذ وقتل، فكانت مدة وزارته ووزارة أبيه قبله تسع سنين وشهراً وأياماً، وصار شاور وزيراً، وتلقب بأمير الجيوش، وأخذ أموال بنى رزيك وودائعهم وذخائرهم، وأخذ منه أيضاً طى والكامل ابنا شاور شيئاً كثيراً، وتفرق كثير منها، وجُحد كثير، وظهرت عليهم عند انتقال الدولة عن شاور والمصريين إلى الأتراك.

ثم إن الضرغام جمع جموعاً كثيرة، ونازع شاور فى الوزارة فى شهر رمضان، وظهر أمره، وانهزم شاور منه إلى الشام، على ما نذكره سنة تسع وخمسين وخمسمائة، وصار ضرغام وزيراً .

وكان هذه السنة ثلاثة وزراء : العادل بن رزيك . وشاور، وضرغام من الوزارة قتل كثيراً من الأمراء المصريين لتخلوا له البلاد من منازع، فضعفت الدولة بهذا السبب حتى خرجت البلاد عن أيديهم .

ثم دخلت سنة تسع وخمسين وخمسمائة

ـ ذكر مسير شيركوه وعساكر نور الدين إلى ديار مصر وعودهم عنها

فى هذه السنة فى جمادى الأولى، سير نور الدين محمود بن زنكى عسكراً كثيراً إلى مصر، وجعل عليهم الأمير أسد الدين شيركوه بن شاذى، وهومقدم عسكره، وأكبر أمراء دولته، وأشجعهم، وسنذكر سنة أربع وستين وخمسمائة سبب اتصاله بنور الدين وعلو شأنه عنده إن شاء الله تعالى .

وكان سبب إرسال هذا الجيش أن شاور وزير العاضد لدين الله العلوى، صاحب مصر، نازعه فى الوزارة ضرغام، وغلب عليها، فهرب شاور منه إلى الشام، ملتجئاً إلى نور الدين، ومستجيراً به، فأكرم مثواه، وأحسن إليه، وأنعم عليه، وكان وصوله فى ربيع الأول من السنة، وطلب منه إرسال العساكر معه إلى مصر ليعود إلى منصبه، ويكون لنور الدين ثلث دخل البلاد بعد إقطاعات العساكر، ويكون شيركوه مقيماً بعساكره فى مصر، ويتصرف هو بأمر نور الدين واختياره، فبقى نور الدين يقدم إلى هذا الغرض رجلاً ويؤخر أخرى، فتارة يحمله رعاية لقصد شاور بابه، وطلب الزيادة فى الملك والتقوى على الفرنج، وتارة يمنعه خطر الطريق، وأن الفرنج فيه، وتخوف إن شاور استقرت قاعدته ربما لا يفى .

ثم قوى عزمه على إرسال الجيوش، فتقدم بتجهيزها وإزاحة عللها، وكان هوى أسد الدين فى ذلك، وعنده من الشجاعة وقوة النفس ما لا يبالى بمخافة، فتجهز، وساروا جميعاً وشاور فى صحبتهم، فى جمادى الأولى من سنة تسع وخمسين وخمسمائة، وتقدم نور الدين إلى شيركوه أن يعيد شاور إلى منصبه، وينتقم له ممن نازعه فيه .

وسار نور الدين إلى طرف بلاد الفرنج مما يلى دمشق بعساكره ليمنع الفرنج من التعرض لأسد الدين ومن معه، فكان قصارى الفرنج حفظ بلادهم من نورالدين، ووصل أسد الدين والعساكر معه إلى مدينة بلبيس، فخرج إليهم ناصر الدين أخوضرغام بعسكر المصريين ولقيهم، فانهزم وعاد إلى القاهرة مهزوماً.

ووصل أسد الدين فنزل على القاهرة أواخر جمادى الآخرة، فخرج ضرغام من القاهرة سلخ الشهر، فقتل عند مشهد السيدة نفيسة، وبقى يومين، ثم حمل ودفن فى القرافة، وقتل أخوه فارس المسلمين، وخلع على شاور مستهل رجب، وأعيد إلى الوزارة، وتمكن منها، وأقام أسد الدين بظاهر القاهرة، فغدر به شاور، وعاد عما كان قرره لنور الدين من البلاد المصرية، ولأسد الدين أيضاً، وأرسل إليه يأمره بالعود إلى الشام، فأعاد الجواب بالامتناع، وطلب ما كان قد استقر بينهم، فلم يجبه شاور إليه، فلما رأى ذلك أرسلوا نوابه فتسلموا مدينة بلبيس، وحكم على البلاد الشرقية، فأرسل شاور إلى الفرنج يستمدهم ويخوفهم من نور الدين إن ملك مصر .

وكان الفرنج قد أيقنوا بالهلاك إن تم ملكه لها، فلما أرسل شاور يطلب منهم أن يساعدوه على إخراج أسد الدين من البلاد جاءهم فرج لم يحتسبوه، وسارعوا إلى تلبية دعوته ونصرته وطمعوا فى ملك الديار المصرية، وكان قد بذل لهم مالاً على المسير إليه، وتجهزوا وساروا، فلما بلغ نور الدين ذلك سار بعساكره إلى أطراف بلادهم ليمتنعوا عن المسير، فلم يمنعهم ذلك لعلمهم أن الخطر فى مقامهم، إذا ملك أسد الدين مصر، أشد، فتركوا فى بلادهم من يحفظها، وسار ملك القدس فى الباقين إلى مصر .

وكان قد وصل إلى الساحل كثير من الفرنج فى البحر لزيارة البيت المقدس، فاستعان بهم الفرنج الساحلية، فأعانوهم، فسار بعضهم معهم، وأقام بعضهم فى البلاد لحفظها، فلما قارب الفرنج مصر فارقها أسد الدين، وقصد مدينة بلبيس، فأقام بها هو وعسكره، وجعلها له ظهراً يتحصن به، فاجتمعت العساكر المصرية والفرنج، ونازلوا أسد الدين شيركوه بمدينة بلبيس، وحصروه بها ثلاثة

أشهر، وهوممتنع بها مع أن سورها قصير جداً، وليس لها خندق، ولا فصيل يحميها، وهويغاديهم القتال ويرواحهم، فلم يبلغوا منه غرضاً، ولا نالوا منه شيئاً.

فبينما هم كذلك إذ أتاهم الخبر بهزيمة الفرنج على حارم وملك نور الدين حارم ومسيره إلى بانياس، على ما نذكره إن شاء الله تعالى، فحينئذ سقط فى أيديهم، وأرادوا العودة إلى بلادهم ليحفظوها، فراسلوا أسد الدين فى الصلح والعود إلى الشام، ومفارقة مصر، وتسليم ما بيده منها إلى المصريين، فأجابهم إلى ذلك لأنه لم يعلم ما فعله نور الدين بالشام بالفرنج، ولأن الأقوات والذخائر قلت عليه، وخرج من بلبيس فى ذى الحجة .

فحدثنى من رأى أسد الدين حين خرج من بلبيس قال : أخرج أصحابه بين يديه، وبقى فى آخرهم وبيده لت من حديد يحمى ساقتهم، والمسلمون والفرنج ينظرون إليه. قال: فأتاه فرنجى من الغرباء الذين خرجوا من البحر، فقال له : أما تخاف أن يغدر بك هؤلاء المصريون والفرنج، وقد أحاطوا بك وبأصحابك، ولا يبقى لكم بقية ؟ فقال شيركوه : يا ليتهم فعلوه حتى كنت ترى ما أفعله، كنت والله أضع السيف، فلا يقتل منا رجل حتى يقتل منهم رجالاً، وحينئذ يقصدهم الملك العادل نور الدين وقد ضعفوا وفنى شجعانهم، فنملك بلادهم ويهلك من بقى منهم، والله لو أطاعنى هؤلاء لخرجت إليكم من أول يوم، ولكنهم امتنعوا.

فصلب على وجهه، وقال : كنا نعجب من فرنج هذه البلاد ومبالغتهم فى صفتك وخوفهم منك، والآن فقد عذرناهم، ثم رجع عنه .

وسار شيركوه إلى الشام، فوصل سالماً، وكان الفرنج قد وضعوا له على مضيق فى الطريق رصداً ليأخذوه أوينالوا منه ظفراً، فعلم بهم فعاد عن ذلك الطريق، ففيه يقول عمارة :

أخذتم على الإفرنج كل ثنية ... وقلتم لأيدى الخيل مرى على مرى
لئن نصبوا فى البر جسراً فإنكم ... عبرتم ببحر من حديد على الجسر

ولفظه مرى فى آخر البيت الأول اسم ملك الفرنج .

ثم دخلت سنة ستين وخمسمائة

ذكر وفاة شاه مازندران وملك ابنه، وحصر نسا واستيلائه على هراة، والحرب بين قلج أرسلان وبين ابن الدانشمند، وذكر الفتنة بين نور الدين وقلج أرسلان

ثم دخلت سنة أربع وستين وخمسمائة

ذكر ملك أسد الدين مصر وقتل شاور

فى هذه السنة، فى ربيع الأول، سار أسد الدين شيركوه بن شاذى إلى ديار مصر، فملكها، ومعه العساكر النورية .

وسبب ذلك ما ذكرناه من تمكن الفرنج من البلاد المصرية، وأنهم جعلوا لهم فى القاهرة شحنة وتسلموا أبوابها، وجعلوا لهم فيها جماعة من شجعانهم وأعيان فرسانهم، وحكموا على المسلمين حكماً جائراً، وركبوهم بالأذى العظيم، فلما رأوا ذلك، وأن البلاد ليس فيها من يردهم، وأرسلوا إلى ملك الفرنج بالشام، وهومرى ولم يكن للفرنج مذ ظهر بالشام مثله شجاعة ومكراً ودهاء، يستدعونه ليملكها، وأعلموه خلوها من ممانع، وهونوا أمرها عليه، فلم يجبهم إلى ذلك، فاجتمع إليه فرسان الفرنج وذووالرأى منهم، وأشاروا عليه بقصدها وتملكها، فقال لهم : الرأى عندى أننا لا نقصدها، فإنها طعمة لنا وأموالها تساق إلينا، نتقوى بها على نور الدين، وإن نحن قصدناها لنملكها فإن صاحبها وعساكره، وعامة بلاده وفلاحيها، لا يسلمونها إلينا، ويقاتلوننا دونها، ويحملهم الخوف منا على تسليمها إلى نور الدين، ولئن أخذها نور الدين وصار له فيها مثل أسد الدين، فهوهلاك الفرنج وإجلاؤهم من أرض الشام، فلم يقبلوا قوله، وقالوا له: إنها لا مانع فيها ولا حامى، وإلى أن يتجهز عسكر نور الدين ويسير إليها، نكون نحن قد ملكناها، وفرغنا من أمرها، وحينئذ يتمنى نور الدين منا السلامة.

فسار معهم على كره وشرعوا يتجهزون ويظهرون أنهم يريدون قصد مدينة حمص، فلما سمع نور الدين شرع أيضاً بجمع عساكره، وأمرهم بالقدوم عليه، وجد الفرنج فى السير إلى مصر، فقدموها، ونازلوا مدينة بلبيس، وملكوها قهراً

مستهل صفر، ونهبوها وقتلوا فيها وأسروا وسبوا . وكان جماعة من أعيان المصريين قد كاتبوا الفرنج، ووعدوهم النصرة عداوة منهم لشاور، منهم ابن الخياط، وابن فرجلة، فقوى جنان الفرنج، وساروا من بلبيس إلى مصر، فنزلوا على القاهرة عاشر صفر وحصروها، فخاف الناس منهم أن يفعلوا بهم كما فعلوا بأهل بلبيس، فحملهم الخوف منهم على الامتناع، فحفظوا البلد، وقاتلوا دونه وبذلوا جهدهم فى حفظه، فلوأن الفرنج أحسنوا السيرة فى بلبيس لملكوا مصر والقاهرة، ولكن الله تعالى حسن لهم ما فعلوا ليقضى الله أمراً كان مفعولاً .

وأمر شاور بإحراق مدينة مصر تاسع صفر، وأمر أهلها بالانتقال منها إلى القاهرة، وأن ينهب البلد، فانتقلوا، وبقوا على الطرق، ونهبت المدينة وافتقر أهلها، وذهبت أموالهم ونعمتهم قبل نزول الفرنج عليهم بيوم، خوفاً أن يملكها الفرنج، فبقيت النار تحرقها أربعة وخمسين يوماً .

وأرسل الخليفة العاضد إلى نور الدين يستغيث به، ويعرفه ضعف المسلمين عن دفع الفرنج، وأرسل فى الكتب شعور النساء وقال: هذه شعور نسائى من قصرى يستغثن بك لتنقذهن من الفرنج، فشرع فى تسيير الجيوش .

وأما الفرنج فإنهم اشتدوا فى حصار القاهرة وضيقوا على أهلها، وشاور هوالمتولى للأمر والعساكر والقتال، فضاق به الأمر، وضعف عن ردهم، فأخذ إلى أعمال الحيلة، فأرسل إلى ملك الفرنج يذكر له مودته ومحبته القديمة له، وأن هواه معه لخوفه من نور الدين العاضد، وإنما المسلمون لايوافقونه على التسليم إليه، ويشير بالصلح، وأخذ مالاً لئلا بتسليم البلاد نور الدين، فأجابه إلى ذلك على أن يعطوه ألف ألف دينار مصرية، يعجل البعض، ويمهل بالبعض، فاستقرت القاعدة على ذلك .

ورأى الفرنج أن البلاد قد امتنعت عليهم وربما سلمت إلى نور الدين، فأجابوا كارهين، وقالوا : نأخذ المال فنتقوى به، ونعاود البلاد بقوة لا نبالى معها بنور الدين «ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين» فعجل شاور مائة ألف دينار،

وسألهم الرحيل عنه ليجمع لهم المال، فرحلوا قريباً، وجعل شاور يجمع لهم المال من أهل القاهرة ومصر، فلم يتحصل له إلا قدر لا يبلغ خمسة آلاف دينار، وسببه أن أهل مصر كانوا قد احترقت دورهم وما فيها، وما سلم نهب، وهم لا يقدرون على الأقوات فضلاً عن الأقساط .

وأما القاهرة فالأغلب على أهلها الجند وغلمانهم، فلهذا تعذرت عليهم الأموال، وهم خلال هذا يرسلون نور الدين بما الناس فيه، وبذلوا له ثلث بلاد مصر، وأن يكون أسد الدين مقيماً عندهم فى عسكر، وأقطاعهم من البلاد المصرية أيضاً خارجاً عن الثلث الذى لهم .

وكان نور الدين لما وصله كتب العاضد بحلب أرسل إلى أسد الدين يستدعيه إليه، فخرج القاصد فى طلبه، فلقيه على باب حلب، وقد قدمها من حمص وكانت إقطاعه، وكان سبب وصوله أن كتب المصريين وصلته أيضاً فى المعنى، فسار أيضاً إلى نور الدين، واجتمع به، وعجب نور الدين من حضوره فى الحال، وسره ذلك، وتفاءل به، وأمر بالتجهيز إلى مصر، وأعطاه مائتى ألف دينار سوى الثياب والدواب والأسلحة وغير ذلك، وحكمه فى العسكر والخزائن، واختار من العسكر ألفى فارس، وأخذ المال، وجمع ستة آلاف فارس، وسار هو ونور الدين إلى دمشق فوصلها سلخ صفر، ورحل إلى رأس الماء، وأعطى نور الدين كل فارس ممن مع أسد الدين عشرين ديناراً معونة غير محسوبة من جامكيته، وأضاف إلى أسد الدين جماعة أخرى من الأمراء منهم : مملوكه عز الدين جورديك، وعز الدين قلج، وشرف الدين بزغش، وعين الدولة الياروقى، وقطب الدين ينال بن حسان المنبجى، وصلاح الدين يوسف بن أيوب، أخى شيركوه، على كره منه، «وعسى أن تكرهوا شيئا وهوخير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهوشر لكم» أحب نور الدين مسير صلاح الدين، وفيه ذهاب بيته، وكره صلاح الدين المسير، وفيه سعادته وملكه، وسيرد ذلك عند موت شيركوه، إن شاء الله تعالى .

وسار أسد الدين شيركوه من رأس الماء مجداً منتصف ربيع الأول، فلما قارب مصر رحل الفرنج عنها عائدين إلى بلادهم بخفى حنين خائبين مما أملوا، وسمع نور الدين بعودهم، فسره ذلك، وأمر بضرب البشائر فى البلاد، وبث رسله فى الآفاق مبشرين بذلك، فكان فتحاً جديداً لمصر وحفظاً لسائر بلاد الشام وغيرها .

فأما أسد الدين فإنه وصل إلى القاهرة سابع جمادى الآخرة. ودخل إليها، واجتمع بالعاضد لدين الله، وخلع عليه وعاد إلى خيامه بالخلعة العاضدية، وفرح به أهل مصر، وأجريت عليه وعلى عسكره الجرايات الكثيرة . والإقامات الوافرة، ولم يمكن شاور المنع عن ذلك لأنه رأى العساكر كثيرة مع شيركوه وهوى العاضد معهم، فلم يتجاسر على إظهار ما فى نفسه، وشرع يماطل أسد الدين فى تقرير ما كان بذل لنور الدين من المال، وإقطاع الجند، وإفراد ثلث البلاد لنور الدين، وهو يركب كل يوم إلى أسد الدين ويسير معه ويعده ويمنيه ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً﴾ (النساء / ١٢٠).

ثم إنه عزم على أن يعمل دعوة يدعو إليها أسد الدين والأمراء الذين معه ويقبض عليهم، ويستخدم من معهم من الجند فيمنع بهم البلاد من الفرنج، فنهاه ابنه الكامل، وقال له : والله لئن عزمت على هذا لأعرفن شيركوه . فقال له أبوه : والله لئن لم تفعل هذا لنقتلن جميعاً . فقال : صدقت ولأن نقتل ونحن مسلمون والبلاد إسلامية، خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج، فإنه ليس بينك وبين عود الفرنج إلا أن يسمعوا بالقبض على شيركوه، وحينئذ لومشى العاضد إلى نور الدين لم يرسل معه فارساً واحداً ويملكون البلاد، فترك ما كان عزم عليه .

ولما رأى العسكر النورى مطل شاور خافوا شره، فاتفق صلاح الدين يوسف بن أيوب وعز الدين جورديك وغيرها على قتل شاور، فأعلموا أسد الدين فنهاهم عنه، فسكتوا وهم على ذلك العزم من قتله، فاتفق أن شاور قصد عسكر أسد الدين على عادته، فلم جد فى الخيام، كان قد مضى يزور قبر الشافعى، رضى الله عنه، فلقيه صلاح الدين يوسف وجورديك فى جمع من العسكر، وخدموه،

وأعلموه بأن شيركوه فى زيارة قبر الإمام الشافعى، فقال : نمضى إليه، فساروا جميعاً، فسايره صلاح الدين وجورديك وألقياه إلى الأرض عن فرسه، فهرب أصحابه عنه، فأخذ أسيراً، فلم يمكنهم قتله بغير أمر أسد الدين، فتوكلوا بحفظه، وسيروا فأعلموا أسد الدين الحال، فحضر، ولم يمكنه إلا إتمام ما علموه . وسمع الخليفة العاضد صاحب مصر الخبر، فأرسل إلى أسد الدين يطلب منه إنفاذ رأس شاور، وتابع الرسل بذلك، فقتل وأرسل رأسه إلى العاضد فى السابع عشر من ربيع الآخر .

ودخل أسد الدين القاهرة، فرأى من اجتماع الخلق ما خافهم على نفسه، فقال لهم : أمير المؤمنين، يعنى العاضد، يأمركم بنهب دار شاور، فتفرق الناس عنه إليها فنهبوها، وقصد هوقصر العاضد، فخلع عليه خلع الوزارة، ولقب الملك المنصور أمير الجيوش، وسار بالخلع إلى دار الوزارة، وهى التى كان فيها شاور، فلم ير فيها ما يقعد عليه، واستقر فى الأمر، وغلب عليه، ولم يبق له مانع ولا منازع، واستعمل على الأعمال من يثق به من أصحابه وأقطع البلاد لعساكره .

وأما الكامل بن شاور فإنه لما قتل أبوه دخل القصر هووإخواته معتصمين به، فكان آخر العهد بهم، فكان شيركوه يتأسف عليه كيف عدم لأنه بلغه ما كان منه مع أبيه فى منعه من قتل شيركوه، وكان يقول : وددت أنه بقى لأحسن إليه جزاء الصنيعة.

ذكر وفاة أسد الدين شيركوه

لما ثبت قدم أسد الدين، وظن أنه لم يبق له منازع، أتاه أجله ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً﴾ (الأنعام / ٤٤) فتوفى يوم السبت الثانى والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة، وكانت ولايته شهرين وخمسة أيام.

وأما ابتداء أمره وسبب اتصاله بنور الدين، فإنه كان هو وأخوه نجم الدين أيوب ابنا شاذى من بلد دوين، وأصلهما من الأكراد الروادية، وهذا النسل هم أشراف الأكراد، فقدما العراق، وخدما مجاهد الدين بهروز شحنة بغداد. فرأى من نجم

الدين عقلاً ورأياً وافراً وحسن سيرة، وكان أكبر من شيركوه، فجعله مستحفظاً لقلعة تكريت، وهى له، فسار إليها من قراجة الساقى على ما ذكرناه سنة ست وعشرين وخمسمائة، وصل منهزماً إلى تكريت، فخدمه نجم الدين، وأقام له السفن فعبر دجلة هناك، وتبعه أصحابه، فأحسن أيوب صحبتهم وسيرهم.

ثم إن شيركوا قتل إنساناً بتكريت لملاحاة جرت بينهما، فأخرجهما بهروز من القلعة، فسارا إلى الشهيد زنكى، فأحسن إليهما. وعرف لهما خدمتهما، وأقطعهما إقطاعاً حسناً، فلما ملك قلعة بعلبك جعل أيوب مستحفظاً بها، فلما قتل الشهيد حصر عسكر دمشق بعلبك وهو بها. فضاق عليه الأمر، وكان سيف الدين غازى بن زنكى مشغولاً عنه بإصلاح البلاد. فاضطر إلى تسليمها إليهم، فسلمها على إقطاع ذكره، فأجيب إلى ذلك . وصار من أكبر الأمراء بدمشق .

واتصل أخوه أسد الدين شيركوه بنور الدين محمود بعد قتل زنكى، وكان يخدمه فى أيام والده، فقربه وقدمه، ورأى منه شجاعة يعجز غيره عنها. فزاده حتى صار له حمص والرحبة وغيرهما، وجعله مقدم عسكره، فلما أراد نور الدين ملك دمشق أمره فراسل أخاه أيوب وهو بها، وطلب منه المساعدة على فتحها، فأجاب إلى ما يريد منه على إقطاع ذكره له ولأخيه، وقرى يتملكانها، فأعطاهما ما طلبا، وفتح دمشق على ماذكرناه، ووفى لهما، وصارا أعظم أمراء دولته. فلما أريد أن يرسل العساكر إلى مصر، لم ير لهذا الأمر العظيم والمقام الخطير غيره، فأرسله، ففعل ما ذكرناه .

ذكر ملك صلاح الدين مصر

لما توفى أسد الدين شيركوه كان معه صلاح الدين يوسف ابن أخيه أيوب ابن شاذى قد سار معه على كره منه للمسير .

حكى لى عنه بعض أصدقائنا ممن كان قريباً إليه خصيصاً به قال : لما وردت كتب العاضد على نور الدين يستغيث به من الفرنج، ويطلب إرسال العساكر، أحضرنى وأعلمنى الحال، وقال : تمضى إلى عمك أسد الدين بحمص مع

رسولى إليه ليحضر، وتحثه أنت على الإسراع، فما يحتمل الأمر التأخير، ففعلت، وخرجنا من حلب، فما كنا على ميل من حلب حتى لقيناه قادماً فى هذا المعنى، فأمره نور الدين بالمسير، فلما قال له نور الدين ذلك التفت عمى إلى فقال لى : تجهز يا يوسف ! فقلت : والله لوأعطيت ملك مصر ما سرت إليها : فلقد قاسيت بالإسكندرية وغيرها ما لا أنساه أبداً . فقال لنور الدين : لا بد من مسيره معى فتأمر به، فأمرنى نور الدين. وأنا أستقيل، وانقضى المجلس .

وتجهز أسد الدين، ولم يبق غير المسير، قال لى نور الدين : لا بد من مسيرك مع عمك، فشكوت إليه الضائقة وعدم البرك، فأعطانى ما تجهزت به فكأنما أساق إلى الموت، فسرت معه وملكها، ثم توفى فملكنى الله تعالى ما لم أكن أطمع فى بعضه .

وأما كيفية ولايته، فإن جماعة من الأمراء النورية الذين كانوا بمصر طلبوا التقدم على العساكر، وولاية الوزارة العاضدية بعده منهم : عين الدولة الياروقى، وقطب الدين، وسيف الدين المشطوب الهكارى، وشهاب الدين محمود الحارمى، وهوخال صلاح الدين، وكل واحد من هؤلاء يخطبها، وقد جمع أصحابه ليغالب عليها، فأرسل العاضد إلى صلاح الدين فأحضره عنده، وخلع عليه، وولاه الوزارة بعد عمه .

وكان الذى حمله على ذلك أن أصحابه قالوا له : ليس فى الجماعة أضعف ولا أصغر سناً من يوسف، والرأى أن يولى، فإنه لا يخرج من تحت حكمنا، ثم نضع على العساكر من يستميلهم إلينا، فيصير عندنا من الجنود من نمنع بهم البلاد، ثم نأخذ يوسف أونخرجه . فلما خلع عليه لقب الملك الناصر لم يطعه أحد من أولئك الأمراء الذين يريدون الأمر لأنفسهم، ولا خدموه، وكان الفقيه عيسى الهاكرى معه، فسعى مع المشطوب حتى أماله إليه، وقال له : إن هذا الأمر لا يصل إليك مع عين الدولة والحارمى وغيرهما، ثم قصد الحارمى وقال : هذا صلاح الدين هوابن أختك وعزه وملكه لك، وقد استقام له الأمر فلا تكن أول من

يسعى فى إخراجه عنه ولا يصل إليك، فمال إليه أيضاً، ثم فعل مثل هذا بالباقين، وكلهم أطاع غير عين الدولة الياروقى فإنه قال : أنا لا أخدم يوسف، وعاد إلى نور الدين بالشام ومعه غيره من الأمراء، وثبت قدم صلاح الدين، ومع هذا فهو نائب عن نور الدين .

وكان نور الدين يكاتبه بالأمير الاسفهسلار، ويكتب علامته على رأس الكتاب تعظيماً عن أن يكتب اسمه، وكان لا يفرده بكتاب بل يكتب الأمير الاسفهسلار صلاح الدين وجميع الأمراء بالديار المصرية يفعلون كذا .

واستمال صلاح الدين قلوب الناس، وبذل الأموال، فمالوا إليه وأحبوه وضعف أمر العاضد، ثم أرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أن يرسل إليه أخوته وأهله، فأرسلهم إليهم، وشرط عليهم طاعته والقيام بأمره ومساعدته، وكلهم فعل ذلك، وأخذ إقطاعات الأمراء المصريين فأعطاها أهله والأمراء الذين معه، وزادهم، فازدادوا له حباً وطاعة .

قد اعتبرت التواريخ، فرأيت كثيراً من التواريخ الإسلامية التى يمكن ضبطها، ورأيت كثيراً ممن يبتدئ الملك تنتقل الدولة عن صلبه إلى بعض أهله وأقاربه، منهم أول الإسلام: معاوية بن أبى سفيان، أول من ملك من أهل بيته، فنقل الملك عن أعقابه إلى بنى مروان من بنى عمه، ثم من بعده السفاح أول من ملك من بنى العباس، انتقل الملك من أعقابه إلى أخيه المنصور، ثم السامانية أول من استبد منهم نصر بن أحمد، فانتقل الملك عنه إلى أخيه إسماعيل بن أحمد وأعقابه، ثم يعقوب الصفار، وهوأول من ملك من أهل بيته . فانتقل الملك إلى أخيه عمرو وأعقابه، ثم عماد الدولة بن بويه أول من ملك من أهله انتقل الملك عنه إلى أخويه ركن الدولة وعز الدولة، ثم خلص فى أعقاب ركن الدولة، ثم الدولة السلجوقية أول من ملك منهم طغرلبك انتقل الملك إلى أولاد أخيه داود، ثم شيركوه هذا كما ذكرناه انتقل الملك إلى أعقاب أخيه أيوب، ثم إن صلاح الدين لما أنشأ الدولة وعظمها، وصار كأنه أول لها، نقل الملك إلى أعقاب أخيه العادل، ولم يبق بيد أعقابه غير حلب .

وهذه أعظم الدول الإسلامية، ولولا خوف التطويل لذكرنا أكثر من هذا، والذى ظنه السبب فى ذلك أن الذى يكون أول دولة يكثر إليه، ويأخذ الملك وقلوب من كان فيه متعلقة به فلهذا يحرمه الله أعقابه ومن يفعل ذلك من أجلهم عقوبة له.

ثم دخلت سنة خمس وستين وخمسمائة

حصر الفرنج دمياط، وحصر نور الدين الكرك،ووفاة قطب الدين مودود بن زنكى،وملك ابنه سيف الدين غازى .

ذكر حالة ينبغى للملوك أن يحترزوا من مثلها

حدثنى والدى. رحمه الله، قال: كنت أتولى جزيرة ابن عمر لقطب الدين. كما علمتم، فلما كان قبل موته بيسير أتانا كتاب من الديوان بالموصل يأمرون بمساحة جميع بساتين العقيمة، وهذه العقيمة هى قرية تحاذى الجزيرة بينهما دجلة، ولها بساتين كثيرة بعضها يمسح فيؤخذ منه على كل جريب شىء معلوم، وبعضها عليه خراج، وبعضها مطلق من الجميع .

قال : وكان لى فيها ملك كثير، فكنت أقول: إن المصلحة أن لا يغير على الناس شىء، وما أقول هذا لأجل ملكى أنا أمسح ملكى، وإنما أريد أن يدوم الدعاء من الناس للدولة . فجاءنى كتاب النائب يقول : لا بد من المساحة . قال : فأظهرت الأمر، وكان بها قوم صالحون، لى بهم أنس، وبيننا مودة، فجاءنى الناس كلهم، وأولئك معهم، يطلبون المراجعة، فأعلمتهم أننى رجعت وما أحببت إلى ذلك، فجاءنى منهم رجلان أعرف صلاحهما، وطلبا منى المعاودة ومخاطبة ثانية، ففعلت، فأصروا على المسح، فعرفتهما الحال .

قال : فما مضى إلا عدة أيام، وإذ قد جاءنى الرجلان، فلما رأيتهما ظننت أنهما جاءا يطلبان المعاودة، فعجبت منهما، وأخذت أعتذر إليهما، فقالا : ما جئنا إليك فى هذا، وإنما جئنا نعرفك أن حاجتنا قضيت. قال: فظننت أنهما قد أرسلا إلى الموصل إلى من يشفع لهما. فقلت: من الذى خاطب فى هذا بالموصل؟ فقالا: إن حاجتنا قد قضيت من السماء، ولكافة أهل العقيمة.

قال: فظننت أن هذا مما قد حدثا به نفوسهما، ثم قاما عنى، لم يمض غير
شرة أيام وإذ قد جاءنا كتاب من الموصل يأمرون بإطلاق المساحة والمحبسين
لمكوس، ويأمرون بالصدقة، ويقال : إن السلطان، يعنى قطب الدين، مريض.
نى على حالة شديدة، ثم بعد يومين أوثلاثة جاءنا الكتاب بوفاته، فعجبت من
ولهما، واعتقدته كرامة لهما، فصار والدى بعد ذلك يكثر إكرامهما واحترامهما
يزورهما .

ثم دخلت سنة ست وستين وخمسمائة

ذكر وفاة المستنجد بالله، وملك نور الدين الموصل، وإقرار سيف الدين عليها،
غزوصلاح الدين بلاد الفرنج وفتح أيلة.

ثم دخلت سنة سبع وستين وخمسمائة

ذكرإقامة الخطبة العباسية بمصر وانقراض الدولة العلوية.

ذكر الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين باطناً

فى هذه السنة جرت أمور أوجبت أن تأثر نور الدين من صلاح الدين، ولم
يظهر ذلك . وكان سببه أن صلاح الدين يوسف بن أيوب سار عن مصر فى صفر
من هذه السنة إلى بلاد الفرنج غازياً، ونازل حصن الشويك، وبينه وبين الكرك
يوم، وحصره، وضيق على من به من الفرنج، وأدام القتال، وطلبوا الأمان
واستمهلوه عشرة أيام، فأجابهم إلى ذلك .

فلما سمع نور الدين بما فعله صلاح الدين سار عن دمشق قاصداً بلاد
الفرنج أيضاً ليدخل إليها من جهة أخرى، فقيل لصلاح الدين : إن دخل نور
الدين بلاد الفرنج، وهم على هذه الحال أنت من جانب ونور الدين من جانب،
ملكها، ومتى زال الفرنج عن الطريق وأخذ ملكهم لم يبق بديار مصر مقام مع نور
الدين، وإن جاء نور الدين إليك وأنت هاهنا، فلا بد لك من الاجتماع به، وحينئذ
يكون هوالمتحكم فيك بما شاء، إن تركك، وإن شاء عزلك، فقد لا تقدر على
الامتناع عليه، والمصلحة الرجوع إلى مصر .

فرحل عن الشوبك عائداً إلى مصر، ولم يأخذه من الفرنج، وكتب إلى نور الدين يعتذر باختلال البلاد المصرية لأمور بلغته عن بعض شيعته العلويين، وأنهم عازمون على الوثوب بها، فإنه يخاف عليها من البعد عنها أن يقوم أهلها على من تخلف بها فيخرجوهم وتعود ممتنعة. وأطال الاعتذار، فلم يقبلها نور الدين منه، وتغير عليه وعزم على الدخول إلى مصر وإخراجه عنها .

وظهر ذلك فسمع صلاح الدين الخبر. فجمع أهله. وفيهم أبوه نجم الدين أيوب، وخاله شهاب الدين الحارمى، ومعهم سائر الأمراء، وأعلمهم ما بلغه من عزم نور الدين وحركته إليه، واستشارهم، فلم يجبه أحد بكلمة واحدة، فقام تقى الدين عمر ابن أخى صلاح الدين فقال : إذاجاءنا قاتلناه، ومنعناه عن البلاد، ووافقه غيره من أهلهم، فشتمهم نجم الدين أيوب، وأنكر ذلك، واستعظمه، وشتم تقى الدين وأقعده، وقال لصلاح الدين : أنا أبوك وهذا خالك شهاب الدين، ونحن أكثر محبة لك من جميع من ترى، ووالله لورأيت أنا وخالك هذا نور الدين، لم يمكنا إلا أن نقبل الأرض بين يديه، ولوأمرنا أن نضرب عنقك بالسيف لفعلنا، فإذا كنا نحن هكذا، فما ظنك بغيرنا ؟ وكل من تراه عندك من الأمراء لو رأوا نور الدين وحده لم يتجاسروا على الثبات على سروجهم، وهذه البلاد له، ونحن مماليكه ونوابه فيها، فإن أراد عزلك سمعنا وأطعنا، والرأى أن تكتب كتاباً مع نجاب تقول فيه : بلغنى أنك تريد الحركة لأجل البلاد، فأى حاجة إلى هذا ؟ يرسل المولى نجاباً يضع فى رقبتى منديلاً ويأخذنى إليك. وما ها هنا من يمتنع عليك.

وأقام الأمراء وغيرهم وتفرقوا على هذا، فلما خلا به أيوب قال له :

بأى عقل فعلت هذا ؟ أما تعلم أن نور الدين إذا سمع عزمنا على منعه ومحاربته جعلنا أهم الوجوه إليه، وحينئذ لا نقوى به، وأما الآن، إذا بلغه ما جرى وطاعتنا له تركنا واشتغل بغيرنا، والأقدار تعمل عملها. ووالله لوأراد نور الدين قصبة من قصب السكر لقاتلته أنا عليها حتى أمنعه أوأقتل .

ففعل صلاح الدين ما أشار به، فترك نور الدين قصده واشتغل بغيره، فكان الأمر كما ظنه أيوب، فتوفى نور الدين ولم يقصده، وملك صلاح الدين البلاد، وكان هذا من أحسن الآراء وأجودها .

ثم دخلت سنة ثمان وستين وخمسمائة

ذكر وفاة خوارزم شاه إيل أرسلان وملك ولده سلطان شاه، وذكر غارة الفرنج على حوران وغارة المسلمين على بلد الفرنج، وظفر مليح بن ليون بالروم، ووفاة ايلدكز، ووصول الترك إلى أفريقيا وملكهم طرابلس وغيرها، وقصد نور الدين بلاد قلج أرسلان، ورحيل صلاح الدين من مصر إلى الكرك، وعوده عنها.

ثم دخلت سنة تسع وستين وخمسمائة

ذكر قتل جماعة من المصريين أرادوا الوثوب بصلاح الدين

فى هذه السنة، ثانى رمضان، صلب صلاح الدين يوسف بن أيوب جماعة ممن أراد الوثوب به بمصر من أصحاب الخلفاء العلويين .

وسبب ذلك أن جماعة من شيعة العلويين منهم عمارة بن أبى الحسن اليمنى الشاعر، وعبد الصمد الكاتب، والقاضى العويرس، وداعى الدعاة وغيرهم من جند المصريين ورجالتهم السودان، وحاشية القصر، ووافقهم جماعة من أمراء صلاح الدين وجنده، واتفق رأيهم على استدعاء الفرنج من صقلية، ومن ساحل الشام إلى ديار مصر على شيء بذلوه لهم من المال والبلاد، فإذا قصدوا البلاد، فإن خرج صلاح الدين بنفسه إليهم ثاروا هم فى القاهرة ومصر وأعادوا الدولة العلوية، وعاد من معه من العسكر الذين وافقوهم عنه، فلا يبقى له مقام مقابل الفرنج، وإن كان صلاح الدين يقيم ويرسل العساكر إليهم ثاروا به، وأخذوه أخذاً باليد لعدم الناصر له والمساعد، وقال لهم عمارة : وأنا قد أبعدت أخاه إلى اليمن خوفاً أن يسد مسده وتجتمع الكلمة عليه بعده .

وأرسلوا إلى الفرنج بصقلية والساحل فى ذلك، وتقررت القاعدة بينهم، ولم يبق إلا رحيل الفرنج، وكان من لطف الله بالمسلمين أن الجماعة المصريين أدخلوا

معهم فى هذا الأمير زين الدين على بن نجا الواعظ، المعروف بابن نجية، ورتبوا الخليفة والوزير والحاجب والداعى والقاضى، إلا أن بنى رزيك قالوا : يكون الوزير منا، وبنى شاور قالوا : يكون الوزير منا، فلما علم ابن نجا الحال حضر عند صلاح الدين، وأعلمه حقيقة الأمر، فأمر بملازمتهم، ومخالطتهم، ومواطأتهم على ما يريدون أن يفعلوه، وتعريفه ما يتجدد أولاً بأول، ففعل ذلك وصار يطالعه بكل ما عزموا عليه .

ثم وصل رسول من ملك الفرنج بالساحل الشامى إلى صلاح الدين بهدية ورسالة، وهو فى الظاهر إليه، والباطن إلى أولئك الجماعة، وكان يرسل إليهم بعض النصارى وتأتيه رسلهم، فأتى الخبر إلى صلاح الدين من بلاد الفرنج بجلية الحال، فوضع صلاح الدين على الرسول بعض من يثق به من النصارى، وداخله، فأخبره الرسول بالخبر على حقيقته، فقبض حينئذ على المقدمين فى هذه الحادثة منهم : عمارة وعبد الصمد والعويرس وغيرهم وصلبهم .

وقيل فى كشف أمرهم إن عبد الصمد المذكور كان إذا لقى القاضى الفاضل الكاتب الصلاحى يخدمه ويتقرب إليه بجهده وطاقته، فلقيه يوماً، فلم يلتفت إليه، فقال القاضى الفاضل: ما هذا إلا لسبب . وخاف أن يكون قد صار له باطن من صلاح الدين، فأحضر على بن نجا الواعظ وأخبره الحال، وقال : أريد أن تكشف لى الأمر، فسعى فى كشفه فلم ير له من جانب صلاح الدين شيئاً، فعدل إلى الجانب الآخر، فكشف الحال، وحضر عند القاضى الفاضل وأعلمه، فقال : تحضر الساعة عند صلاح الدين وتنهى الحال إليه، فحضر عند صلاح الدين وهوفى الجامع، فذكر له الحال، فقام وأخذ الجماعة وقررهم، فأقروا، فأمر بصلبهم .

وكان عمارة بينه وبين الفاضل عداوة من أيام العاضد وقبلها، فلما أراد صلبه قام القاضى الفاضل وخاطب صلاح الدين فى إطلاقه، وظن عمارة أنه يحرض على هلاكه، فقال لصلاح الدين : يا مولانا لا تسمع منه فى حقى، فغضب الفاضل وخرج، وقال صلاح الدين لعمارة : إنه كان يشفع فيك، فندم، ثم أخرج

عمارة ليصلب، فطلب أن يمر به على مجلس الفاضل، فاجتازوا به عليه، فأغلق بابه ولم يجتمع به، فقال عمارة :

عبد الرحيم قد احتجب ... إن الخلاص هو العجب

ثم صلب هو والجماعة، ونودى فى أجناد المصريين بالرحيل من ديار مصر ومفارقتها إلى أقاصى الصعيد، واحتيط على من بالقصر من سلالة العاضد وغيره من أهله .

وأما الذين نافقوا على صلاح الدين من جنده فلم يعرض لهم، ولا أعلمهم أنه علم بحالهم، وأما الفرنج، فعن فرنج صقلية قصدوا الإسكندرية على ما نذكره إن شاء الله تعالى، لأنهم لم يتصل بهم ظهور عند صلاح الدين، وأما فرنج الساحل الشامى فإنهم لم يتحركوا لعلمهم بحقيقة الحال. وكان عمارة شاعراً مفلقاً، فمن شعره :

لوان قلبى يوم كاظمة معى ... لملكته وكظمت فيض الأدمع

قلب كفاك من الصبابة أنه ... لبى نداء الظاعنين وما دعى

ما القلب أول غادر فألومه ... هى شيمة الأيام من خلقت معى

ومن الظنون الفاسدات توهمى ... بعد اليقين بقاءه فى أضلعى .

وله أيضاً :

لى فى هوى الرشا العذرى إعذار ... لم يبق لى مذ أقر الدمع إنكار

لى فى القدود وفى لثم الخدود وفى ... ضم النهود لبانات وأوطار

هذا اختيارى فوافق إن رضيت به ... أولا فدعنى وما أهوى واختار

وله ديوان شعر مشهور فى غاية الحسن والرقة والملاحة.

ذكر وفاة نور الدين محمود بن زنكى، رحمه الله

فى هذه السنة توفى نور الدين محمود بن زنكى بن آقسنقر، صاحب الشام وديار الجزيرة ومصر، يوم الأربعاء حادى عشر شوال، بعلة الخوانيق، ودفن بقلعة دمشق، ونقل منها إلى المدرسة التى أنشأها بدمشق، عند سوق الخواصين .

ومن عجيب الاتفاق أنه ركب ثانى شوال وإلى جانبه بعض الأمراء الأخيار، فقال له الأمير : سبحان من يعلم هل نجتمع هنا فى العام المقبل أم لا ؟ فقال نور الدين : لا تقل هكذا، بل سبحان من يعلم هل نجتمع بعد شهر أم لا ؟ فمات نور الدين، رحمه الله، بعد أحد عشر يوماً، ومات الأمير قبل الحول فأخذ كل منهما بما قاله .

وكان قد شرع يتجهز للدخول إلى مصر لأخذها من صلاح الدين يوسف ابن أيوب، فإنه رأى فتوراً فى غزوالفرنج من ناحيته، وكأن يعلم أنه إنما يمنع صلاح الدين من الغزوالخوف ومن الاجتماع به، فإنه يؤثر كون الفرنج فى الطريق ليمتنع بهم على نور الدين، فأرسل إلى الموصل وديار الجزيرة وديار بكر يطلب العساكر للغزاة، وكان عزمه أن يتركها مع ابن أخيه سيف الدين غازى، صاحب الموصل بالشام، ويسير هوبعساكره إلى مصر، فبينما هويتجهز لذلك أتاه أمر الله الذى لا مرد له .

حكى لى طبيب يعرف بالطبيب الرحبى وهوكان يخدم نور الدين، وهومن حذاق الأطباء، قال : استدعانى نور الدين فى مرضه الذى توفى فيه مع غيرى من الأطباء، فدخلنا إليه وهوفى بيت صغير بقلعة دمشق، وقد تمكنت الخوانيق منه، وقارب الهلاك، فلا يكاد يسمع صوته، وكان يخلو فيه للتعبد، فابتدأ به المرض، فلم ينتقل عنه، فلما دخلنا ورأينا ما به قلت له :

كان ينبغى أن لا تؤخر إحضارنا إلى أن يشتد بك المرض الآن، وينبغى أن تعجل الانتقال من هذا الموضع إلى مكان فسيح مضىء، فله أثر فى هذا المرض. وشرعنا فى علاجه، وأشرنا بالفصد، فقال: ابن ستين لا يفصد، وامتنع منه، فعالجناه بغيره، فلم ينجح فيه الدواء، وعظم الداء، ومات، رحمه الله ورضى عنه.

وكان أسمر طويل القامة، وليس له لحية إلا فى حنكه، وكان واسع الجبهة، حسن الصورة، حلوالعينين، وكان قد اتسع ملكه جداً، وخطب له بالحرمين الشريفين وباليمن لما دخلها شمس الدولة بن أيوب وملكها، وكان مولده سنة

إحدى عشرة وخمسمائة، وطبق ذكره بحسن سيرته وعدله . وقد طالعت سير الملوك المتقدمين، فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن من سيرته، ولا أكثر تحرياً منه للعدل .

وقد أتينا على كثير من ذلك فى كتاب الباهر من أخبار دولتهم، ولنذكر ها هنا نبذة مختصرة لعل يقف عليها من له حكم فيقتدى به، فمن ذلك زهده وعبادته وعلمه، فإنه كان لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف فى الذى يخصه إلا من ملك كان له قد اشتراه من سهمه من الغنيمة ومن الأموال المرصدة لمصالح المسلمين، ولقد شكت إليه زوجته من الضائقة، فأعطاها ثلاثة دكاكين فى حمص كانت له، منها يحصل له فى السنة نحو عشرين ديناراً، فلما استقلتها قال : ليس لى إلا هذا، وجميع ما بيدى أنا فيه خازن للمسلمين لا أخونهم فيه، ولا أخوض نار جهنم لأجلك .

وكان يصلى كثيراً بالليل، وله فيه أوراد حسنة، وكان كما قيل :

جمع الشجاعة والخشوع لربه ... ما أحسن المحراب فى المحراب

وكان عارفاً بالفقه على مذهب أبى حنيفة، ليس عنده تعصب، وسمع الحديث، وأسمعه طلباً للأجر .

وأما عدله، فإنه لم يترك فى بلاده، على سعتها، مكساً ولا عشراً بل أطلقها جميعها فى مصر والشام والجزيرة والموصل، وكان يعظم الشريعة، ويقف عند أحكامها، وأحضره إنسان إلى مجلس الحكم، فمضى معه إليه، وأرسل إلى القاضى كمال الدين بن الشهرزورى يقول : قد جئت محاكماً، فاسلك معى ما تسلك مع الخصوم، وظهر الحق له، فوهبه الخصم الذى أحضره، وقال : أردت أن أترك له ما يدعيه، إنما خفت أن يكون الباعث لى على ذلك الكبر والأنفة من الحضور إلى مجلس الشريعة، فحضرت، ثم وهبته ما يدعيه .

وبنى دار العدل فى بلاده، وكان يجلس هو والقاضى فيها ينصف المظلوم، ولوأنه يهودى، من الظالم ولو أنه ولده أو أكبر أمير عنده .

وأما شجاعته، فإليها النهاية، وكان فى الحرب يأخذ قوسين وتركشين ليقاتل بها، فقال له القطب النشاوى الفقيه : بالله عليك لا تخاطر بنفسك وبالإسلام والمسلمين، فإن أصبت فى معركة لا يبقى من المسلمين أحد إلا أخذه السيف . فقال له نور الدين : ومن محمود حتى يقال له هذا ؟ من قبلى من حفظ البلاد والإسلام ؟ ذلك الله الذى لا إله إلا هو.

وأما ما فعله من المصالح، فإنه بنى أسوار مدن الشام جميعها وقلاعها، فمنها دمشق وحمص وحماة وحلب وشيزر وبعلبك وغيرها، وبنى المدارس الكثيرة للحنفية والشافعية، وبنى الجامع النورى بالموصل، وبنى البيمارستانات والخانات فى الطرق، وبنى الخانكاهات للصوفية فى جميع البلاد، ووقف على الجميع الوقوف الكثيرة. سمعت أن حاصل وقفه كل شهر تسعة آلاف دينار صورى . وكان يكرم العلماء وأهل الدين ويعظمهم ويعطيهم ويقوم إليهم ويجلسهم معه، وينبسط معهم، ولا يرد لهم قولاً، ويكاتبهم بخط يده، وكان وقوراً مهيباً مع تواضعه، وبالجملة فحسناته كثيرة ومناقبه غزيرة لا يحتملها هذا الكتاب .

ثم دخلت سنة سبعين وخمسمائة

ذكر وصول أسطول صقلية إلى مدينة الإسكندرية وانهزامهم منها، وملك صلاح الدين دمشق، وحمص وحماة، وقلعة بعرين، وهروب قطب الدين قايماز من بغداد.

ثم دخلت سنة إحدى وسبعين وخمسمائة

ذكر انهزام سيف الدين من صلاح الدين، وحصره حلب، وذكر الفتنة بمكة وعزل أميرها وإقامة غيره.

ذكر عدة حوادث

فى هذه السنة، فى شهر رمضان، انكسفت الشمس جميعها، وأظلمت الأرض حتى بقى الوقت كأنه ليل مظلم، وظهرت الكواكب، وكان ذلك ضحوة النهار يوم الجمعة التاسع والعشرين منه، وكنت حينئذ صبياً بظاهر جزيرة ابن عمر مع شيخ لنا من العلماء أقرأ عليه الحساب، فلما رأيت ذلك خفت خوفاً شديداً،

وتمسكت به، فقوى قلبى، وكان عالماً بالنجوم أيضاً، وقال لى : الآن ترى هذا جميعه، فانصرف سريعاً .

وفيها ولى الخليفة المستضىء بأمر الله حجابة الباب أبا طالب نصر بن على الناقد، وكان يلقب فى صغره قنبراً، فصاروا يصيحون به ذلك إذا خرج، فأمر الخليفة أن يركب معه جماعة من الأتراك ويمنعوا الناس، من ذلك، فامتنعوا، فلما كان قبل العيد خلع عليه ليركب فى الموكب، فاشترى جماعة من أهل بغداد من القنابر شيئاً كثيراً، وعزموا على إرسالها فى الموكب إذا رأوا ابن الناقد، فأنهى ذلك إلى الخليفة، وقيل له يصير الموكب ضحكة، فعزله وولى ابن المعوج .

وفيها، فى ذى الحجة، يوم العيد، وقعت فتنة ببغداد بين العامة وبعض الأتراك بسبب أخذ جمال النحر، فقتل بينهم جماعة ونهب شىء كثير من الأموال، ففرق الخليفة أموالاً جليلة فيمن نهب ماله .

وفيها زلزلت بلاد العجم من حد العراق إلى ما وراء الرى، وهلك فيها خلق كثير، وتهدمت دور كثيرة، وأكثر ذلك كان بالرى وقزوين .

وفيها، فى ربيع الآخر، استوزر سيف الدين غازى، صاحب الموصل، جلال الدين أبا الحسن على بن جمال الدين محمد بن على، وكان أبوه جمال الدين وزير البيت الأتابكى، وقد تقدمت أخباره، وهوالمشهور بالجود والإفضال، ولما ولى جلال الدين الوزارة ظهرت منه كفاية عظيمة، ومعرفة تامة بقوانين الوزارة، وله مكاتبات وعهود حسنة مدونة مشهورة، وكان جواداً فاضلاً خيراً، عمره لما ولى الوزارة، خمس وعشرون سنة .

وفيها، فى ذى الحجة، استناب سيف الدين أيضاً عنه بقلعة الموصل مجاهد الدين قايماز، وفوض إليه الأمور، وكان قبل ذلك فوض إليه الأمر بمدينة إربل وأعمالها، وكان رحمه الله، من صالحى الأمراء وأرباب المعروف، بنى كثيراً من الجوامع والخانات فى الطرق، والقناطر على الأنهار والربط وغير ذلك من أبواب البر، وكان دائم الصدقة، كثير الإحسان، عادل السيرة، رحمه الله .

وفيها قبض الخليفة على عماد الدين صندل المقتفوى، أستاذ الدار، ورتب مكانه أبا الفضل هبة الله بن على بن الصاحب .

وفيها، فى رمضان، قدم شمس الدولة تورانشاه بن أيوب الذى ملك اليمن إلى دمشق لما سمع أن أخاه صلاح الدين ملكها، حن إلى الوطن والأتراب ففارق اليمن وسار إلى الشام، وأرسل من الطريق إلى أخيه يعلمه بوصوله، وكتب فى الكتاب شعراً من قول ابن المنجم المصرى :

والى صلاح الدين أشكوانني	من بعده مضنى الجوانح مولع
جزعاً لبعد الدار منه ولم أكن	لولا هواه لبعد دار أجزع
فلأركبن إليه متن عزائمي	ويخب بى ركب الغرام ويوسع
ولأقطعن من النهار هواجراً	قلب النهار بحرها يتقطع
ولأسرين الليل لا يسرى به	طيف الخيال ولا البروق اللمع
واقدمن إليه قلبى مخبراً	أنى بجسمى من قريب اتبع
حتى أشاهد منه أسعد طلعة	من افقها صبح السعادة يطلع

وفى هذه السنة، فى المحرم، برز صلاح الدين من دمشق، وقد عظم شأنه بما ملكه من بلاد الشام، وبكسره عسكر الموصل، فخافه الفرنج وغيرهم، وعزم على دخول بلدهم ونهبه والإغارة عليه، فأرسلوا إليه يطلبون الهدنة معه، فأجابهم إليها وصالحهم، فأمر العساكر المصرية بالعود إلى مصر والاستراحة إلى أن يعاود طلبهم، وشرط عليهم أنه متى أرسل يستدعيهم لا يتأخرون، فساروا إليها وأقاموا بها إلى أن استدعاهم للحرب مع سيف الدين على ما نذكره .

وفيها مات أبوالحسن على بن عساكر البطائحى المقرئ، وكان قد سمع الحديث الكثير ورواه، وكان نحوياً جيداً .

وفى ذى الحجة منها توفى أبوسعد محمد بن سعيد بن محمد بن الرزاز، سمع الحديث ورواه، وله شعر جيد، فمن ذلك أنه كتب إليه بعض أصدقائه مكاتبة وضمنها شعراً، فأجابه :

يا من أياديه تغني من يعددها	وليس يحصي مداها من لها يصف
عجزت عن شكر ما أوليت من كرم	وصرت عبداً ولي في ذلك الشرف
أهديت منظوم شعر كله درر	فكل ناظم عقد دونه يقف
إذا أتيت بيت منه كان لنا	قصراً ودر المعاني فوقه شرف
وإن أتيت أنا بيتاً يناقضه	أتيت لكن ببيت سقفه يكف
وإنما حين أدنو منه أقتطف	ما كنت منه ولا من أهله أبداً

وقيل كانت وفاته سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة وهوالصحيح.

ثم دخلت سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة

ذكر ظفر للمسلمين بالفرنج وللفرنج بالمسلمين، ذكر عصيان صاحب شهرزور على سيف الدين، ونهب البندنيجين.

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة

ذكر انهزام صلاح الدين بالرمله،وحصر الفرنج مدينة حماة،وقتل كمشتكين.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، في المحرم، خطب للسلطان طغرل بن أرسلان بن طغرل ابن محمد بن ملكشاه المقيم عند إيلدكز بهمذان، وكان أبوه أرسلان توفي .

وفيها سابع شوال، هبت ببغداد ريح عظيمة، فزلزلت الأرض، واشتد الأمر على الناس حتى ظنوا أن القيامة قد قامت، فبقي ذلك ساعة ثم انجلت، وقد وقع كثير من الدور، ومات جماعة كثيرة .

وفيها رابع ذي القعدة، قتل عضد الدين أبوالفرج محمد بن عبد الله بن هبة الله بن المظفر بن رئيس الرؤساء أبي القاسم بن المسلمة وزير الخليفة، وكان قد عزم على الحج فعبر دجلة ليسير، وعبر معه أرباب مناصب، وهو في موكب عظيم لقبه قطفتا لقيه كهل فقال : أنا مظلوم، وتقدم ليسمع الوزير كلامه، فضربه بسكين في خاصرته، فصاح الوزير قتلتني ! ووقع من الدابة، وسقطت

عمامته، فغطى رأسه بكمه، وضرب الباطنى بسيف، وعاد إلى الوزير فضربه، وأقبل حاجب الباب ابن المعوج لينصر الوزير، فضربه الباطنى بسكين وقيل ضربه رفيق كان للباطنى، ثم قتل الباطنى ورفيقه، وكان لهما رفيق ثالث، فصاح وبيده سكين فقتل ولم يعمل شيئاً. وأحرقوا ثلاثتهم وحمل الوزير إلى دار له هناك، وحمل حاجب الباب مجروحاً إلى بيته، فمات هو والوزير، وحمل الوزير فدفن عند أبيه بمقبرة الرباط عند جامع المنصور .

وكان الوزير قد رأى فى المنام أنه معانق عثمان بن عفان، وحكى عنه ولده أنه اغتسل قبل خروجه، وقال : هذا غسل الإسلام، وأنا مقتول بلا شك، وكان مولده فى جمادى الأولى سنة أربع عشرة وخمسمائة، وكان أبوه أستاذ دار المقتفى لأمر الله، فلما مات ولى هو مكانه، فبقى كذلك إلى أن مات المقتفى، فأقره المستنجد على ذلك ورفع قدره، فلما ولى المستضىء استوزره، وكان حافظاً للقرآن، سمع الحديث، وله معروف كثير، وكانت داره مجمعاً للعلماء، وختمت أعماله بالشهادة وهو على قصد الحج .

وفيها كانت فتنة ببغداد، وسببها أنه حضر قوم من مسلمى المدائن إلى بغداد، فشكوا من يهودها، وقالوا: لنا مسجد نؤذن فيه ونصلى، وهومجاور الكنيسة، فقال لنا اليهود: قد آذيتمونا بكثرة الأذان، فقال المؤذن: ما نبالى بذلك، فاختصموا، وكانت فتنة استظهر فيها اليهود، فجاء المسلمون يشكون منهم، فامر ابن العطار، وهوصاحب المخزن، بحبسهم، ثم أخرجوا، فقصدوا جامع القصر، واستغاثوا قبل صلاة الجمعة، فخفف الخطيب الخطبة والصلاة، فعادوا يستغيثون، فأتاهم جماعة من الجند ومنعوهم، فلما رأى العامة ما فعل بهم غضبوا نصرة للإسلام، فاستغاثوا، وقالوا أشياء قبيحة، وقلعوا طوابيق الجامع، ورجموا الجند فهربوا، ثم قصد العامة دكاكين المخلطين، لأن أكثرهم يهود، فنهبوها، وأراد حاجب الباب منعهم، فرجموه فهرب منهم، وانقلب البلد، وخربوا الكنيسة التى عند دار البساسيرى، وأحرقوا التوراة فاختفى اليهود، وأمر الخليفة

أن تنقض الكنيسة التى بالمدائن وتجعل مسجداً، ونصب بالرحبة أخشاب ليصلب عليها قوم من المفسدين، فظنها العامة نصبت تخويفاً لهم لأجل ما فعلوا، فعلقوا عليها فى الليل جرذاناً ميتة، وأخرج جماعة من الحبس لصوص فصلبوا عليها .

وفيها فى شعبان، قبض سيف الدين غازى، صاحب الموصل، على وزيره جلال الدين على بن جمال الدين بغير جرم ولا عجز، ولا لتقصير، بل لعجز سيف الدين، فإن جلال الدين كان بينه وبين مجاهد الدين قايماز مشاحنة، فقال مجاهد الدين لسيف الدين : لا بد من قبض الوزير، فقبض عليه كارهاً لذلك، ثم شفع ابن نيسان رئيس آمد لصهر بينهما، فأخرج، وسار إلى آمد فمرض بها، وعاد إلى دنيسر، فمات سنة أربع وسبعين وخمسمائة وعمره سبع وعشرون سنة، وحمل إلى مدينة النبى، صلى الله عليه وسلم، فدفن عند والده فى الرباط الذى بناه بها .

وكان، رحمه الله، من محاسن الدنيا، جمع كرماً، وعلماً، وديناً، وعفة، وحسن سيرة، واستحلفه سيف الدين أنه لا يمضى على صلاح الدين لأنه خاف أن يمضى إليه للمودة التى كانت بين جمال الدين وبين نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه، فبلغنى أن صلاح الدين طلبه فلم يقصده لليمين .

وفيها اجتمع طائفة من الفرنج وقصدوا أعمال حمص فنهبوها وغنموا، وأسروا وسبوا، فسار ناصر الدين محمد بن شيركوه، صاحب حمص، وسبقهم ووقف على طريقهم . وكمن لهم، فلما ولوا إليه خرج إليهم هو والكمين، ووضعوا السيف فيهم، فقتل أكثرهم وأسر جماعة من مقدمتهم. ومن سلم منهم لم يفلت إلا وهو مثخن بالجراح، واسترد منهم جميع ما غنموا فرده على أصحابه .

وفيها فى ربيع الآخر، توفى صدقة بن الحسين الحداد، الذى ذيل تاريخ ابن الزغونى ببغداد .

وفيها فى جمادى الأولى، توفى محمد بن أحمد بن عبد الجبار الفقيه الحنفى المعروف بالمشطب ببغداد .

ثم دخلت سنة أربع وسبعين وخمسمائة

ذكر عصيان ابن المقدم على صلاح الدين، وذكر الغلاء والوباء، وغارات الفرنج على بلاد المسلمين.

ثم دخلت سنة خمس وسبعين وخمسمائة

ذكر وفاة المستضىء بأمر الله وخلافة الناصر لدين الله

فى هذه السنة، فى ثانى ذى القعدة، توفى الإمام المستضىء بأمر الله أمير المؤمنين أبومحمد الحسن بن يوسف المستنجد، رضى الله عنه، وأمه أم ولد أرمنية تدعى غضة، وكانت خلافته نحوتسع سنين وسبعة أشهر، وكان مولده سنة ست وثلاثين وخمسمائة، وكان عدلاً حسن السيرة فى الرعية .

كثير البذل للأموال، غير مبالغ فى أخذ ما جرت العادة بأخذه، وكان الناس معه فى أمن عام وإحسان شامل، وطمأنينة وسكون، لم يروا مثله، وكان حليماً، قليل المعاقبة على الذنوب، محباً للعفو والصفح عن المذنبين، فعاش حميداً ومات سعيداً، رضى الله عنه، فلق كانت أيامه كما قيل :

كأن أيامه من حسن سيرته   مواسم الحج والأعياد والجمع

ووزر له عضد الدين أبوالفرج بن رئيس الرؤساء الذى قتل فى ذى القعدة سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة، ولما قتل حكم فى الدولة ظهير الدين أبوبكر منصور ابن نصر المعروف بابن العطار، وكان خيراً، حسن السيرة، كثير العطاء، وتمكن تمكنا كثيراً، فلما مات المستضىء شرع ظهير الدين ابن العطار فى أخذ البيعة لولده الناصر لدين الله، أمير المؤمنين، فلما تمت البيعة صار الحاكم فى الدولة أستاذ الدار مجد الدين أبوالفضل بن الصاب .

وفى سابع ذى القعدة قبض على ابن العطار ظهير الدين، ووكل عليه فى داره، ثم نقل إلى التاج، وقيد ووكل به، وطلبت ودائعه وأمواله، وفى ليلة الأربعاء ثامن عشر ذى القعدة أخرج ميتا على رأس حمال سراً، فغمز به بعض الناس، فثار به العامة، فألقوه عن رأس الحمال، وكشفوا سوءته وشجوا فى ذكره حبلاً وسحبوه فى

البلد، وكانوا يضعون بيده مغرفة يعنى أنها قلم وقد غمسوها فى العذرة ويقولون: وقع لنا مولانا، إلى غير هذا من الأفعال الشنيعة، ثم خلص من أيديهم ودفن.

هذا فعلهم به مع حسن سيرته فيهم وكفه عن أموالهم وأعراضهم، وسيرت الرسل إلى الآفاق لأخذ البيعة، فسير صدر الدين شيخ الشيوخ إلى البهلوان، صاحب همذان وأصفهان والرى وغيرها، فامتنع من البيعة، فراجعه صدر الدين، وأغلظ له فى القول، حتى إنه قال لعسكره فى حضرته: ليس لهذا عليكم طاعة ما لم يبايع أمير المؤمنين، بل يجب عليكم أن تخلعوه من الإمارة، وتقاتلوه، فاضطر إلى البيعة والخطبة، وأرسل إلى رضى الدين القزوينى مدرس النظامية إلى الموصل لأخذ البيعة، فبايع صاحبها، وخطب للخليفة الناصر لدين الله أمير المؤمنين .

ثم دخلت سنة ست وسبعين وخمسمائة

ذكر قصد صلاح الدين بلد ابن ليون الأرمنى

وفيها قصد صلاح الدين بلد ابن ليون الأرمنى بعد فراغه من أمر قلج أرسلان، وسبب ذلك أن ابن ليون الأرمنى كان قد استمال قوماً من التركمان وبذل لهم الأمان، فأمرهم أن يرعوا مواشيهم فى بلاده . وهى بلاد حصينة كلها حصون منيعة، والدخول إليها صعب . لأنها مضايق وجبال وعرة، ثم غدر بهم وسبى حريمهم، وأخذ أموالهم، وأسر رجالهم بعد أن قتل منهم من حان أجله .

ونزل صلاح الدين على النهر الأسود، وبث الغارات على بلاده، فخاف ابن ليون على حصن له على رأس جبل أن يؤخذ فخربه وأحرقه، فسمع صلاح الدين بذلك، فأسرع السير إليه، فأدركه قبل أن ينقل ما فيه من ذخائر وأقوات، فغنمها، وانتفع المسلمون بما غنموه، فأرسل ابن ليون يبذل إطلاق من عنده من الأسرى والسبى وإعادة أموالهم على أن يعودوا عن بلاده، فأجابه صلاح الدين إلى ذلك، واستقر الحال، وأطلق الأسرى وأعيدت أموالهم، وعاد صلاح الدين عنه فى جمادى الآخرة .

ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة

ذكر حصر صلاح الدين الكرك،والغارة على عكا،وفتح طبرية.

ذكر انهزام الفرنج بحطين

أصبح صلاح الدين والمسلمون يوم السبت الخمس بقين من ربيع الآخر، فركبوا وتقدموا إلى الفرنج، ودنا بعضهم من بعض، إلا أن الفرنج قد اشتد بهم العطش وانخذلوا، فاقتتلوا، واشتد القتال، وصبر الفريقان، ورمى جاليشية المسلمين من النشاب ما كان كالجراد المنتشر، فقتلوا من خيول الفرنج كثيراً. هذا القتال بينهم، والفرنج قد جمعوا نفوسهم براجلهم وهم يقاتلون سائرين، نحوطبرية، لعلهم يردون الماء .

فلما علم صلاح الدين مقصدهم صدهم عن مرادهم، ووقف بالعسكر فى وجوههم، وطاف بنفسه على المسلمين يحرضهم، ويأمرهم بما يصلحهم، وينهاهم عما يضرهم، والناس يأتمرون لقوله . ويقفون عند نهيه، فحمل مملوك من مماليكه الصبيان حملة منكرة على صف الفرنج، فقاتل قتالاً عجب منه الناس. ثم تكاثر الفرنج عليه فقتلوه، فحين قتل حمل المسلمون حملة منكرة فضعضعوا الكفار وقتلوا منهم كثيراً. فلما رأى القمص شدة الأمر علم أنهم لا طاقة لهم بالمسلمين، فاتفق هو وجماعته وحملوا على من يليهم، وكان المقدم من المسلمين، فى تلك الناحية، تقى الدين عمر ابن أخى صلاح الدين، فلما رأى حملة الفرنج حملة مكروب، علم أنه لا سبيل إلى الوقوف فى وجوههم. فأمر أصحابه أن يفتحوا لهم طريقاً يخرجون منه، ففعلوا فخرج القمص وأصحابه ثم التأم الصف.

وكان بعض المتطوعة من المسلمين قد ألقى فى تلك الأرض ناراً وكان الحشيش كثيراً فاحترق، وكانت الريح على الفرنج فحملت حر النار والدخان إليهم، فاجتمع عليهم العطش وحر الزمان وحر النار، والدخان، وحر القتال، فلما انهزم القمص سقط فى أيديهم وكادوا يستسلمون، ثم علموا أنهم لا ينجيهم من الموت إلا الإقدام عليه، فحملوا حملات متداركة كادوا يزيلون بها المسلمين، على

كثرتهم، عن مواقفهم لولا لطف الله بهم، إلا أن الفرنج لا يحملون حملة فيرجعون إلا وقد قتل منهم، فوهنوا لذلك وهناً عظيماً، فأحاط بهم المسلمون إحاطة الدائرة بقطرها، فارتفع من بقى من الفرنج إلى تل بناحية حطين، وأرادوا أن ينصبوا خيامهم، ويحموا نفوسهم بها، فاشتد القتال عليهم من سائر الجهات، ومنعوهم عما أرادوا، ولم يتمكنوا من نصب خيمة غير خيمة ملكهم، وأخذ المسلمون صليبهم الأعظم الذى يسمونه صليب الصلبوت، ويذكرون أن فيه قطعة من الخشبة التى صلب عليها المسيح، عليه السلام، بزعمهم، فكان أخذه عندهم من أعظم المصائب عليهم، وأيقنوا بعده بالقتل والهلاك . هذا والقتل والأسر يعملان فى فرسانهم ورجالتهم، فبقى الملك على التل فى مقدار مائة وخمسين فارساً من الفرسان المشهورين والشجعان المذكورين .

فحكى لى عن الملك الأفضل، ولد صلاح الدين، قال: كنت إلى جانب أبى فى ذلك المصاف، وهو أول مصاف شاهدته، فلما صار ملك الفرنج على التل فى تلك الجماعة حملوا حملة منكرة على من بإزائهم من المسلمين حتى ألحقوهم بوالدى. قال: فنظرت إليه، وقد علته كآبة، وأربد لونه، وأمسك بلحيته، وتقدم، وهويصيح: كذب الشيطان، قال : فعاد المسلمون على الفرنج، فرجعوا إلى التل، فلما رأيت الفرنج قد عادوا، والمسلمون يتبعونهم، صحت من فرحى : هزمناهم ! فعاد الفرنج فحملوا حملة ثانية مثل الأولى حتى ألحقوا المسلمين بوالدى، وفعل مثل ما فعل أولاً، وعطف المسلمون عليهم فألحقوهم بالتل، فصحت أنا أيضاً: هزمناهم ! فالتفت والدى إلى وقال: اسكت ! ما نهزمهم حتى تسقط تلك الخيمة، قال: فهو يقول لى، وإذا الخيمة قد سقطت، فنزل السلطان وسجد شكراً لله تعالى، وبكى من فرحه .

وكان سبب سقوطها أن الفرنج لما حملوا تلك الحملات ازدادوا عطشاً، وقد كانوا يرجون الخلاص فى بعض تلك الحملات مما هم فيه، فلما لم يجدوا إلى الخلاص طريقاً، نزلوا عن دوابهم وجلسوا على الأرض، فصعد المسلمون إليهم، فألقوا خيمة الملك، وأسروهم على بكرة أبيهم، وفيهم الملك وأخوه، والبرنس أرناط، صاحب الكرك، ولم يكن للفرنج أشد منه عداوة للمسلمين، وأسروا أيضاً

صاحب جبيل، وابن هنفرى، ومقدم الداوية، وكان من أعظم الفرنج شأناً، وأسروا أيضاً جماعة من الداوية، وجماعة من الاسبتارية، وكثر القتل والأسر فيهم، فكان من يرى القتلى لا يظن أنهم أسروا واحداً، ومن يرى الأسرى لا يظن أنهم قتلوا أحداً، وما أصيب الفرنج، منذ خرجوا إلى الساحل، وهو سنة إحدى وتسعين وأربعمائة إلى الآن، بمثل هذه الوقعة .

فلما فرغ المسلمون منهم نزل صلاح الدين فى خيمته، وأحضر ملك الفرنج عنده، وبرنس صاحب الكرك، وأجلس الملك إلى جانبه وقد أهلكه العطش، فسقاه ماء مثلوجاً، فشرب، وأعطى فضله برنس صاحب الكرك، فشرب. فقال صلاح الدين : إن هذا الملعون لم يشرب الماء بإذنى فينال أمانى، ثم كلم البرنس، وقرعه بذنوبه، وعدد عليه غدراته، وقام إليه بنفسه فضرب رقبته وقال : كنت نذرت دفعتين أن أقتله إن ظفرت به : إحداهما لما أراد المسير إلى مكة والمدينة، والثانية لما أخذ القفل غدراً، فلما قتله وسحب وأخرج ارتعدت فرائص الملك، فسكن جأشه وأمنه .

وأما القمص، صاحب طرابلس، فإنه لما نجا من المعركة، كما ذكرناه، وصل إلى صور، ثم قصد طرابلس، ولم يلبث إلا أياماً قلائل حتى مات غيظاً وحنقاً مما جرى عل الفرنج خاصة، وعلى دين النصرانية عامة .

ذكر فتح مدينة عكا، ومجدل يابا ويافا، وتبنين وصيدا وجبيل وبيروت، وفتح عسقلان وما يجاورها.

ذكر فتح البيت المقدس

لما فرغ صلاح الدين من أمر عسقلان وما يجاورها من البلاد، على ما تقدم، وكان قد أرسل إلى مصر أخرج الأسطول الذى بها فى جمع من المقاتلة، ومقدمهم حسام الدين لؤلؤ الحاجب، وهومعروف بالشجاعة، والشهامة، ويمن النقيبة، فأقاموا فى البحر يقطعون الطريق على الفرنج، كما رأوا لهم مركباً غنموه، وشانياً أخذوه، فحين وصل الأسطول وخلا سره من تلك الناحية سار عن عسقلان إلى البيت المقدس، وكان به البطرك المعظم عندهم، وهوأعظم شأناً من

ملكهم، وبه أيضاً باليان بن بيرزان، صاحب الرملة، وكانت مرتبته عندهم تقارب مرتبة الملك، وبه أيضاً من خلص من فرسانهم من حطين، وقد جمعوا وحشدوا، واجتمع أهل تلك النواحي، عسقلان وغيرها، فاجتمع به كثيرمن الخلق، كلهم يرى الموت أيسر عليه من أن يملك المسلمون البيت المقدس ويأخذوه منهم، ويرى أن بذل نفسه وماله وأولاده بعض ما يجب عليه من حفظه، وحصنوه تلك الأيام بما وجدوا إليه سبيلاً، وصعدوا على سوره بحدهم وحديدهم، مجمعين على حفظه والذب عنه بجهدهم وطاقتهم، مظهرين العزم على العزم والمناضلة دونه بحسب استطاعتهم، ونصبوا المجانيق على أسواره ليمنعوا من يريد الدنو منه والنزول عليه.

ولما قرب صلاح الدين منه تقدم أمير فى جماعة من أصحابه، غير محتاط ولا حذر، فلقيه جمع من الفرنج قد خرجوا من القدس ليكونوا يزكاً، فقاتلوه وقاتلهم جماعة ممن معه، فأهم المسلمين قتله، وفجعوا بفقده، وساروا حتى نزلوا على القدس منتصف رجب، فلما نزلوا عليه رأى المسلمون على سوره من الرجال ما هالهم، وسمعوا لأهله من الجلبة، والضجيج من وسط المدينة ما استدلوا به على كثرة الجمع، وبقى صلاح الدين خمسة أيام يطوف حول المدينة لينظر من أين يقاتله، لأنه فى غاية الحصانة والامتناع، فلم يجد عليه موضع قتال إلا من جهة الشمال، نحو باب عمودا، وكنيسة صيهون، فانتقل إلى هذه الناحية فى العشرين من رجب ونزلها، ونصب تلك الليلة المجانيق، فأصبح من الغد وقد فرغ من نصبها، ورمى بها .

ونصب الفرنج على سور البلد مجانيق ورموا بها، وقوتلوا أشد قتال رآه أحد من الناس، كل واحد من الفريقين يرى ذلك ديناً، وحتماً واجباً، فلا يحتاج فيه إلى باعث سلطانى بل كانوا يمنعون ولا يمتنعون ويزجرون ولا ينزجرون .

وكان خيالة الفرنج كل يوم يخرجون إلى ظاهر البلد يقاتلون ويبارزون، فيقتل من الفريقين، وممن استشهد من المسلمين الأمير عز الدين عيسى ابن مالك،

وهومن أكابر الأمراء وكان أبوه صاحب قلعة جعبر، وكان يصطلى القتال بنفسه كل يوم، فقتل إلى رحمة الله تعالى، وكان محبوباً إلى الخاص والعام، فلما رأى المسلمون مصرعه عظم عليهم ذلك، وأخذ من قلوبهم، فحملوا حملة رجل واحد، فأزالوا الفرنج عن مواقفهم فأدخلوهم بلدهم، ووصل المسلمون إلى الخندق، فجازوه والتصقوا إلى السور فنقبوه، وزحف الرماة يحمونهم، والمجانيق توالى الرمى لتكشف الفرنج عن الأسوار ليتمكن المسلمون من النقب، فلما نقبوه حشوه بما جرت به العادة .

فلما رأى الفرنج شدة قتال المسلمين، وتحكم المجانيق بالرمى المتدارك، وتمكن النقابين من النقب، وأنهم قد أشرفوا على الهلاك، اجتمع مقدموهم يتشاورون فيما يأتون ويذرون، فاتفق رأيهم على طلب الأمان، وتسليم البيت المقدس إلى صلاح الدين، فأرسلوا جماعة من كبرائهم وأعيانهم فى طلب الأمان، فلما ذكروا ذلك للسلطان امتنع من إجابتهم، وقال : لا أفعل بكم إلا كما فعلتم بأهله حين ملكتموه سنة إحدى وتسعين وأربعمائة، من القتل والسبى وجزاء السيئة بمثلها . فلما رجع الرسل خائبين محرومين، أرسل باليان بن بيرزان وطلب لنفسه ليحضر عند صلاح الدين فى هذا الأمر وتحريره، فأجيب إلى ذلك، وحضر عنده، ورغب فى الأمان، وسأل فيه، فلم يجبه إلى ذلك، واستعطفه فلم يعطف عليه، واسترحمه فلم يرحمه .

فلما أيس من ذلك قال له : أيها السلطان اعلم أننا فى هذه المدينة فى خلق كثير لا يعلمهم إلا الله تعالى، وإنما يفترون عن القتال رجاء الأمان، ظناً منهم أنك تجيبهم إليه كما أجبت غيرهم، وهم يكرهون الموت ويرغبون فى الحياة، فإذا رأينا أن الموت لا بد منه، فوالله لنقتلن أبناءنا ونساءنا ونحرق أموالنا وأمتعتنا، ولا نترككم تغنمون منها ديناراً واحداً ولا درهماً، ولا تسبون وتأسرون رجلاً ولا امرأة، وإذا فرغنا من ذلك أخربنا الصخرة والمسجد الأقصى وغيرهما من المواضع، ثم نقتل من عندنا من أسارى المسلمين، وهم خمسة آلاف أسير، ولا

نترك لنا دابة ولا حيواناً إلا قتلناه ثم خرجنا إليكم كلنا فقاتلناكم قتال من يريد أن يحمى دمه ونفسه، وحينئذ لا يقتل الرجل حتى يقتل أمثاله، ونموت أعزاء أو نظفر كراماً .

فاستشار صلاح الدين أصحابه . فأجمعوا على إجابتهم إلى الأمان، وأن لا يخرجوا ويحملوا على ركوب ما لا يدرى عاقبة الأمر فيه عن أى شىء تتجلى، ونحسب أنهم أسارى بأيدينا، فنبيعهم نفوسهم بما يستقر بيننا وبينهم، فأجاب صلاح الدين حينئذ إلى بذل الأمان للفرنج، فاستقر أن يزن الرجل عشرة دنانير يستوى فيه الغنى والفقير، ويزن الطفل من الذكور والبنات دينارين، وتزن المرأة خمسة دنانير، فمن أدى ذلك إلى أربعين يوماً فقد نجا، ومن انقضت الأربعون يوماً عنه ولم يؤد ما عليه فقد صار مملوكاً، فبذل باليان بن بيرزان عن الفقراء ثلاثين ألف دينار، فأجيب إلى ذلك .

وسلمت المدينة يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب، وكان يوماً مشهوداً، ورفعت الأعلام الإسلامية على أسوارها، ورتب صلاح الدين على أبواب البلد، فى كل باب، أميناً من الأمراء ليأخذوا من أهله ما استقر عليهم، فاستعملوا الخيانة، ولم يؤدوا فيه أمانة، واقتسم الأمناء الأموال، وتفرقت أيدى سبا، ولوأديت فيه الأمانة لملأ الخزائن، وعم الناس، فإنه كان فيه على الضبط ستون ألف رجل ما بين فارس وراجل سوى من يتبعهم من النساء والولدان، ولا يعجب السامع من ذلك، فإن البلد كبير، واجتمع إليه من تلك النواحى من عسقلان وغيرها، والداروم، والرملة، وغزة وغيرهما من القرى، بحيث امتلأت الطرق والكنائس، وكان الإنسان لا يقدر أن يمشى .

ومن الدليل على كثرة الخلق أن أكثرهم وزن ما استقر من القطيعة، وأطلق باليان بن بيرزان ثمانية عشر ألف رجل وزن عنهم ثلاثين ألف دينار، وبقى بعد هذا جميعه من لم يكن معه ما يعطى، وأخذ أسيراً ستة عشر ألف آدمى ما بين رجل وامرأة وصبى، هذا بالضبط واليقين .

ثم إن جماعة من الأمراء ادعى كل واحد منهم أن جماعة من رعية إقطاعه مقيمون بالبيت المقدس، فيطلقهم ويأخذ هوقطيعتهم، وكان جماعة من الأمراء يلبسون الفرنج زى الجند المسلمين، ويخرجونهم، ويأخذون منهم قطيعة قرروها، واستوهب جماعة من صلاح الدين عدداً من الفرنج، فوهبهم لهم، فأخذوا قطيعتهم، وبالجملة فلم يصل إلى خزائنه إلا القليل.

وكان بالقدس بعض نساء الملوك من الروم قد ترهبت وأقامت به، ومعها من الحشم والعبيد والجوارى خلق كثير، ولها من الأموال والجواهر النفيسة شيء عظيم، فطلبت الأمان لنفسها ومن معها، فأمنها وسيرها .

وكذلك أيضاً أطلق ملكة القدس التى كان زوجها الذى أسره صلاح الدين قد ملك الفرنج بسببها، ونيابة عنها كان يقوم بالملك، وأطلق مالها وحشمها، واستأذنه فى المصير إلى زوجها، وكان حينئذ محبوساً بقلعة نابلس، فأذن لها، فأتته وأقامت عنده .

وأتته أيضاً امرأة للبرنس أرناط صاحب الكرك، وهوالذى قتله صلاح الدين بيده يوم المصاف بحطين، فشفعت فى ولد لها مأسور، فقال لها صلاح الدين : إن سلمت الكرك أطلقته، فسارت إلى الكرك، فلم يسمع منها الفرنج الذى فيه، ولم يسلموه فلم يطلق ولدها، ولكنه أطلق مالها ومن تبعها، وخرج البطرك الكبير الذى للفرنج، ومعه من أموال البيع منها : الصخرة والأقصى، وقمامة وغيرها، ما لا يعلمه إلا الله تعالى، وكان له من المال مثل ذلك، فلم يعرض له صلاح الدين، فقيل له ليأخذ ما معه يقوى به المسلمين، فقال : لا أغدر به، ولم يأخذ منه غير عشرة دنانير، وسير الجميع ومعهم من يحميهم إلى مدينة صور .

وكان على رأس قبة الصخرة صليب كبير مذهب، فلما دخل المسلمون البلد يوم الجمعة تسلق جماعة منهم إلى أعلى القبة ليقلعوا الصليب، فلما فعلوا وسقط صاح الناس كلهم صوتاً واحداً من البلد ومن ظاهره المسلمون والفرنج : أما المسلمون فكبروا فرحاً، وأما الفرنج فصاحوا تفجعاً وتوجعاً، فسمع الناس ضجة كادت الأرض أن تميد بهم لعظمها وشدتها .

فلما ملك البلد وفارقه الكفار أمر صلاح الدين بإعادة الأبنية إلى حالها القديم، فإن الداوية بنوا غربى الأقصى أبنية ليسكنوها، وعملوا فيها ما يحتاجون إليه من هرى ومستراح وغير ذلك، وأدخلوا بعض الأقصى فى أبنيتهم فأعيد إلى الأول، وأمر بتطهير المسجد والصخرة من الأقذار والأنجاس، ففعل ذلك أجمع .

ولما كان الجمعة الأخرى، رابع شعبان، صلى المسلمون فيه الجمعة، ومعهم صلاح الدين، وصلى فى قبة الصخرة، وكان الخطيب والإمام محيى الدين بن الزكى، قاضى دمشق، ثم رتب فيه صلاح الدين خطيباً وإماماً برسم الصلوات الخمس، وأمر أن يعمل له منبر، فقيل له : إن نور الدين محمود كان قد عمل بحلب منبراً أمر الصناع بالمبالغة فى تحسنه وإتقانه، وقال : هذا قد عملناه لينصب بالبيت المقدس، فعمله النجارون فى عدة سنين لم يعمل فى الإسلام مثله، فأمر بإحضاره، فحمل من حلب ونصب بالقدس، وكان بين عمل المنبر وحمله ما يزيد على عشرين سنة، وكان هذا من كرامات نور الدين وحسن مقاصده، رحمه الله .

ولما فرغ صلاح الدين من صلاة الجمعة تقدم بعمارة المسجد الأقصى واستنفاد الوسع فى تحسينه وترصيفه، وتدقيق نقوشه، فأحضروا من الرخام الذى لا يوجد مثله، ومن الفص المذهب القسطنطينى وغير ذلك مما يحتاجون إليه، قد ادخر على طول السنين، فشرعوا فى عمارته، ومحوا ما كان فى تلك الأبنية من الصور، وكان الفرنج فرشوا الرخام فوق الصخرة وغيبوها، فأمر بكشفها .

وكان سبب تغطيتها بالفرش أن القسيسين باعوا كثيراً منها للفرنج الواردين إليهم من داخل البحر للزيارة، فكانوا يشترونه بوزنه ذهباً رجاء بركتها، وكان أحدهم إذا دخل بلاده باليسير منها بنى له الكنيسة، ويجعل فى مذبحها، فخاف بعض ملوكهم أن تفنى، فأمر بها ففرش فوقها حفظاً لها، فلما كشفت نقل إليها صلاح الدين المصاحف الحسنة، والربعات الجيدة، ورتب القراء، وأدر عليهم

الوظائف الكثيرة، فعاد الإسلام هناك غضاً طرياً، وهذه المكرمة من فتح البيت المقدس لم يفعلها بعد عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، غير صلاح الدين، رحمه الله، وكفاه ذلك فخراً وشرفاً .

وأما الفرنج من أهله فإنهم أقاموا، وشرعوا فى بيع ما لا يمكنهم حمله من أمتعتهم وذخائرهم وأموالهم، وما لا يطيقون حمله، وباعوا ذلك بأرخص الثمن، فاشتراه التجار من أهل العسكر، واشتراه النصارى من أهل القدس الذين ليسوا من الفرنج، فإنهم طلبوا من صلاح الدين أن يمكنهم من المقام فى مساكنهم ويأخذ منهم الجزية، فأجابهم إلى ذلك، فاشتروا حينئذ من أموال الفرنج، وترك الفرنج أيضاً أشياء كثيرة لم يمكنهم بيعها من الآسرة والصناديق والبتيات، وغير ذلك، وتركوا أيضاً من الرخام الذى لا يوجد مثله، من الأساطين والألواح والفص وغيره، شيئاً كثيراً ثم ساروا .

وذكر رحيل صلاح الدين إلى صور ومحصارتها، وفتح هونين، وذكر الفتنة بعرفات وقتل ابن المقدم

ذكر عدة حوادث

فى هذه السنة فى ربيع الأول، قتل مجد الدين أبوالفضل بن الصاحب، وهوأستاذ دار الخليفة، أمر الخليفة بقتله، وكان متحكماً فى الدولة، ليس للخليفة معه حكم، وكان هو القيم بالبيعة له، وظهر له أموال عظيمة، أخذ جميعها، وكان حسن السيرة عفيفاً عن الأموال، وكان الذى سعى به إنسان من أصحابه وصنائعه، يقال له عبيد الله بن يونس، فسعى به إلى الخليفة، وقبح آثاره، فقبض عليه وقتله .

وفيها، فى ربيع الآخر، وقع حريق فى الحظائر ببغداد، واحترقت أحطاب كثيرة، وسببه أن فقيهاً بالمدرسة النظامية كان يطبخ طعاماً يأكله، فغفل عن النار والطبيخ، فعلقت النار واتصلت إلى الحظائر، فاحترقت جميعها، واحترق درب السلسلة وغيره مما يجاوره .

وفيها، فى شوال، استوزر الخليفة الناصر لدين الله أبا المظفر عبيد الله ابن يونس، ولقبه جلال الدين، ومشى أرباب الدولة فى ركابه، حتى قاضى القضاة، وكان ابن يونس من شهوده، وكان يمشى ويقول: لعن الله طول العمر .

وفيها، فى المحرم، توفى عبد المغيث بن زهير الحرى ببغداد وكان من أعيان الحنابلة، قد سمع الحديث الكثير، وصنف كتاباً فى فضائل يزيد بن معاوية أتى فيه بالعجائب، وقد رد عليه أبوالفرج بن الجوزى، وكان بينهما عداوة .

وفيها توفى قاضى القضاة أبوالحسن بن الدامغانى، وولى قضاء القضاة للمقتفى بعد موت الزينبى، ثم للمستنجد بالله، ثم عزل، ثم أعيد إلى المستضىء بأمر الله .

وفيها توفى الوزير جلال الدين أبوالحسن على بن جمال الدين أبى جعفر محمد بن منصور وزير صاحب الموصل، وهوالجواد ابن الجواد، وقد ذكرنا من أخباره وأخبار أبيه ما يعلم به محلهما، وحمل إلى مدينة النبى، صلى الله عليه وسلم، فدفن بها عند أبيه على بن خطاب بن ظفر الشيخ الصالح من جزيرة ابن عمر، وكان من الأولياء أرباب الكرامات، وصحبته أنا مدة، فلم أر مثله حسن خلق وسمت وكرم وعبادة، رحمه الله .

وفيها ولدت امرأة من سواد بغداد بنتاً لها أسنان .

وفيها توفى نصر بن فتيان بن مطر أبوالفتح بن المنى الفقيه الحنبلى، لم يكن لهم مثله، رحمه الله.

انتهى الجزء الحادى عشر



ونبدأ الآن رحلتنا الأخيرة عبر زمن ابن الأثير والأحداث المؤلمة التى عاصرها وكأنه على موعد معها ليمتلئ بالحزن والأسى لما صار إليه حال المسلمين حكامًا ومحكومين،وتبدأ تلك الأحداث من سنة أربع وثمانين وخمسمائة إلى سنة ثمان وعشرين وستمائة.

ثم دخلت سنة أربع وثمانين وخمسمائة

ذكر حصر صلاح الدين قلعة كوكب، ورحيله إلى بلد الفرنج، وفتح جبلة، ولاذقية، وذكر حال أسطول صقلية،وفتح صهيون وعدة حصون،وفتح سَرْمينية، وبرزية، ودرب ساك،وبغراس، وذكر الهدنة بين المسلمين وصاحب أنطاكية، وفتح الكرك وما يجاوره، وقلعة صفد، وذكر ظهور طائفة من الشيعة فى مصر، وانهزام عسكر الخليفة من السلطان طغرل.

ثم دخلت سنة خمس وثمانين وخمسمائة

ذكر فتح شقيف أرنوم، ووقعة اليزك مع الفرنج، ومسير الفرنج إلى عكا ومحاصرتها، والوقعة الكبرى على عكا، وذكر رحيل صلاح الدين عن الفرنج وتمكنهم من حصر عكا.

ذكر وصول عسكر مصر والأسطول المصرى فى البحر

فى منتصف شوال وصلت العسكر المصرية ومقدمها الملك العادل سيف الدين أبوبكر بن أيوب فلما وصل قويت نفوس الناس به وبمن معه واشتدت ظهورهم . وأحضر معه من آلات الحصار من الدرق والطارقيات والنشاب والأقواس شيئاً

كثيراً . ومعهم من الرجالة الجم الغفير . وجمع صلاح الدين من البلاد الشامية راجلاً كثيراً وهوعلى عزم الزحف إليهم بالفارس والراجل .

ووصل بعده الأسطول المصرى ومقدمه الأمير لؤلؤ وكان شهماً، شجاعاً مقداماً خبيراً بالبحر والقتال فيه ميمون النقيبة فوصل بغتة فوقع على بسطة كبيرة للفرنج فغنمها وأخذ منها أموالاً كثيرة وميرة عظيمة فأدخلها إلى عكا، فسكنت نفوس من بها بوصول الأسطول وقوى جنانهم .

ثم دخلت سنة ست وثمانين وخمسمائة

ذكر وقعة الفرنج واليزك وعود صلاح الدين إلى منازلة الفرنج، وإحراق الأبراج ووقعة الأسطول.

ذكر وصول ملك الألمان إلى الشام وموته

فى هذه السنة خرج ملك الألمان من بلاده، وهم نوع من الفرنج، من أكثرهم عدداً، وأشدهم بأساً، وكان قد أزعجه ملك الإسلام البيت المقدس فجمع عساكره، وأزاح علتهم، وسار عن بلاده وطريقه إلى القسطنطينية، فأرسل ملك الروم بها إلى صلاح الدين يعرفه الخبر ويعد أنه لا يمكنه من العبور فى بلاده.

فلما وصل ملك الألمان إلى القسطنطينية عجز ملكها عن منعه من العبور لكثرة جموعه، لكنه منع عنهم الميرة، ولم يمكن أحداً من رعيته من حمل ما يريدونه إليهم فضاقت بهم الأزواد والأقوات، وساروا حتى عبروا خليج القسطنطينية، وصاروا على أرض بلاد الإسلام وهى مملكة الملك قلج أرسلان ابن مسعود بن سليمان بن قتلمش بن سلجق . فلما وصلوا إلى أوائلها ثار بهم التركمان الأوج، فما زالوا يسايرونهم ويقتلون من انفرد ويسرقون ما قدروا عليه، وكان الزمان شتاء والبرد يكون فى تلك البلاد شديداً والثلج متراكماً، فأهلكهم البرد والجوع والتركمان فقل عددهم.

فلما قاربوا مدينة قونية خرج إليهم الملك قطب الدين ملكشاه بن قلج أرسلان ليمنعهم، فلم يكن له بهم قوة، فعاد إلى قونية وبها أبوه قد حجر ولده المذكور عليه، وتفرق أولاده فى بلاده، وتغلب كل واحد منهم على ناحية منها، فلما عاد

عنهم قطب الدين أسرعوا السير فى أثره فنازلوا قونية، وأرسلوا إلى قلج أرسلان هدية وقالوا له : ما قصدنا بلادك ولا أردناها وإنما قصدنا البيت المقدس وطلبوا منه أن يأذن لرعيته فى إخراج ما يحتاجون إليه من قوت وغيره، فأذن فى ذلك، فأتاهم ما يريدون، فشبعوا، وتزودوا، وساروا ثم طلبوا من قطب الدين أن يأمر رعيته بالكف عنهم، وأن يسلم إليهم جماعة من أمرائه رهائن وكان يخافهم، فسلم إليهم نيفاً وعشرين أميراً كان يكرههم فساروا بهم معهم ولم يمتنع اللصوص وغيرهم من قصدهم والتعرض إليهم فقبض ملك الألمان على من منعه من الأمراء وقيدهم، فمنهم من هلك فى أسره، ومنهم من فدى نفسه .

وسار ملك الألمان حتى أتى بلاد الأرمن وصاحبها لافون بن اصطفانة بن ليون، فأمدهم بالأقوات والعلوفات، وحكمهم فى بلاده وأظهر الطاعة لهم ثم ساروا نحوأنطاكية، وكان فى طريقهم نهر فنزلوا عنده، ودخل ملكهم إليه ليغتسل فغرق فى مكان منه لا يبلغ الماء وسط الرجل وكفى الله شره .

وكان معه ولد له، فصار ملكاً بعده وسار إلى أنطاكية، فاختلف أصحابه عليه، فأحب بعضهم العود إلى بلاده، فتخلف عنه، وبعضهم مال إلى تمليك أخ له فعاد أيضاً وسار فيمن صحت نيته له . فعرضهم وكانوا نيفاً وأربعين ألفاً ووقع فيهم الوباء والموت . فوصلوا إلى أنطاكية وكأنهم قد نبشوا من القبور . فتبرم بهم صاحبها، وحسن لهم المسير إلى الفرنج الذين على عكا، فساروا على جبلة ولاذقية وغيرهما من البلاد التى ملكها المسلمون وخرج أهل حلب وغيرها إليهم وأخذوا منهم خلقاً كثيراً، ومات أكثر ممن أخذ، فبلغوا طرابلس، وأقاموا بها أياماً فكثر فيهم الموت، فلم يبق منهم إلا نحوألف رجل، فركبوا فى البحر إلى الفرنج الذين على عكا، ولما وصلوا ورأوا ما نالهم فى طريقهم وما هم فيه من الاختلاف عادوا إلى بلادهم فغرقت بهم المراكب ولم ينج منهم أحد .

وكان الملك قلج أرسلان يكاتب صلاح الدين بأخبارهم، ويعده إنه يمنعهم من العبور فى بلاده فلما عبروها وخلفوها أرسل يعتذر بالعجز عنهم، لأن أولاده حكموا عليه، وجروا عليه وتفرقوا عنه، وخرجوا عن طاعته .

وأمـا صـلاح الدين عند وصـول الخبـر بعبـور ملك الألمان، فـإنه اسـتـشـار أصحابه. فأشار كثير منهم عليه بالمسير إلى طريقهم ومحاربتهم قبل أن يتصلوا بمـن على عكـا، فـقـال : بل نقـيم إلـى أن يقـربوا منا، وحـينئـذ نفـعل ذلك لئـلا يستسلم من بعكـا من عـساكـرنا لكنه سيـر بعض من عنده من العـساكـر منهـا عـسكر حلب وجبلة ولاذقيـة وشـيزر وغيـر ذلك، إلى أعـمـال حلب ليكونوا فى أطراف البلاد يحفظونها من عاديتهم، وكان حـال المسلمين . كمـا قـال الله عـز وجل: ﴿ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً ﴾ (الأحزب ١٠/ ١١) فكفى الله شرهم ورد كيدهم فى نحرهم .

ومن شدة خوفهم أن بعض أمراء صـلاح الدين كان له ببلد الموصل قرية وكان أخى رحمه الله يتولاها، فحصل دخلها من حنطة وشعير وتبن فـأرسل إليه فى بيع الغلة فوصل كتابه يقول : لا تبع الحبة الفردة واستكثر لنا من التبن ثم بعد ذلك وصل كتابه يقول : تبيع الطعام فما بنا حاجة إليه ثم : إن ذلك الأمير قدم الموصل، فسألناه عن المنع من بيع الغلة، ثم الإذن فيها بعد مدة يسيرة . فقال : لما وصلت الأخبار بوصول ملك الألمان أيقنا أننا ليس لنا بالشـام مقـام . فكتب بالمنع من بيع الغلة لتكون ذخيرة لنا إذا جئنا إليكم، ولما أهلكهم الله تعالى وأغنا عنها كتبت ببيعها والانتفاع بثمنها .

ذكر وقعة للمسلمين والفرنج على عكا،وخروج الفرنج من خنادقهم،وذكر وفاة زين الدين يوسف صاحب إربل ومسير أخيه مظفر الدين إليها،وذكر الحرب بين غياث الدين وسلطان شاه بخراسان.

ثم دخلت سنة سبع وثمانين وخمسمائة

ذكر حصر عز الدين صاحب الموصل الجزيرة، وعبور تقى الدين الفرات وملكه حران وغيرها من البلاد الجزرية ومسيره إلى خلاط وموته، وملك الفرنج عكا، ورحيل الفرنج إلى ناحية عسقلان وتخريبها.

ذكر مسير صلاح الدين إلى القدس

لما رأى صلاح الدين أن الشتاء قد هجم، والأمطار متوالية متتابعة، والناس منها فى ضنك وحرج، ومن شدة البرد ولبس السلاح والسهر فى تعب دائم، وكان كثير من العساكر قد طال بيكارها، فأذن لهم فى العود إلى بلادهم للاستراحة والإراحة، وسار هو إلى البيت المقدس فيمن بقى معه، فنزلوا جميعاً داخل البلد فاستراحوا مما كانوا فيه. ونزل هو بدار الأقسا مجاور بيعة قمامة، وقدم إليه عسكر من مصر مقدمهم الأمير أبوالهيجاء السمين، فقويت نفوس المسلمين بالقدس .

وسار الفرنج من الرملة إلى النطرون ثالث ذى الحجة، على عزم قصد القدس، فكانت بينهم وبين يزك المسلمين وقعات، أسر المسلمون فى وقعة منها نيفاً وخمسين فارساً من مشهورى الفرنج وشجعانهم، وكان صلاح الدين لما دخل القدس أمر بعمارة سوره، وتجديد ما رث منه، فأحكم الموضع الذى ملك البلد منه، وأتقنه، وأمر بحفر خندق خارج الفصيل وسلم كل برج إلى أمير يتولى عمله، فعمل ولده الأفضل من ناحية باب عمود إلى باب الرحمة، وأرسل أتابك عز الدين مسعود، صاحب الموصل، جماعة من الحصاصين، ممن له فى قطع الصخر اليد الطولى، فعملوا له هناك برجاً وبدنة، وكذلك جميع الأمراء .

ثم إن الحجارة قلت عند العتالين، فكان صلاح الدين رحمه الله، يركب وينقل الحجارة بنفسه على دابته من الأمكنة البعيدة، فيقتدى به العسكر فكان يجمع عنده من العمالين فى اليوم الواحد ما يعملونه فى عدة أيام .

ثم دخلت سنة ثمان وثمانين وخمسمائة

ذكرعمارة الفرنج عسقلان، وقتل المركيس وملك الكندهرى، ونهب بنى عامر البصرة، ذكر استيلاء الفرنج على عسكر المسلمين، وسير الأفضل والعادل إلى بلاد الجزيرة، وعود الفرنج إلى عكا، وملك صلاح الدين يافا، والهدنة مع الفرنج، ووفاة قلج أرسلان.

ثم دخلت سنة تسع وثمانين وخمسمائة

ذكر وفاة صلاح الدين وبعض سيرته

فى هذه السنة، فى صفر، توفى صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذى، صاحب مصر والشام والجزيرة وغيرها من البلاد، بدمشق، ومولده بتكريت، وقد ذكرنا سبب انتقالهم منها، وملكهم مصر سنة أربع وستين وخمسمائة .

وكان سبب مرضه أن خرج يتلقى الحاج، فعاد، ومرض من يومه مرضا حاداً بقى به ثمانية أيام وتوفى، رحمه الله .

وكان قبل مرضه قد أحضر ولده الأفضل علياً وأخاه الملك العادل أبا بكر، واستشارهما فيما يفعل، وقال: قد تفرغنا من الفرنج، وليس لنا فى هذه البلاد شاغل فأى جهة نقصد؟ فأشار عليه أخوه العادل بقصد خلاط، لأنه كان قد وعده، إذا أخذها، أن يسلمها إليه، وأشار عليه ولده الأفضل بقصد بلد الروم التى بيد أولاد قلج أرسلان. وقال: هى أكثر بلاداً وعسكراً ومالا وأسرع مأخذا وهى أيضاً طريق الفرنج إذا خرجوا على البر فإذا ملكناها منعناهم من العبور فيها. فقال: كلاكما مقصر ناقص الهمة، بل أقصد أنا بلد الروم، وقال لأخيه: تأخذ أنت بعض أولادى وبعض العسكر وتقصد خلاط، فإذا فرغت أنا من بلد الروم جئت إليكم، وندخل منها أذربيجان، ونتصل ببلاد العجم، فما فيها من يمنع عنها .

ثم أذن لأخيه العادل فى المضى إلى الكرك، وكان له، وقال له: تجهز واحضر لتسير، فلما سار إلى الكرك مرض صلاح الدين، وتوفى قبل عوده .

وكان، رحمه الله كريماً، حليماً، حسن الأخلاق، متواضعاً، صبوراً على ما يكره، كثير التغافل عن ذنوب أصحابه، يسمع من أحدهم ما يكره ولا يعلمه بذلك ولا يتغير عليه .

وبلغنى أنه كان يوماً جالساً وعنده جماعة. فرمى بعض المماليك بعضاً بسرموز فأخطأته ووصلت إلى صلاح الدين فأخطأته ووقعت بالقرب منه، فالتفت إلى الجهة الأخرى يكلم جليسه ليتغافل عنها .

وطلب مرة الماء فلم يحضر وعاود الطلب فى مجلس واحد خمس مرات فلم يحضر، فقال : يا أصحابنا، والله قد قتلنى العطش فأحضر الماء فشربه ولم ينكر التوانى فى إحضاره .

وكان مرة قد مرض مرضاً شديدا أرجف عليه بالموت فلما برىء منه وأدخل الحمام كان الماء حارا فطلب ماء باردا، فأحضره الذى يخدمه، فسقط من الماء شىء على الأرض، فناله منه شىء، فتألم له لضعفه، ثم طلب البارد أيضا فأحضر، فلما قاربه سقطت الطاسة على الأرض، فوقع الماء جميعه عليه، فكاد جهلك، فلم يزد على أن قال للغلام: إن كنت تريد قتلى فعرفنى فاعتذر إليه، فسكت عنه .

وأما كرمه، فإنه كان كثير البذل لا يقف فى شىء يخرجه، ويكفى دليلا على كرمه أنه لما مات لم يخلف فى خزائنه غير دينار واحد صورى، وأربعين درهما ناصرية، وبلغنى أنه أخرج فى مدة مقامه كل عكا قبالة الفرنج ثمانية عشر ألف دابة من فرس وبغل سوى الجمال، وأما العين والثياب والسلاح فإنه لا يدخل تحت الحصر ولما انقرضت الدولة العلوية بمصر أخذ من ذخائرهم من سائر الأنواع ما يفوت الإحصاء ففرقه جميعه .

وأما تواضعه، فإنه كان ظاهراً لم يتكبر على أحد من أصحابه، وكان يعيب الملوك المتكبرين بذلك، وكان يحضر عنده الفقراء والصوفية ويعمل لهم السماع فإذا قام أحدهم لرقص أوسماع يقوم له فلا يقعد حتى يفرغ الفقير .

ولم يلبس شيئاً مما ينكره الشرع وكان عنده علم ومعرفة وسمع الحديث وأسمعه وبالجملة كان نادرا فى عصره، كثير المحاسن والأفعال الجميلة، عظيم الجهاد فى الكفار، وفتوحه تدل على ذلك، وخلف سبعة عشر ولداً ذكراً .

ذكر حال أهله وأولاده بعده

لما مات صلاح الدين بدمشق كان معه بها ولده الأكبر الأفضل نور الدين على، وكان قد حلف له العساكر جميعها، غير مرة فى حياته، فلما مات ملك دمشق،

والساحل، والبيت المقدس وبعلبك، وصرخد، وبصرى وبانياس . وهونين وتبنين. وجميع الأعمال إلى الداروم .

وكان ولده الملك العزيز عثمان بمصر، فاستولى عليها واستقر ملكه بها .

وكان ولده الظاهر غازى بحالب فاستولى عليها، وعلى جميع أعمالها مثل : حارم، وتل باشر، وإعزاز وبرزية، ودرب ساك، ومنبج وغير ذلك .

وكان بحماة محمود بن تقى الدين عمر فأطاعه وصار معه .

وكان بحمص شيركوه بن محمد بن شيركوه، فأطاع الملك الأفضل .

وكان الملك العادل بالكرك قد سار إليه كما ذكرنا فامتنع فيه ولم يحضر عند أحد من أولاد أخيه فأرسل إليه الملك الأفضل يستدعيه ليحضر عنده فوعده ولم يفعل. فأعاد مراسلته وخوفه من الملك العزيز صاحب مصر ومن أتابك عز الدين. صاحب الموصل. فإنه كان قد سار عنها إلى بلاد العادل الجزرية على ما نذكره. ويقول له: إن حضرت جهزت العساكر وسرت إلى بلادك فحفظتها. وإن أقمت قصدك أخى الملك العزيز لما بينكما من العداوة . وإذا ملك عز الدين بلادك فليس له دون الشام مانع وقال لرسوله: إن حضر معك وإلا فقل له قد أمرنى: إن سرت إليه بدمشق عدت معك، وإن لم نفعل أسر إلى الملك العزيز أحالفه على ما يختار .

فلما حضر الرسول عنده وعده بالمجىء . فلما رأى أن ليس معه منه غير الوعد أبلغه ما قيل له فى معنى موافقة العزيز. فحينئذ سار إلى دمشق وجهز الأفضل معه عسكرا من عنده. وأرسل إلى صاحب حمص وصاحب حماة وإلى أخيه الملك الظاهر بحلب. يحثهم على إنفاذ العساكر مع العادل إلى البلاد الجزرية ليمنعها من صاحب الموصل ويخوفهم إن هم لم يفعلوا .

ومما قال لأخيه الظاهر: قد عرفت صحبة أهل الشام لبيت أتابك فوالله لئن ملك عز الدين حران ليقومن أهل حلب عليك ولتخرجن منها وأنت لا تعقل،

وكذلك يفعل بى أهل دمشق . فاتفقت كلمتهم على تسيير العساكر معه فجهزوا عساكرهم وسيروها إلى العادل وقد عبر الفرات .

فعسكرت عساكرهم بنواحى الرها بمرج الريحان وسنذكر ما كان منه إن شاء الله تعالى .

ذكر مسير أتابك عز الدين إلى بلاد العادل وعوده بسبب مرضه.

ذكر وفاة أتابك عز الدين وشىء من سيرته

فى هذه السنة توفى أتابك عز الدين مسعود بن مودود بن زنكى بن آقسنقر صاحب الموصل بالموصل وقد ذكرنا عوده إليها مريضاً، فبقى فى مرضه إلى التاسع والعشرين من شعبان فتوفى رحمه الله ودفن بالمدرسة التى أنشأها مقابل دار المملكة وكان قد بقى ما يزيد على عشرة أيام لا يتكلم إلا بالشهادتين، وتلاوة القرآن وإذا تكلم بغيرها استغفر الله، ثم عاد إلى ما كان عليه فرزق خاتمة خير رضى الله عنه .

وكان رحمه الله خير الطبع كثير الخير والإحسان لا سيما إلى شيوخ قد خدموا أباه فإنه كان يتعهدهم بالبر والإحسان والصلة والإكرام ويرجع إلى قولهم ويزور الصالحين، ويقربهم ويشفعهم، وكان حليماً قليل المعاقبة كثير الحياء لم يكلم جليساً له إلا وهو مطرق وما قال فى شىء يسأله: لا حياء وكرم طبع.

وكان قد حج . ولبس بمكة حرسها الله، خرقة التصوف: وأن يلبس تلك الخرقة كل ليلة ويخرج إلى مسجد قد بناه فى داره ويصلى فيه نحو ثلث الليل وكان رقيق القلب، شفيقا على الرعية .

بلغنى عنه أنه قال، بعض الأيام: إننى سهرت الليلة كثيراً وسبب ذلك أنى سمعت صوت نائحة فظننت أن ولد فلان قد مات وكان قد سمع، أنه مريض: قال: فضاق صدرى وقمت من فراشى أدور فى السطح فلما طال على الأمر أرسلت خادماً إلى الجاندارية. فأرسل منهم واحداً يستعلم الخبر فعاد وذكر إنساناً لا أعرفه فسكن بعض ما عندى فنمت ولم يكن الرجل الذى ظن أن ابنه مات من أصحابه إنما كان من رعيته .

كان ينبغى أن تتأخر وفاته، وإنما قد مناها لتتبع أخباره بعضها بعضاً .

وذكر قتل بكتمر صاحب خلاط.

ثم دخلت سنة تسعين وخمسمائة

ذكر الحرب بين شهاب الدين وملك بنارس الهندى، وقتل السلطان طغرل وملك خوارزم شاه الرى ووفاة أخيه سلطان شاه.

ذكر حصر العزيز مدينة دمشق

فى هذه السنة وصل الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين، وهوصاحب مصر، إلى مدينة دمشق، فحصرها وبها أخوه الأكبر الملك الأفضل على بن صلاح الدين. وكنت حينئذ بدمشق، فنزل بنواحى ميدان الحصى، فأرسل الأفضل إلى عمه الملك العادل . أبى بكر بن أيوب، وهوصاحب الديار الجزرية، يستنجده، وكان الأفضل غاية الواثق به والمعتمد عليه، وقد سبق ما يدل على ذلك، فسار الملك العادل لدمشق هو والملك الظاهر غازى بن صلاح الدين صاحب حلب وناصر الدين محمد تقى الدين صاحب حماة وأسد الدين شيركوه صاحب حمص. وعسكر الموصل وغيرها، كل هؤلاء اجتمعوا بدمشق، واتفقوا على حفظها. علماً منهم أن العزيز إن ملكها أخذ بلادهم .

فلما رأى العزيز اجتماعهم علم أنه لا قدرة له على البلد فترددت الرسل حينئذ فى الصلح، فاستقرت القاعدة على أن يكون البيت المقدس وما جاوره من أعمال فلسطين للعزيز وما تبقى دمشق وطبرية وأعمالها والغور للأفضل، على ما كانت عليه، وأن يقيم الأفضل أخاه الملك الظاهر جبلة واللاذقية بالساحل الشامى، وأن يكون للعادل بمصر إقطاعه الأول، واتفقوا على ذلك، وعاد العزيز إلى مصر، ورجع كل واحد من الملوك إلى بلده .

ثم دخلت سنة إحدى وتسعين وخمسمائة

ذكر ملك وزير الخليفة همذان وغيرها من بلاد العجم.

ذكر غزو ابن عبد المؤمن الفرنج بالأندلس

فى هذه السنة . فى شعبان غزا أبويوسف يعقوب ابن عبد المؤمن صاحب بلاد المغرب والأندلس، بلاد الفرنج بالأندلس، وسبب ذلك أن ألفنش ملك الفرنج بها وملكه مدينة طليطلة، وكتب إلى يعقوب كتاباً نسخته : باسمك الله فاطر السموات والأرض، أما بعد أيها الأمير فإنة لا يخفى على كل ذى عقل لازب ولا ذى ذكاء ثابت، أنت أمير الملة الحنيفية كما أنا أمير الملة النصرانية، وأنك من لا يخفى عليه ما هم عليه رؤساء الأندلس من التخاذل والتواكل وإهمال الرعية واشتمالهم على الراحات، وأنا أسومهم الخسف وأخلى الديار وأسبى الزرارى، وأمثل بالكهول وأقتل الشباب ولا عذر لك فى التخلف عنهم ونصرتهم وقد أمكنتكم يد القدرة ، وأنتم تعتقدون أن الله فرض عليكم قتال عشرة منا بواحد منكم . والآن خفف الله عنكم . وعلم أن فيكم ضعفاً فقد فرض عليكم قتال أثنين منا بواحد منكم، ونحن الآن نقاتل عدداً منكم بواحد منا . ولا تقدرون دفاعاً ولا تستطيعون امتناعاً .

ثم حكى لى عنك أنك أخذت فى الاحتفال، وأشرفت على ربوة القتال، وتمطل نفسك عاماً بعد عام، تقدم رجلا وتؤخر أخرى، ولا أدرى الجبن أبطأ بك أم التكذيب، مما أنزل عليك .

ثم حكى لى عنك أنك لا تجد سبيلاً للحرب لعلك ما يسوغ لك التقحم فيها، فها أنا أقول لك ، ما فيه الراحة وأعتذر عنك، ولك أن توافينى بالعهود والمواثيق والأيمان ، وأن تتوجه بجملة من عندك فى المراكب والشوانى، وأجوز إليك بجملتى وأبارزك فى أعز الأماكن عندك فإن كانت لك، فغنيمة عظيمة جاءت إليك، وهدية مثلت بين يديك وإن كانت لى كانت يدى العليا عليك. واستحققت إمارة الملتين والتقدم على الفئتين، والله يسهل الإرادة، ويوفق السعادة بمن لا رب غيره، ولا خير إلا بخيره .

فلما وصل كتابه وقرأه يعقوب كتب فى أعلاه هذه الآية ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾.

وأعاده إليه. وجمع العساكر العظيمة من المسلمين وعبر المجاز إلى الأندلس.

وقيل : كان سبب عبوره إلى الأندلس أن يعقوب لما قاتل الفرنج سنة ست وثمانين وخمسمائة وصالحهم بقي طائفة من الفرنج لم ترضى الصلح، كما ذكرناه ، فما كان الآن جمعت تلك الطائفة جمعاً من الفرنج وخرجوا إلى بلاد الإسلام، فقتلوا وسبوا وغنموا وأسروا. وعاثوا فيها عيثاً شديداً .

فانتهى ذلك إلى يعقوب فجهز العساكر وعبر المجاز إلى الأندلس في جيش يضيق عنه الفضاء، فسمعت الفرنج بذلك فجمعت قاصيهم ودانيهم وأقبلوا إليه مجدين على قتاله وواثقين بالظفر لكثرتهم فالتقوا تاسع شعبان، شمالي قرطبة عند قلعة رباح ، بمكان يعرف بمرج الحديد، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فكانت الدائرة أولا على المسلمين. ثم عادت على الفرنج، فانهزموا. وسرى ذلك إلى أقبح هزيمة ، وانتصر المسلمون عليهم ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

وكان عدد من قتل من الفرنج مائة ألف وستة وأربعين ألفاً وأسر ثلاثة عشر ألفاً وغنم المسلمون منهم شيئاً عظيماً. فمن الخيام مائة ألف وثلاثة وأربعون ألفاً ومن الخيل ستة وأربعون ألفاً ومن البغال مائة ألف، ومن الحمير مائة ألف. وكان يعقوب قد نادى في عسكره : من غنم شيئاً فهوله سوى السلاح وأحصى ما خمل إليه منه فكان زيادة على سبعين ألف لبس، وقتل من المسلمين نحوعشرين ألفاً.

ولما انهزم الفرنج اتبعهم أبويوسف فرآهم قد أخذوا قلعة الرياح، وساروا عنها من الرعب والخوف فملكها وجعل فيها والياً وجنداً يحفظونها وعاد إلى مدينة إشبيلية .

وأما ألفنش فإنة لما انهزم حلق رأسه، ونكس صليبه وركب حماراً وأقسم أن لا يركب فرساً ولا بغلا حتى تنصر النصرانية، فجمع جموعاً عظيمة، وبلغ الخبر بذلك إلى يعقوب فأرسل إلى بلاد الغرب مراكش وغيرها يستنفر الناس من غير

إكراه فأتاه من المتطوعين والمرتزقين جمع عظيم، فالتقوا فى ربيع الأول سنة اثنتن وتسعين وخمسمائة فانهزم الفرنج هزيمة قبيحة وغنم المسلمون ما معهم من الأموال والسلاح والدواب وغيرها، وتوجه إلى مدينة طليطلة، فحصرها، وقاتلها قتالا شديداً، وقطع أشجارها، وشن الغارة على ما من حولها من البلاد، وفتح فيها عدة حصون، فقتل رجالها، وسبى حريمها وخرب دورها وهدم أسوارها، فضعفت النصرانية حينئذ، وعظم أمر الإسلام بالأندلس، وعاد يعقوب إلى إشبيلية فأقام بها .

فلما دخلت سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة، سار عنها إلى بلاد الفرنج وفعل فيها مثل فعله الأول والثانى. فضاقت الأرض على الفرنج، وذلوا واجتمع ملوكهم وأرسلوا يطلبون الصلح، فأجابهم إليه بعد أن كان عازماً على الامتناع، مريداً لملازمة الجهاد إلى أن يفرغ منهم، فأتاه خبر على بن إسحق الملثم الميورقى أنه فعل بإفريقيا ما نذكره من الأفاعيل الشنيعة، فترك عزمه وصالحهم مدة خمسة سنين. وعاد إلى مراكش آخر سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة .

ثم دخلت سنة خمس وتسعين وخمسمائة

ذكر وفاة الملك العزيز وملك أخيه الأفضل ديار مصر

فى هذه السنة، فى العشرين من المحرم، توفى الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف بن أيوب، صاحب ديار مصر، وكان سبب موته أنه خرج إلى الصيد، فوصل إلى الفيوم متصيداً. فرأى ذئباً، فركض فرسه فى طلبه فعثر الفرس فسقط عنه فى الأرض ولحقته حمى، فعاد إلى القاهرة مريضاً، فبقى كذلك إلى أن توفى، فلما مات كان الغالب على أمره مملوك والده فخر الدين جهاركس، وهوالحاكم فى بلده، فأحضر إنساناً كان عندهم من أصحاب الملك العادل أبى بكر بن أيوب، وأراه العزيز ميتاً. وسيره إلى العادل وهويحاصر ماردين، كما ذكرناه، ويستدعيه ليملكه البلاد،فسار القاصد مجداً، فلما كان بالشام رأى بعض أصحاب الأفضل على بن صلاح الدين، فقال له : قل لصاحبك إن أخاه العزيز توفى، وليس فى البلاد من يمنعها، فليسر إليها فليس دونها مانع .

وكان الأفضل محبوباً إلى الناس يريدونه،فلم يلتفت الأفضل إلى هذا القول، وإذا قد وصله رسل الأمراء من مصر يدعونه إليهم ليملكوه، وكان السبب فى ذلك أن الأمير سيف الدين يازكج - مقدم الأسدية، والفرقة الأسدية والأمراء الأكراد يريدونه ويميلون إليه، وكان المماليك الناصرية الذين هم ملك أبيه يكرهونه، فاجتمع سيف الدين، مقدم الأسدية،وفخر الدين جهاركس، مقدم الناصرية، ليتفقوا على من يولونه الملك، فقال فخر الدين : نولى ابن الملك العزيز، فقال سيف الدين : إنه طفل، وهذه البلاد ثغر الإسلام، ولا بد من قيم بالملك يجمع العساكر، ويقاتل بها، والرأى أننا نجعل الملك فى هذا الطفل الصغير، ونجعل معه بعض أولاد صلاح الدين يدبره إلى أن يكبر، فإن العساكر لا تطيع غيرهم، ولا تنقاد لأمير، فاتفقا على هذا، فقال جهاركس : فمن يتولى هذا ؟ فأشار يازكج بغير الأفضل ممن بينه وبين جهاركس منازعة لئلا يتهم وينفر جهاركس عنه، فامتنع من ولايته، فلم يزل يذكر من أولاد صلاح الدين واحداً بعد آخر إلى أن ذكر آخرهم الأفضل، فقال جهاركس : هو بعيد عنا، وكان بصرخد مقيماً فيها من حين أخذت منه دمشق، فقال يازكج : نرسل إليه من يطلبه مجداً، فأخذ جهاركس يغالطه، فقال يازكج: نمضى إلى القاضى الفاضل ونأخذ رأيه، فاتفقا على ذلك، وأرسل يازكج يعرفه ذلك، ويشير بتمليك الأفضل، فلقد اجتمعا عنده، وعرفاه صورة الحال، أشار بالأفضل، فأرسل يازكج فى الحال القصاد وراءه، فسار عن صرخد لليلتين بقيتا من صفر، متنكراً فى تسعة عشر نفساً، لأن البلاد كانت للعادل، ويضبط نوابه الطرق، لئلا يجوز إلى مصر ليجىء العادل ويملكها.

فلقد قارب الأفضل القدس، وقد عدل عن الطريق المؤدى إليه، لقيه فارسان قد أرسلا إليه من القدس، فأخبراه أن من بالقدس قد صار فى طاعته، وجد فى السير، فوصل إلى بلبيس خامس ربيع الأول، ولقيه إخوته، وجماعة الأمراء المصرية، وجميع الأعيان، فاتفق أن أخاه الملك المؤيد مسعوداً صنع له طعاماً، وصنع له فخر الدين مملوك أبيه طعاماً، فابتدأ بطعام أخيه ليمين حلفها أخوه أنه يبدأ به، فظن جهاركس أنه فعل هذا انحرافاً عنه وسوء اعتقاد فيه، فتغيرت

نيته، وعزم على الهرب، فحضر عند الأفضل وقال : إن طائفة من العرب قد اقتتلوا، ولئن لم تمض إليهم تصلح بينهم يؤد ذلك إلى فساد، فأذن له الأفضل فى المضى إليهم، ففارقه، وسار مجداً حتى وصل إلى البيت المقدس، ودخله، وتغلب عليه، ولحقه جماعة من الناصرية منهم قراجة الركرمش، وسرا سنقر، وأحضروا عندهم ميموناً القصرى صاحب نابلس، وهوأيضا من المماليك الناصرية، فقويت شوكتهم به، واجتمعت كلمتهم على خلاف الأفضل، وأرسلوا إلى الملك العادل وهوعلى ماردين يطلبونه إليهم ليدخلوا معه إلى مصر ليملكوها، فلم يسر إليهم لأنه كانت أطماعه قد قويت فى أخذ ماردين، وقد عجز من بها عن حفظها،، فظن أنه يأخذها، والذى يريدونه منه لا يفوته .

وأما الأفضل فإنه دخل إلى القاهرة سابع ربيع الأول، وسمع بهرب جهاركس، فأهمه ذلك، وترددت الرسل بينه وبينهم ليعودوا إليه، فلم يزدادوا إلا بعداً، ولحق بهم جماعة من الناصرية أيضاً، فاستوحش الأفضل من الباقين، فقبض عليهم، وهم شقيرة وأيبك فطيس، والباكى الفارس، وكل هؤلاء بطل مشهور ومقدم مذكور، سوى من ليس مثلهم فى التقدم وعلو القدر، وأقام الأفضل بالقاهرة وأصلح الأمور، وقرر القواعد، والمرجع فى جميع الأمور إلى سيف الدين يازكج .

وذكر حصر الأفضل مدينة دمشق وعوده منها،ووفاة يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن وولاية ابنه محمد.

ثم دخلت سنة ست وتسعين وخمسمائة

ذكر الملك العادل الديار المصرية

قد ذكرنا سنة خمس وتسعين وخمسمائة، حصر الأفضل والظاهر ولدى صلاح الدين دمشق، ورحيلهما إلى رأس الماء، على عزم المقام بحوران إلى أن يخرج الشتاء، فلما أقاموا برأس الماء وجد العسكر برداً شديداً، لأن البرد فى ذلك المكان فى الصيف موجود، فكيف فى الشتاء، فتغير العزم عن المقام، واتفقوا على أن يعود كل إنسان منهم إلى بلده، ويعودوا إلى الاجتماع، فتفرقوا تاسع ربيع

الأول، فعاد الظاهر وصاحب حمص إلى بلادهما، وسار الأفضل إلى مصر فوصل بلبيس، فأقام بها، ووصلته الأخبار بأن عمه الملك العادل قد سار من دمشق قاصداً مصر ومعه المماليك الناصرية، وقد حلفوه على أن يكون ولد الملك العزيز هوصاحب البلاد، وهوالمدبر للملك، إلى أن يكبر، فساروا على هذا .

وكان عسكره بمصر قد تفرق عن الأفضل من الخشبى، فسار كل منهم إلى إقطاعه ليريعوا دوابهم، فرام الأفضل جمعهم من أطراف البلاد، فأعجله الأمر عن ذلك، ولم يجتمع منهم إلا طائفةً يسيرة ممن قرب إقطاعه، ووصل العادل، فأشار بعض الناس على الأفضل أن يخرب سور بلبيس ويقيم بالقاهرة، وأشار غيرهم بالتقدم إلى أطراف البلاد، ففعل ذلك، فسار عن بلبيس، ونزل موضعاً يقال له السائح إلى طرف البلاد، ولقاء العادل قبل دخول البلاد سابع ربيع الآخر، فانهزم الأفضل، ودخل القاهرة ليلاً .

وفى تلك الليلة توفى القاضى الفاضل عبد الرحيم بن على البيسانى كاتب الإنشاء لصلاح الدين ووزيره، فحضر الأفضل الصلاة عليه، وسار العادل فنزل على القاهرة وحصرها، فجمع الأفضل من عنده من الأمراء واستشارهم، فرأى منهم تخاذلاً، فأرسل رسولا إلى عمه فى الصلح وتسليم البلاد إليه، وأخذ العوض عنها، وطلب دمشق، فلم يجبه العادل، فنزل عنها إلى حران والرها فلم يجبه، فنزل إلى ميافارقين وحانى وجبل جور، فأجابه إلى ذلك، وتحالفوا عليه، وخرج الأفضل من مصر ليلة السبت ثامن عشر ربيع الآخر، واجتمع بالعادل، وسار إلى صرخد، ودخل العادل إلى القاهرة يوم السبت ثامن عشر ربيع الآخر.

ولما وصل الأفضل إلى صرخد أرسل من تسلم ميافارقين وحانى وجبل جور، فامتنع نجم الدين أيوب ابن الملك العادل من تسليم ميافارقين وسلم ما عداها، فترددت الرسل بين الأفضل والعادل فى ذلك، والعادل يزعم أن ابنه عصاه، فأمسك عن المراسلة فى ذلك لعلمه أن هذا فعل بأمر العادل .

ولما ثبتت قدم العادل بمصر قطع خطبة الملك المنصور ابن الملك العزيز فى شوال من السنة، وخطب لنفسه، وحاقق الجند فى إقطاعاتهم، وأعرضهم فى

أصحابهم ومن عليهم من العسكر المقرر، فتغيرت لذلك نياتهم، فكان ما نذكره سنة سبع وتسعين وخمسمائة إن شاء الله .

ذكر وفاة خوارزم شاه.

ثم دخلت سنة ستمائة

ذكر حصار خوارزم شاه هراة، وملك القسطنطينية من الروم، وانهزام نور الدين صاحب الموصل من العساكر العادلية، ووفاة ركن الدين بن قلج أرسلان وملك ابنه بعده(قلج أرسلان).

ثم دخلت سنة اثنتين وستمائة

ذكر الفتنة بهراة، وقتال شهاب الدين الغوري بني كوكر، وذكر قتله، وذكر بعض سيرته، واستيلاء خوارزم شاه على بلاد الغورية بخراسان.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، في جمادى الآخرة، توفي الأمير طاشتكين مجير الدين، أمير الحاج . بتستر وكان قد ولاه الخليفة على جميع خوزستان، وكان أمير الحاج سنين كثيرة وكان خيراً صالحاً، حسن السيرة، كثير العبادة، يتشيع .

ولما مات ولي الخليفة على خوزستان مملوكه سنجر، وهو صهر طاشتكين زوج ابنته .

وفيها قتل سنجر بن مقلد بن سليمان بن مهارش، أمير عبادة، بالعراق .

وكان سبب قتله أنه سعى بأبيه مقلد إلى الخليفة الناصر لدين الله . فأمر بالتوكيل على أبيه، فبقي مدة، ثم أطلقه الخليفة، ثم إن سنجر قتل أخا له فأوغر بهذه الأسباب صدور أهله وإخوته، فلما كان هذه السنة في شعبان نزل بأرض المعشوق، وركب في بعض الأيام ومعه إخوته وغيرهم من أصحابه، فلما انفرد عن أصحابه ضربه أخوه علي بن مقلد بالسيف فسقط إلى الأرض، فنزل إخوته إليه فقتلوه .

وفيها تجهز غياث الدين خسرو شاه صاحب مدينة الروم، إلى مدينة طرابزون، وحصر صاحبها لأنه كان قد خرج عن طاعته، فضيق عليه، فانقطعت لذلك الطرق من بلاد الروم والروس، وقفجاق وغيرها، براً وبحراً، ولم يخرج منهم أحد إلى بلاد غياث الدين، فدخل بذلك ضرر عظيم على الناس، لأنهم كانوا يتجرون معهم، ويدخلون بلادهم . ويقصدهم التجار من الشام، والعراق، والموصل والجزيرة وغيرها، فاجتمع منهم بمدينة سيواس خلق كثير، فحيث لم ينفتح الطريق تأذوا أذىً كثيراً فكان السعيد منهم من عاد إلى رأس ماله .

وفيها تزوج أبوبكر بن البهلوان، صاحب أذربيجان وأران بابنة ملك الكرج، وسبب ذلك أن الكرج تابعت الغارات منهم على بلاده لما رأوا من عجزه وانهماكه فى الشرب واللعب وما جانسهما وإعراضه عن تدبير الملك وحفظ البلاد، فلما رأى هو أيضاً ذلك، ولم يكن عنده من الحمية والأنفة من هذه المناحس، ما يترك ما هو مصر عليه وأنه لا يقدر على الذب عن البلاد بالسيف، عدل إلى الذب عنها بأيره فخطب ابنة ملكهم، فتزوجها، فكف الكرج عن النهب والإغارة والقتل، فكان كما قيل : أغمد سيفه، وسل أيره .

وفيها حمل إلى أزبك، خروف وجهه صورة آدمى وبدنه بدن خروف وكان هذا من العجائب .

وفيها توفى القاضى أبوحامد محمد بن محمد المانداى الواسطى بها .

وفيها فى شوال توفى فخر الدين مبارك شاه بن الحسن المروروذى، وكان حسن الشعر بالفارسية والعربية وله منزلة عظيمة عند غياث الدين الكبير صاحب غزنة وهراة وغيرهما، وكان له دار ضيافة، فيها كتب وشطرنج، فالعلماء يطالعون الكتب، والجهال يلعبون بالشطرنج .

وفيها، فى ذى الحجة، توفى أبوالحسن على بن على بن سعادة الفارقى الفقيه الشافعى، ببغداد، وبقى مدة طويلة معيداً بالنظامية، وصار مدرساً بالمدرسة التى أحدثتها أم الخليفة الناصر لدين الله وكان مع علمه صالحاً، طلب للنيابة فى

القضاء ببغداد، فامتنع، فألزم بذلك، فوليه يسيراً ثم فى بعض الأيام مشى إلى جامع ابن المطلب، فنزل، ولبس مئزر صوف غليظ، وغير ثيابه، وأمر الوكلاء وغيرهم بالانصراف عنه، وأقام به حتى سكن الطلب عنه، وعاد إلى منزله بغير ولاية .

وفيها وقع الشيخ أبوموسى المكى، المقيم بمقصورة جامع السلطان ببغداد، من سطح الجامع، فمات، وكان رجلاً صالحاً كثير العبادة .

وفيها أيضاً توفى العفيف أبوالمكارم عرفة بن على بن بصلا البندنيجى ببغداد، وكان رجلاً صالحاً، منقطعاً إلى العبادة، رحمه الله .

إلى أن دخلت سنة ثلاث عشر وستمائة

ذكر وفاة الملك الظاهر صاحب حلب

فى هذه السنة، فى جمادى الآخرة، توفى الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين يوسف بن أيوب، وهوصاحب مدينة حلب ومنبج وغيرهما من بلاد الشام، وكان مرضه إسهالا، وكان شديد السيرة، ضابطا لأموره كلها، كثير الجمع للأموال من غير جهاتها المعتادة، عظيم العقوبة على الذنب، لا يرى الصفح وله مقصد يقصده كثير من أهل البيوتات من أطراف البلاد، والشعراء وأهل الدين وغيرهم فيكرمهم ويجرى عليهم الجارى الحسن .

ولما اشتدت علته عهد بالملك بعده لولد له صغير اسمه محمد، ولقبه الملك العزيز غياث الدين، عمره ثلاث سنين، وعدل عن ولد كبير لأن الصغر كانت أمه ابنة عمه الملك العادل أفى بكر بن أيوب، صاحب مصر ودمشق وغيرهما من البلاد، فعهد بالملك له ليبقى عمه البلاد عليه، ولا ينازعه فيها .

ومن أعجب ما يحكى أن الملك الظاهر، قبل مرضه، أرسل رسولا إلى عمه العادل بمصر، يطلب منه أن يحلف لولده الصغر، فقال العادل: سبحان الله أى حاجة إلى هذه اليمين الملك الظاهر مثل بعض أولادى. فقال الرسول: قد طلب هذا واختاره، ولا بد من إجابته إليه. فقال العادل: كم من كبش فى المرعى وخروف عند القصاب وحلف .

فاتفق فى تلك الأيام أن توفى الملك الظاهر والرسول فى الطريق، ولما عهد الظاهر إلى ولده بالملك جعل أتابكه ومربيه خادما روميا اسمه طغرل، ولقبه شهاب الدين، وهومن خيار عباد الله، كثير الصدقة والمعروف .

ولما توفى الظاهر أحسن شهاب الدين هذا السرة فى الناس، وعدل فيهم، وأزال كثير من السنن الجارية، وأعاد أملاكا كانت قد أخذت من أربابها وقام بتربية الطفل أحسن قيام، وحفظ بلاده، واستقامت الأمور بحسن سيرته وعدله، وملك ما كان يتعذر على الظاهر ملكه، فمن ذلك تل باشر، كان الملك الظاهر لايقدر أن يتعرض إليه، فلما توفى ملكها، كيكاوش، ملك الروم، كما نذكره إن شاء الله تعالى انتقلت إلى شهاب الدين، وما أقبح بالملوك وأبناء الملوك أن يكون هذا الرجل الغريب المنفرد أحسن سيرة، وأعف عن أموال الرعية، وأقرب إلى الخير منهم ولا أعلم اليوم فى ولاة أمور المسلمين أحسن سيرة منه، فالله يبقيه، ويدخ عنه، فلقد بلغنى عنه كل حسن وجميل .

ثم دخلت سنة أربع عشر وستمائة

مدينة دمياط وعودها إلى المسلمين

كان من أول هذه الحادثة إلى أخرها أربع سنين غير شهر، وإنما ذكرناها هاهنا لأن ظهورهم كان فيها وسقناها سياقة متتابعة ليتلوبعضها بعضا، فنقول: فى هذه السنة وصلت أمداد الفرنج فى البحر من رومية الكبرى وغيرها من بلاد الفرنج فى الغرب والشمال، إلا أن المتولى لها كان صاحب رومية، لأنه يتنزل عند الفرنج بمنزلة عظيمة، لا يرون مخالفة أمره ولا العدول عن حكمه فيما سرهم وساءهم، فجهز العساكر من عنده مع جماعة من مقدمى الفرنج، وأمر غيره من ملوك الفرنج إما أن يسير بنفسه، أويرسل جيشا، ففعلوا ما أمرهم فاجتمعوا بعكا من ساحل الشام.

وكان الملك العادل أبوبكر بن أيوب بمصر، فسار منها إلى الشام، فوصل إلى الرملة، ومنها إلى لد، وبرز الفرنج من عكا ليقصدوه، فسار العادل نحوهم،

فوصل إلى نابلس عازما على أن يسبقهم إلى أطراف البلاد مما يلى عكا ليحميها منهم، فساروا هم فسبقوه، فنزل على بيسان من الأردن، فتقدم الفرنج إليه فى شعبان عازمين على محاربته لعلمهم أنه فى قلة من العسكر، لأن العساكر كانت متفرقة فى البلاد .

فلما رأى العادل قربهم منه لم ير أن يلقاهم فى الطائفة التى معه، خوفا من هزيمة تكون عليه، وكان حازما، كثير الحذر، ففارق بيسان نحودمشق ليقيم بالقرب منها، ويرسل إلى البلاد ويجمع العساكر، فوصل إلى مرج الصفر فنزل فيه.

وكان أهل بيسان، وتلك الأعمال، لما رأوا الملك العادل عندهم اطمأنوا، فلم يفارقوا بلادهم ظنا منهم أن الفرنج لا يقسمون عليه، فلما أقسموا سار على غفلة من الناس، فلم يقدر على النجاة إلا القليل، فأخذ الفرنج كل ما فى بيسان من ذخائر قد جمعت، وكانت كثيرة، وغنموا شيئاً كثيرا، ونهبوا البلاد من بيسان إلى بانياس، وبثوا السرايا فى القرى فوصلت إلى خسفين، ونوى وأطراف البلاد، ونازلوا بانياس، وأقاموا عليها ثلاثة أيام، ثم عادوا عنها إلى مرج عكا ومعهم من الغنائم والسبى والأسرى ما لا يحصى كثرة، سوى ما قتلوا، وأحرقوا، وأهلكوا، فأقاموا أياما استراحوا خلالها .

ثم جاءوا إلى صور، وقصدوا بلد الشقيف، ونزلوا بينهم وبين بانياس مقدار فرسخين، فنهبوا البلاد : صيدا والشقيف، وعادوا إلى عكا، وكان هذا من نصف رمضان إلى العيد، والذى سلم من تلك البلاد كان مخفا حتى قدر على النجاة .

ولقد بلغنى أن العادل لما سار إلى مرج الصفر رأى فى طريقه رجلا يحمل شيئا، وهويمشى تارة، وتارة يقعد ليستريح، فعدل العادل إليه وحده، فقال له :

يا شيخ لا تعجل،وارفق بنفسك فعرفه الرجل، فقال : يا سلطان المسلمين أنت لا تعجل، فإنا إذا رأيناك قد سرت إلى بلادك وتركتنا مع الأعداء كيف لا نعجل وبالجملة الذى فعله العادل هوالحزم والمصلحة لئلا يخاطر باللقاء على حال تفرق من العساكر، ولما نزل العادل على مرج الصفر سير ولده الملك المعظم

عيسى، وهوصاحب دمشق، في قطعة صالحة من الجيش إلى نابلس ليمنع الفرنج عن البيت المقدس .

إلى أن دخلت سنة خمس عشر وستمائة

ذكر وفاة الملك القاهر وولاية ابنه نور الدين،وملك عماد الدين زنكي قلاع الهكارية،ووصول الأشرف إلى الموصل والصلح مع مظفر الدين.

ذكر وفاة الملك العادل وملك أولاده بعده

توفي الملك العادل أبوبكر بن أيوب سابع جمادى الآخرة من سنة خمس عشرة وستمائة، وقد ذكرنا ابتداء دولتهم عند ملك عمه أسد الدين شيركوه ديار مصر سنة أربع وستين وخمسمائة، ولما ملك أخوه صلاح الدين يوسف بن أيوب ديار مصر، بعد عمه، وسار إلى الشام استخلفه بمصر ثقة به، واعتمادا عليه، وعلما بما هوعليه من تنفر العقل وحسن السيرة .

فلما توفي أخوه صلاح الدين ملك دمشق وديار مصر، كما ذكرناه، وبقي مالكا للبلاد إلى الآن، فلما ظهر الفرنج، كما ذكرناه سنة أربع عشرة وستمائة، قصد هو مرج الصفر، فلما سار الفرنج إلى ديار مصر انتقل هو إلى عالقين، فأقام به ومرض، وتوفي وحمل إلى دمشق . فدفن بالتربة التي له بها.

وكان عاقلا، ذا رأى سديد، ومكر شديد، وخديعة . صبورا حليما، ذا أناة، يسمع ما يكره ويغضى عليه حتى كأنه لم يسمعه، كثير الحرج وقت الحاجة لا يقف في شيء وإذا لم تكن حاجة فلا .

وكان عمره خمسا وسبعين سنة وشهورا لأن مولده كان في المحرم من سنة أربعين وخمسمائة، وملك دمشق في شعبان سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة من الأفضل ابن أخيه، وملك مصر في ربيع الآخر من سنة ست وتسعين أومنه أيضا .

ومن أعجب ما رأيت من منافاة الطوالع أنه لم يملك الأفضل مملكة قط إلا وأخذها منه عمه العادل، فأول ذلك أن صلاح الدين أقطع ابنه الأفضل حران، والرها، وميافارقين سنة ست وثمانين، بعد وفاة تقي الدين، فسار إليها، فلما

وصل إلى حلب أرسل أبوه الملك العادل بعده، فرده من حلب، وأخذ هذه البلاد منه.

ثم ملك الأفضل بعد وفاة أبيه مدينة دمشق فأخذها منه، ثم ملك مصر بعد وفاة أخيه الملك العزيز فأخذها أيضا منه، ثم ملك صرخد فأخذها منه.

وأعجب من هذا أننى رأيت بالبيت المقدس سارية من الرخام ملقاة فى بيعة صهيون، ليس مثلها، فقال القس الذى بالبيعة : هذه كان قد أخذها الملك الأفضل لينقلها إلى دمشق، ثم إن العادل أخذها بعد ذلك من الأفضل ، طلبها منه فأخذها. وهذا غاية، وهومن أعجب ما يحكى .

وكان العادل قد قسم البلاد فى حياته بين أولاده. فجعل بمصر الملك الكامل محمدا، وبدمشق، والقدس، وطبرية، والأردن والكرك وغيرها من الحصون المجاورة لها، ابنه المعظم عيسى، وجعل بعض ديار الجزيرة وميافارقين وخلاط وأعمالها لابنه الملك الأشرف موسى، وأعطى الرها لولده شهاب الدين غازى، وأعطى قلعة جعبر لولده الحافظ أرسلان شاه، فلما توفى ثبت كل منهم فى المملكة التى أعطاه أبوه واتفقوا اتفاقا حسنا لم يجر بينهم من الاختلاف ما جرت العادة أن يجرى بين أولاد الملوك بعد آبائهم، بل كانوا كالنفس الواحدة، كل منهم يثق بالآخر بحيث يحضر عنده منفردا من عسكره ولا يخافه، فلا جرم زاد ملكهم ورأوا من نفاذ الأمر والحكم ما لم يره أبوهم .

ولعمرى إنهم نعم الملوك، فيهم الحلم، والجهاد، والذب عن الإسلام، وفى نوبة دمياط كفاية، وأما الملك الأشرف فليس للمال عنده محل، بل يمطره مطرا كثيرا لعفته عن أموال الرعية، دائم الإحسان، لا يسمع سعاية ساع .

ثم دخلت سنة سبع عشر وستمائة

ذكر خروج التتار إلى بلاد الإسلام

لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة استعظاما لها، كارها لذكرها، فأنا أقدم إليه أرجلا وأؤخر أخرى، فمن الذى يسهل عليه أن يكتب نعى

الإسلام والمسلمين، ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك ؟ فيا ليت أمي لم تلدني، ويا ليتني مت قبل حدوثها وكنت نسيا منسيا، إلا أنني حثني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف، ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدي نفعا، فنقول : هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمى، والمصيبة الكبرى التي عقت الأيام والليالي عن مثلها، عمت الخلائق، وخصت المسلمين، فلوقال قائل : إن العالم مذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم، إلى الآن، لم يبتلوا بمثلها، لكان صادقا، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها .

ومن أعظم ما يذكرون من الحوادث ما فعله بخت نصر ببني إسرائيل من القتل، وتخريب البيت المقدس، وما البيت المقدس بالنسبة إلى ما خرب هؤلاء الملاعن من البلاد، التي كل مدينة منها أضعاف البيت المقدس، وما بنوإسرائيل بالنسبة إلى من قتلوا، فان أهل مدينة واحدة ممن قتلوا أكثر من بني إسرائيل، ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم، وتفنى الدنيا، إلا يأجوج ومأجوج .

وأما الدجال فإنه يبقي على من اتبعه، ويهلك من خالفه، وهؤلاء لم يبقوا على أحد، بل قتلوا النساء والرجال والأطفال، وشقوا بطون الحوامل، وقتلوا الأجنة، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

لهذه الحادثة التي استطار شررها، وعم ضررها، وسارت في البلاد كالسحاب استدبرته الريح، فإن قوما خرجوا من أطراف الصين، فقصدوا بلاد تركستان مثل كاشغر وبلاساغون، ثم منها إلى بلاد ما وراء النهر، مثل سمرقند وبخارى وغيرهما، فيملكونها، ويفعلون بأهلها ما نذكره، ثم تعبر طائفة منهم إلى خراسان، فيفرغون منها ملكا، وتخريبا، وقتلا ونهبا، ثم يتجاوزونها إلى الري، وهمذان، وبلد المجل وما فيه من البلاد إلى حد العراق، ثم يقصدون بلاد أذربيجان وأرانية، ويخربونها، ويقتلون أكثر أهلها، ولم ينج إلا الشريد النادر في أقل من سنة، هذا ما لم يسمع بمثله .

ثم لما فرغوا من أذربيجان وأرانية ساروا إلى دربند شروان فملكوا مدنه، ولم يسلم غير القلعة التى بها ملكهم، وعبروا عندها إلى بلد اللان، واللكز، ومن فى ذلك الصقع من الأمم المختلفة، فأوسعوهم قتلا، ونهبا، وتخريبا، ثم قصدوا بلاد قفجاق، وهم من أكثر الترك عددا، فقتلوا كل من وقف لهم، فهرب الباقون إلى الغياض ورءوس الجبال، وفارقوا بلادهم، واستولى هؤلاء التتار عليها، وفعلوا هذا فى أسرع زمان، لم يلبثوا إلا بمقدار مسيرهم لا غير .

ومضى طائفة أخرى غير هذه الطائفة إلى غزنة وأعمالها، وما يجاورها من بلاد الهند وسجستان وكرمان،فقعلوا فيه مثل فعل هؤلاء وأشد .

هذا ما لم يطرق الأسماع مثله، فإن الإسكندر الذى اتفق المؤرخون على أنه ملك الدنيا لم يملكها فى هذه السرعة، إنما ملكها فى نحو عشر سنين، ولم يقتل أحدا، إنما رضى من الناس بالطاعة، وهؤلاء قد ملكوا أكثر المعمور من الأرض وأحسنه، وأكثره عمارة وأهلا، وأعسل أهل الأرض أخلاقا وسيرة، فى نحوسنة، ولم يبق أحد فى البلاد التى لم يطرقوها إلا وهوخائف يتوقعهم، ويترقب وصولهم إليه .

ثم إنهم لا يحتاجون إلى ميرة ومدد يأتيهم، فإنهم معهم الأغنام، والبقر، والخيل، وغير ذلك من الدواب، يأكلون لحومها لا غير، وأما دوابهم التى يركبونها فإنها تحفر الأرض بحوافرها، وتأكل عروق النبات لا تعرف الشعير، فهم إذا نزلوا منزلا لا يحتاجون إلى شىء من خارج .

وأما ديانتهم، فإنهم يسجدون للشمس عند طلوعها، ولا يحرمون شيئا، فإنهم يأكلون جميع الدواب، حتى الكلاب، والخنازير، وغيرها، ولا يعرفون نكاحا بل المرأة يأتيها غير واحد من الرجال، فإذا جاء الولد لا يعرف أباه .

ولقد بلى الإسلام والمسلمون فى هذه المدة بمصائب لم يبتل بها أحد من الأمم، منها هؤلاء التتار، قبحهم الله، أقبلوا من المشرق، ففعلوا الأفعال التى يستعظمها كل من سمع بها، وستراها مشروحة متصلة، إن شاء الله تعالى .

ومنها خروج الفرنج، لعنهم الله، من المغرب إلى الشام، وقصدهم ديار مصر وملكهم ثغر دمياط منها، وأشرفت ديار مصر والشام وغيرها على أن يملكوها لولا لطف الله تعالى ونصره عليهم، وقد ذكرناه سنة أربع عشرة وستمائة .

ومنها أن الذى سلم من هاتين الطائفتين فالسيف بينهم مسلول، والفتنة قائمة على ساق : وقد ذكرناه أيضا، فإنا لله وإنا إليه راجعون، نسأل الله أن ييسر للإسلام والمسلمين نصرا من عنده، فإن الناصر، والمعين، والذاب عن الإسلام معدوم، «وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال»، فإن هؤلاء التتار إنما استقام لهم هذا الأمر لعدم المانع .

وسبب عدمه أن خوارزم شاه محمدا كان قد استولى على البلاد، وقتل ملوكها، وأفناهم، وبقى هووحده سلطان البلاد جميعها، فلما انهزم منهم لم يبق فى البلاد من يمنعهم، ولا من يحميها ﴿ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً ﴾ (الأنفال/ ٤٤)، وهذا حين نذكر ابتداء خروجهم إلى البلاد .

ذكر خروج التتر إلى تركستان وما وراء النهر وما فعلوه

فى هذه السنة ظهر التتار إلى بلاد الإسلام، وهم نوع كثير من الترك، ومساكنهم جبال طمغاج من نحو الصين، وبينها وبين بلاد الإسلام ما يزيد على ستة أشهر.

وكان السبب فى ظهورهم أن ملكهم، ويسمى بجنكزخان، المعروف بتموجين، كان قد فارق بلاده وسار إلى نواحى تركستان، وسير جماعة من التجار والأتراك، ومعهم شىء كثير من النقرة والقندر وغيرهما، إلى بلاد ما وراء النهر سمرقند وبخارى ليشتروا له ثياباً للكسوة، فوصلوا إلى مدينة من بلاد الترك تسمى أوترار، وهى آخر ولاية خوارزم شاه، وكان نائباً هناك، فلما ورد عليه هذه الطائفة من التتار أرسل إلى خوارزم شاه يعلمه بوصولهم ويذكر له ما معهم من الأموال، فبعث إليه خوارزم شاه يأمره بقتلهم وأخذ ما معهم من الأموال وإنفاذه إليه، فقتلهم، وسير ما معهم، وكان شيئا كبيرا، فلما وصل إلى خوارزم شاه فرقه على تجار بخارى، وسمرقند، وأخذ ثمنه منهم .

وكان بعد أن ملك ما وراء النهر من الخطا قد سد الطرق عن بلاد تركستان وما بعدها من البلاد، وإن طائفة من التتار أيضا كانوا قد خرجوا قديما والبلاد للخطا، فلما ملك خوارزم شاه البلاد بما وراء النهر من الخطا، وقتلهم، واستولى هؤلاء التتار على تركستان : كاشغار، وبلاساغون وغيرهما، وصاروا يحاربون عساكر خوارزم شاه، فلذلك منع الميرة عنهم من الكسوات وغيرها .

وقيل فى سبب خروجهم إلى بلاد الإسلام غير ذلك مما لا يذكر فى بطون الدفاتر :

فكان ما كان مما لست أذكره فظن خيرا ولا تسأل . عن الخبر

فلما قتل نائب خوارزم شاه أصحاب جنكزخان أرسل جواسيس إلى جنكزخان لينظر ما هو، وكم مقدار ما معه من الترك، وما يريد أن يعمل، فمضى الجواسيس، وسلكوا المفازة والجبال التى على طريقهم، حتى وصلوا إليه، فعادوا بعد مدة طويلة وأخبروه بكثرة عددهم، وأنهم يخرجون عن الإحصاء، وأنهم من أصبر خلق الله على القتال لا يعرفون هزيمة، وأنهم يعملون ما يحتاجون إليه من السلاح بأيديهم، فندم خوارزم شاه على قتل أصحابهم وأخذ أموالهم، وحصل عنده فكر زائد، فأحضر الشهاب الخيوفى، وهو فقيه فاضل، كبير المحل عنده، لا يخالف ما يشير به، فحضر عنده، فقال له :

قد جد أمر عظيم لا بد من الفكر فيه وأخذ رأيك فى الذى نفعله، وذاك أنه قد تحرك إلينا خصم من ناحية الترك فى كثرة لا تحصى .

فقال له فى عساكرك كثرة ونكاتب الأطراف، ونجمع العساكر، ويكون النفر عاما، فإنه يجب على المسلمين كافة مساعدتك بالمال والنفس، ونذهب بجميع العساكر إلى جانب سيحون، وهونهر كبير يفصل بين بلاد الترك وبلاد الإسلام، فنكون هناك، فإذا جاء العدو، وقد سار مسافة بعيدة، لقيناه ونحن مستريحون، وهووعساكره قد مسهم النصب والتعب .

فجمع خوارزم شاه أمرا ومن عنده من أرباب المشورة، فاستشارهم، فلم يوافقوه على رأيه، بل قالوا : الرأى أن نتركهم يعبرون سيحون إلينا، ويسلكون هذه

الجبال والمضايق، فإنهم جاهلون بطرقهم، ونحن عارفون بها، فنقوى حينئذ عليهم، ونهلكهم فلا ينجو منهم أحد .

فبينما هم كذلك إذ ورد رسول من هذا اللعن جنكزخان معه جماعة يتهدد خوارزم شاه، ويقول : تقتلون أصحابى وتجارى وتأخذون مالى منهم استعدوا للحرب فإنى واصل إليكم بجمع لا قبل لكم به .

وكان جنكزخان قد سار إلى تركستان، فملك كاشغار، وبلاساغون، وجميع تلك البلاد، وأزال عنها التتار الأولى، فلم يظهر لهم خبر، ولا بقى لهم، بل بادوا كما أصاب الخطا، وأرسل الرسالة المذكورة إلى خوارزم شاه، فلما سمعها خوارزم شاه أمر بقتل رسوله، فقتل، وأمر بحلق لحى الجماعة الذين كانوا معه، وأعادهم إلى صاحبهم جنكزخان يخبرونه بما فعل بالرسول. ويقولون له : إن خوارزم شاه يقول لك : أنا سائر إليك ولوأنك فى آخر الدنيا، حتى أنتقم، وأفعل بك كما فعلت بأصحابك .

وتجهز خوارزم شاه، وسار بعد الرسول مبادرا ليسبق خبره ويكبسهم، فأدمن السير، فمضى، وقطع مسيرة أربعة أشهر، فوصل إلى بيوتهم، فلم ير فيها إلا النساء والصبيان والأطفال، فأوقع بهم وغنم الجميع، وسبى النساء والذرية .

وكان سبب غيبة الكفار عن بيوتهم أنهم ساروا إلى محاربة ملك من ملوك الترك يقال له كشلوخان، فقاتلوه، وهزموه وغنموا أمواله وعادوا، فلقيهم فى الطريق الخبر بما فعل خوارزم شاه بمخلفيهم فجدوا السير، فأدركوه قبل أن يخرج عن بيوتهم، وتصافوا للحرب، واقتتلوا قتالا لم يسمع بمثله، فبقوا فى الحرب ثلاثة أيام بلياليها، فقتل من الطائفتين ما لا يعد، ولم ينهزم أحد منهم .

أما المسلمون فإنهم صبروا حمية للدين وعلموا أنهم إن انهزموا لم يبق للمسلمين باقية، وأنهم يؤخذون لبعدهم عن بلادهم .

وأما الكفار فصبروا لاستنقاذ أهليهم وأموالهم، واشتد بهم الأمر، حتى إن أحدهم كان ينزل عن فرسه ويقاتل قرنه راجلا، ويتضاربون بالسكاكين، وجرى

الدم على الأرض، حتى صارت الخيل تزلق من كثرته، واستنفد الطائفتان وسعهم فى الصبر والقتال . هذا القتال جميعه مع ابن جنكزخان ولم يحضر أبوه الوقعة، ولم يشعر بها، فاحصى من قتل من المسلمين فى هذه الوقعة فكانوا عشرين ألفا، وأما من الكفار فلا يحصى من قتل منهم .

فلما كان الليلة الرابعة افرقوا فنزل بعضهم مقابل بعض فلما أظلم الليل أوقد الكفار نيرانهم وتركوها بحالها وساروا وكذلك فعل المسلمون أيضا، كل منهم سئم القتال، فأما الكفار فعادوا إلى ملكهم جنكزخان، وأما المسلمون فرجعوا إلى بخارى فاستعد للحصار لعلمه بعجزه . لأن طائفة عسكره لم يقدر خوارزم شاه على أن يظفر بهم، فكيف إذا جاءوا جميعهم مع ملكهم ؟ فأمر أهل بخارى وسمرقند بالاستعداد للحصار، وجمع الذخائر للامتناع وجعل فى بخارى عشرين ألف فارس من العسكر فى مونها، وفى سمرقند خمسين ألفا، وقال لهم: احفظوا البلد حتى أعود إلى خوارزم وخراسان وأجمع العساكر وأستنجد بالمسلمين وأعود إليكم .

فلما فرغ من ذلك رحل عائدا إلى خراسان فعبر جيحون، ونزل بالقرب من بلخ فعسكر هناك .

وأما الكفار فإنهم رحلوا بعد أن استعدوا يطلبون ما وراء النهر، فوصلوا إلى بخارى بعد خمسة أشهر من وصول خوارزم شاه، وحصروها وقاتلوها ثلاثة أيام قتالا شديدا متتابعا فلم يكن للعسكر الخوارزمى بهم قوة ففارقوا البلد عائدين إلى خراسان فلما أصبح أهل البلد وليس عندهم من العسكر أحد ضعفت نفوسهم، فأرسلوا القاضى وهو بدر الدين قاضى خان ليطلب الأمان للناس، فأعطوهم الأمان .

وكان قد بقى من العسكر طائفة لم يمكنهم الهرب مع أصحابهم . فاعتصموا بالقلعة، فلما أجابهم جنكزخان إلى الأمان فتحت أبواب المدينة يوم الثلاثاء رابع ذى الحجة من سنة ست عشرة وستمائة، فدخل الكفار بخارى ولم يتعرضوا

لأحد، بل قالوا لهم : كل ما هوللسلطان عندكم من ذخيرة وغيره أخرجوه إلينا، وساعدونا على قتال. من بالقلعة، وأظهروا عندهم العدل وحسن السيرة، ودخل جنكزخان بنفسه وأحاط بالقلعة، ونادى فى البلد بأن لا يتخلف أحد ومن تخلف قتل، فحضروا جميعهم، فأمرهم بطم الخندق، فطموه بالأخشاب والتراب وغير ذلك، حتى إن الكفار كانوا يأخذون المنابر وربعات القرآن فيلقونها فى الخندق، فإنا لله وإنا إليه راجعون، وبحق سمى الله نفسه صبورا حليما، وإلا كان خسف بهم الأرض عند فعل مثل هذا .

ثم تابعوا الزحف إلى القلعة وبها نحوأربع مائة فارس من المسلمين، فبذلوا جهدهم، ومنعوا القلعة ثانى عشر يوما يقاتلون جمع الكفار وأهل البلد، فقتل بعضهم، ولم يزالوا كذلك حتى زحفوا إليهم، ووصل النقابون إلى سور القلعة فنقبوه، واشتد حينئذ القتال، ومن بها من المسلمين يرمون ما يجدون من حجارة ونار وسهام، فغضب اللعين، ورد أصحابه ذلك اليوم، وباكرهم من الغد، فجرروا فى القتال، وقد تعب من بالقلعة ونصبوا وجاءهم ما لا قبل لهم به، فقهرهم الكفار ودخلوا القلعة، وقاتلهم المسلمون الذين فيها حتى قتلوا عن آخرهم، فلما فرغ من القلعة نادى أن يكتب له وجوه الناس ورؤساؤهم، ففعلوا ذلك، فلما عرضوا عليه أمر بإحضارهم فحشروا، فقال : أريد منكم إلى قرة التى باعكم خوارزم شاه، فإنها لى، ومن أصحابى أخذت، وهى عندكم .

فأحضر كل من كان عنده شىء منها بين يديه، ثم أمرهم بالخروج من البلد، فخرجوا من البلد مجردين من أموالهم، ليس مع أحد منهم غير ثيابه التى عليه، ودخل الكفار البلد فنهبوه وقتلوا من وجدوا فيه، وأحاط بالمسلمين، فأمر أصحابه أن يقتسموهم، فاقتسموهم .

وكان يوما عظيما من كثرة البكاء من الرجال والنساء والولدان، وتفرقوا أيدى سبا، وتمزقوا كل ممزق، واقتسموا النساء أيضا، وأصبحت بخارى خاوية على عروشها كأن لم تغن بالأمس، وارتكبوا من النساء العظيم، والناس ينظرون

ويبكون، ولا يستطيعون أن يدفعوا عن أنفسهم شيئا مما نزل بهم، فمنهم من لم يرض بذلك، واختار الموت على ذلك، فقاتل حتى قتل، وممن فعل ذلك واختار أن يقتل ولا يرى ما نزل بالمسلمين، الفقيه الإمام ركن الدين إمام زاده وولده، فإنهما لما رأيا ما يفعل بالحرم قاتلا حتى قتلا .

وكذلك فعل القاضى صدر الدين خان، ومن استسلم أخذ أسيرا، وألقوا النار فى البلد، والمدارس، والمساجد، وعذبوا الناس بأنواع العذاب فى طلب المال، ثم رحلوا نحو سمرقند وقد تحققوا عجز خوارزم شاه عنهم، وهم بمكانه بين ترمذ وبلخ، واستصحبوا معهم من سلم من أهل بخارى أسارى، فساروا بهم مشاة على أقبح صورة، فكل من أعيا وعجز عن المشى قتلوه، فلما قاربوا سمرقند قدموا الخيالة، وتركوا الرجالة والأسارى والأثقال وراءهم، حتى تقدموا شيئا فشيئا ليكون أرعب لقلوب المسلمين، فلما رأى أهل البلد سوادهم استعظموه .

فلما كان اليوم الثانى وصل الأسارى والرجالة والأثقال، ومع كل عشرة من الأسارى علم، فظن أهل البلد أن الجميع عساكر مقاتلة، وأحاطوا بالبلد وفيه خمسون ألف مقاتل من الخوارزمية، وأما عاضة البلد فلا يحصون كثرة، فخرج إليهم شجعان أهله، وأهل الجلد والقوة رجالة، ولم يخرج معهم من العسكر الخوارزمى أحد لما فى قلوبهم من خوف هؤلاء الملاعين، فقاتلهم الرجالة بظاهر البلد فلم يزل التتار يتأخرون، وأهل البلد يتبعونهم، ويطمعون فيهم، وكان الكفار قد كمنوا لهم كمينا، فلما جاوزوا الكمين خرج عليهم وحال بينهم وبين البلد، ورجع الباقون الذين أنشبوا القتال أولا، فبقوا فى الوسط، وأخذهم السيف من كل جانب فلم يسلم منهم أحد، قتلوا عن آخرهم شهداء، رضى الله عنهم، وكانوا سبعين ألفا على مما قيل .

فلما رأى الباقون من الجند والعامة ذلك ضعفت نفوسهم وأيقنوا بالهلاك، فقال الجند، وكانوا أتراكا : نحن من جنس هؤلاء ولا يقتلوننا، فطلبوا الأمان، فأجابوهم إلى ذلك، ففتحوا أبواب البلد، ولم يقدر العامة على منعهم، وخرجوا إلى الكفار بأهلهم وأموالهم، فقال لهم الكفار : ادفعوا إلينا سلاحكم وأموالكم

ودوابكم ونحن نسيركم إلى مأمنكم، ففعلوا ذلك، فلما أخذوا أسلحتهم ودوابهم وضعوا السيف فيهم وقتلوهم عن آخرهم، وأخذوا أموالهم ودوابهم ونساءهم .

فلما كان اليوم الرابع نادوا فى البلد أن يخرج أهله جميعهم، ومن تأخر قتلوه، فخرج جميع الرجال والنساء والصبيان، ففعلوا مع أهل سمرقند مثل فعلهم مع أهل بخارى من النهب، والقتل، والسبى، والفساد، ودخلوا البلد فنهبوا ما فيه، وأحرقوا الجامع وتركوا باقى البلد على حاله، وافتضوا الأبكار، وعذبوا الناس بأنواع العذاب فى طلب المال، وقتلوا من لم يصلح للسبى، وكان ذلك فى المحرم سنة سبع عشرة وستمائة .

وكان خوارزم شاه بمنزلته كلما اجتمع إليه عسكر سيره إلى سمرقند، فيرجعون ولا يقدرون على الوصول إليها، نعوذ بالله من الخذلان، سيرة عشرة آلاف فارس فعادوا كالمنهزمين من غير قتال، وسير عشرين ألفا فعادوا أيضا .

ذكر صفة خوارزم شاه وشىء من سيرته، ووصول التتار إلى الرى وهمزان وملكوها وقتلوا أهلها، وأذربيجان.

ذكر ما فعله التتار بما وراء النهر بعد بخارى وسمرقند

قد ذكرنا ما فعله التتار المغربة التى سيرها ملكهم جنكزخان، لعنه الله، إلى خوارزم شاه أما جنكزخان فإنه بعد أن سير هذه الطائفة إلى خوارزم شاه وبلغه انهزام خوارزم شاه من خراسان، قسم أصحابه عدة أقسام، فسير قسما منها إلى بلاد فرغانة ليملكوها وسير قسما آخر منها إلى ترمذ، وسير قسما منها إلى كلانة، وهى قلعة حصينة على جانب جيحون، من أحصن القلاع وأمنع الحصون، فسارت كل طائفة إلى الجهة التى أمرت بقصدها، ونازلتها، واستولت عليها، وفعلت من القتل، والأسر، والسبى، والنهب، والتخريب، وأنواع الفساد، مثل ما فعل أصحابهم .

فلما فرغوا من ذلك عادوا إلى ملكهم جنكزخان وهوبسمرقند، فجهز جيشا عظيما مع أحد أولاده وسيرهم إلى خوارزم، وسير جيشا آخر فعبروا جيحون إلى خراسان.

ذكر ملك التتار خراسان

لما سار الجيش المنفذ إلى خراسان عبروا جيحون، وقصدوا مدينة بلخ، فطلب أهلها الأمان، فأمنوهم، فسلم البلد سنة سبع عشرة وستمائة، ولم يتعرضوا له بنهب ولا قتل، بل جعلوا فيه شحنة وساروا وقصدوا الزوزان، وميمند، وأندخوى، وقاريات، فملكوا الجميع وجعلوا فيه ولاة، ولم يتعرضوا لأهلها بسوء ولا أذى، سوى أنهم كانوا يأخذوا الرجال ليقاتلوا بهم من يمتنع عليهم، حتى وصلوا إلى الطالقان، وهى ولاية تشتمل على عدة بلاد، وفيها قلعة حصينة يقال لها منصوركوه، لا ترام علوا وارتفاعا، وبها رجال يقاتلون، شجعان، فحصروها مدة ستة أشهر يقاتلون أهلها ليلا ونهارا ولا يظفرون منها بشىء

فأرسلوا إلى جنكزخان يعرفونه عجزهم عن ملك هذه القلعة، لكثرة من فيها من المقاتلة، ولامتناعها بحصانتها، فسار بنفسه وبمن عنده من جموعه إليهم، وحصرها، ومعه خلق كثير من المسلمين أسرى، فأمرهم بمباشرة القتال وإلا قتلهم، فقاتلوا معه، وأقام عليها أربعة أشهر أخرى فقتل من التتار عليها خلق كثير، فلما رأى ملكهم ذلك أمر أن يجمع له من الحطب والأخشاب ما أمكن جمعه، ففعلوا ذلك، وصاروا يعملون صفا من خشب وفوقه صفا من تراب، فلم يزالوا كذلك حتى صار تلا عاليا يوازى القلعة، وصعد الرجالة فوقه ونصبوا عليه منجنيقا فصار يرمى إلى وسط القلعة وحملوا على التتار حملة واحدة فسلم الخيالة منهم ونجوا، وسلكوا تلك الجبال والشعاب.

وأما الرجالة فقتلوا، ودخل التتار القلعة، وسبوا النساء والأطفال، ونهبوا الأموال والأمتعة .

ثم إن جنكزخان جمع أهل البلاد الذين أعطاهم الأمان ببلخ وغيرها، وسيرهم مع بعض أولاده إلى مدينة مرو، فوصلوا إليها وقد اجتمع بها مع الأعراب والأتراك وغيرهم ممن نجا من المسلمين ما يزيد على مائتى ألف رجل، وهم معسكرون بظاهر مرو، وهم عازمون على لقاء التتار، ويحدثون نفوسهم بالغلبة لهم، والاستيلاء عليهم فلما وصل التتار إليهم التقوا واقتتلوا، فصبر

المسلمون وأما التتار فلا يعرفون الهزيمة، حتى إن بعضهم أسر، فقال وهوعند المسلمين : إن قيل إن التتار يقتلون فصدقوا، وإن قيل إنهم انهزموا فلا تصدقوا.

فلما رأى المسلمون صبر التتار وإقدامهم، ولوا منهزمين، فقتل التتار منهم وأسروا الكثير، ولم يسلم إلا القليل، ونهبت أموالهم، وسلاحهم، ودوابهم، وأرسل التتار إلى ما حولهم من البلاد يجمعون الرجال لحصار مرو، فلما اجتمع لهم ما أرادوا تقدموا إلى مرو وحصروها، وجدوا فى حصرها، ولازموا القتال

وكان أهل البلد قد ضعفوا بانهزام ذلك العسكر، وكثرة القتل والأسر فيهم، فلما كان اليوم الخامس من نزولهم أرسل التتار إلى الأمير الذى بها متقدما على من فيها يقولون له :لا تهلك نفسك وأهل البلد، واخرج إلينا فنحن نجعلك أمير هذه البلدة ونرحل عنك فأرسل يطلب الأمان لنفسه ولأهل البلد، فأمنهم، فخرج إليهم، فخلع عليه ابن جنكزخان، واحترمه، وقال له : أريد أن تعرض على أصحابك حتى ننظر من يصلح لخدمتنا استخدمناه، وأعطيناه إقطاعا، ويكون معنا.

فلما حضروا عنده، وتمكن منهم، قبض عليهم وعلى أميرهم، وكتفوهم فلما فرغ منهم قال لهم : اكتبوا إلى تجار البلد ورؤسائه، وأرباب الأموال فى جريدة، واكتبوا إلى أرباب الصناعات والحرف فى نسخة أخرى، واعرضوا ذلك علينا ففعلوا ما أمرهم، فلما وقف على النسخ أمر أن يخرج أهل البلد منه بأهليهم، فخرجوا كلهم، ولم يبق فيه أحد، فجلس على كرسى من ذهب وأمر أن يحضر أولئك الأجناد الذين قبض عليهم، فأحضروا، وضربت رقابهم صبرا والناس ينظرون إليهم ويبكون.

وأما العامة فإنهم قسموا الرجال والنساء والأطفال والأموال، فكان يوما مشهودا من كثرة الصراخ والبكاء والعويل، أخذوا أرباب الأموال فضربوهم، وعذبوهم بأنواع العقوبات فى طلب الأموال، فربما مات أحدهم من شدة الضرب، ولم يكن بقى له يفتدى به نفسه، ثم إنهم أحرقوا البلد، وأحرقوا تربة السلطان سنجر، ونبشوا القبر طلبا للمال، فبقوا كذلك ثلاثة أيام، فلما كان اليوم الرابع أمر بقتل أهل البلد كافة، وقال: هؤلاء عصوا . علينا، فقتلوهم أجمعين ثم

وأمر بإحصاء القتلى، فكانوا نحوسبعمائة ألف قتيل، فإنا لله وإنا إليه راجعون مما جرى على المسلمين ذلك اليوم.

ثم ساروا إلى نيسابور فحصروها خمسة أيام، وبها جمع صالح من العسكر الإسلامى، فلم يكن لهم بالتتار قوة، فملكوا المدينة، وأخرجوا أهلها إلى الصحراء فقتلوهم، وسبوا حريمهم، وعاقبوا من اتهموه بالمال، كما فعلوا بمرو، وأقاموا خمسة عشر يوما يخربون، ويفتشون المنازل عن الأموال .

وكانوا لما قتلوا أهل مرو قيل لهم إن قتلاهم سلم منهم كثير، ونجوا إلى بلاد الإسلام، فأمروا بأهل نيسابور أن تقطع رؤوسهم لئلا يسلم من القتل أحد، فلما فرغوا من ذلك سيروا طائفة منهم إلى طوس، ففعلوا بها كذلك أيضا، وخربوها، وخربوا المشهد الذى فيه على بن موسى الرضى، والرشيد، حتى جعلوا الجميع خرابا.

ثم ساروا إلى هراة، وهى من أحصن البلاد، فحصروها عشرة أيام فملكوها وأمنوا أهلها، وقتلوا منهم البعض، وجعلوا عند من سلم منهم شحنة، وساروا إلى غزنة، فلقيهم جلال الدين بن خوارزم شاه فقاتلهم وهزمهم على ما نذكره إن شاء الله، فوثب أهل هراة عل الشحنة فقتلوه، فلما عاد المنهزمون إليهم دخلوا البلد قهرا وعنوة، وقتلوا كل من فيه، ونهبوا الأموال وسبوا الحريم، ونهبوا السواد وخربوا المدينة جميعها وأحرقوها، وعادوا ملكهم جنكزخان وهو بالطالقان يرسل السرايا إلى جميع بلاد خراسان ففعلوا بها كذلك، ولم يسلم من شرهم وفسادهم شىء من البلاد، وكان جميع ما فعلوه بخراسان سنة سبع عشرة وستمائة

وملكهم خوارزم وتخريبها، وملكهم غزنة وبلاد الغور .

ثم دخلت سنة ثمان عشر وستمائة

ذكر وفاة قتادة أمير مكة وملك ابن الحسين وقتل أمير الحجاج.

ثم دخلت سنة تسع عشر وستمائة

ذكر خروج طائفة منقفجاق إلى أذربيجان وما فعلوه بالكرج،ونهب الكرج بيلقان،وملك بدر الدين قلعة شوش.

ثم دخلت سنة عشرين وستمائة

ذكر ملك صاحب اليمن مكة، والحرب بين المسلمين والكرج بأرمينية، والحرب بين غياث الدين وخاله .

ثم دخلت سنة إحدى وعشرين وستمائة

ذكر عود طائفة من التتار إلى الرى وهمذان وغيرهما

أول هذه السنة وصل طائفة من التتار من عند ملكهم جنكزخان، وهؤلاء غير الطائفة الغربية التى ذكرنا أخبارها قبل وصول هؤلاء الرى، وكان من سلم من أهلها قد عادوا إليها وعمروها، فلم يشعروا بالتتار إلا وقد وصلوا إليهم، فلم يمتنعوا عنهم، فوضعوا فى أهلها السيف وقتلوهم كيف شاءوا، ونهبوا البلد وخربوه، وساروا إلى ساوة ففعلوا بها كذلك ثم إلى قم وقاشان، وكانتا قد سلمتا من التتار أولا، فإنهم لم يقربوهما، ولا أصاب أهلهما أذى، فاتاهما هؤلاء وملكوهما، وقتلوا أهلهما، وخربوهما، وألحقوهما بغيرهما من البلاد الخراب .

ثم ساروا فى البلاد يخربون ويقتلون وينهبون ثم قصدوا همذان، وكان قد اجتمع بها كثير ممن سلم من أهلها، فأبادوهم قتلا وأسرا ونهبا، وخربوا البلد.

وكانوا لما وصلوا إلى الرى رأوا بها عسكرا كثيرا من الخوارزمية، فكبسوهم وقتلوا منهم، وانهزم الباقون إلى أذربيجان، فنزلوا بأطرافها، فلم يشعروا إلا والتتار أيضا قد كبسوهم ووضعوا السيف فيهم، فولوا منهزمين، فوصل طائفة منهم إلى تبريز وأرسلوا إلى صاحبها أوزبك بن البهلوان يقولون :

إن كنت موافقنا فسلم إلينا من عندك من الخوارزمية، وإلا فعرفنا أنك غير موافق لنا، ولا فى طاعتنا فعمد إلى من عنده من الخوارزمية فقتل بعضهم وأصر بعضهم، وحمل الأسرى والرؤوس إلى التتار، وأنفذ معها من الأموال والثياب والدواب شيئا كثيرا فعادوا عن بلاده نحوخراسان، فعلوا هذا وليسوا فى كثرة كانوا نحوستة آلاف فارس، وكان الخوارزمية الذين انهزموا منهم نحو ستة آلاف

راجل، وعسكر أوزبك أكثر من الجميع، ومع هذا فلم يحدث نفسه ولا الخوارزمية بالامتناع منهم.

نسأل الله أن ييسر للإسلام والمسلمين من يقوم بنصرتهم، فقد دفعوا إلى أمر عظيم من قتل النفوس، ونهب الأموال، واسترقاق الأولاد، وسبى الحريم وقتلهن، وتخريب البلاد .

ذكر خروج طائفة من قفجاق إلى أذربيجان وما فعلوه بالكرج وما كان منهم ونهب الكرج .

وذكر ملك غياث الدين بلاد فارس وحضار صاحب إربل الوصل.

ثم دخلت سنة اثنين وعشرين وستمائة

ذكر وصول جلال الدين بن خوارزم شاه إلى خوزستان والعراق، ووفاة الملك الأفضل، وملك جلال الدين أذربيجان، وانهزام الكرج منه، ووفاة الخليفة الناصر لدين الله، وخلافة الظاهر بأمر الله.

ذكر عدة حوادث

فى هذه الليلة ليلة الأحد العشرين من صفر زلزلت الأرض بالموصل، وديار الجزيرة، والعراق، وغيرها، زلزلة متوسطة .

وفيها اشتد الغلاء بالموصل، وديار الجزيرة جميعها، فأكل الناس الميتة، والكلاب والسنانير بعد أن كانت كثيرة . ولقد دخلت يوما إلى دارى، فرأيت الجوارى يقطعن اللحم ليطبخنه، فرأيت سنانير استكثرتها فعددتها، فكانت اثنى عشر سنورا، ورأيت اللحم فى هذا الغلاء فى الدار وليس عنده من يحفظه من السنانير لعدمها، وليس بين المرتين كثير . وغلا مع الطعام كل شىء فبيع رطل الشيرج بقيراطين بعد أن كان بنصف قيراط قبل الغلاء، وأما قبل ذلك فكان كل ستين رطلا بدينار .

ومن العجب أن السلق والجزر والشلجم بيع كل خمس أرطال بدرهم، وبيع البنفسج كل ستة أرطال بدرهم وبيع فى بعض الأوقات كل سبعة أرطال بدرهم،

وهذا ما لم يسمع بمثله. فإن الدنيا ما زالت قديما وحديثا، إذا غلت الأسعار، متى جاء المطر رخصت، إلا هذه السنة فإن الأمطار ما زالت متتابعة من أول الشتاء إلى آخر الربيع، وكلما جاء المطر غلت الأسعار، وهذا ما لم يسمع بمثله، فبلغت الحنطة مكوك وثلث بدينار وقيراط، يكون وزنه خمسة وأربعين رطلا دقيقا بالبغدادى، وكان الملح مكوك بدرهم، فصار المكوك بعشرة دراهم، وكان الأرز مكوك باثنى عشر درهما، فصار المكوك بخمسين درهما، وكان التمر كل أربعة أرطال وخمسة أرطال بقيراط، فصار كل رطلين بقيراط .

ومن عجيب ما يحكى أن السكر النادر الأسمر كان كل رطل بدرهم وربع، وكان السكر الأبلوج المصرى النقى كل رطل بدرهمين، فصار السكر الأسمر كل رطل بثلاثة دراهم ونصف، والسكر الأبلوج كل رطل بثلاثة دراهم وربع، وسببه أن الأمراض لما كثرت، واشتد الوباء، قالت النساء : هذه الأمراض باردة والسكر الأسمر حار فينفع منها، والأبلوج بارد يقويها، وتبعهن الأطباء استمالة لقلوبهن، ولجهلهم، فغلا الأسمر بهذا السبب، وهذا من الجهل المفرط .

وما زالت الأشياء هكذا إلى أول الصيف، واشتد الوباء، وكثر الموت والمرض فى الناس، فكان يحمل على النعش الواحد عدة من الموتى، فممن مات فيه شيخنا عبد المحسن بن عبد الله الخطيب، الطوسى، خطيب الموصل، وكان من صالحى المسلمين، وعمره ثلاث وثمانون سنة وشهور .

وفيها انخسف القمر ليلة الثلاثاء خامس عشر صفر .

وفيها هرب أمير حاج العراق، وهوحسام الدين أبوفراس الحلى، الكردى، الورامى، وهوابن أخى الشيخ ورام، كان عمه من صالحى المسلمين وخيارهم من أهل الحلة السيفية، فارق الحاج بين مكة والمدينة وسار إلى مصر .

حكى لى بعض أصدقائه أنه إنما حمله على الهرب كثرة الخرج الطريق، وقلة المعونة من الخليفة، ولما فارق الحاج خافوا خوفا شديدا من العرب، فأمن الله خوفهم، ولم يذعرهم ذاعر فى جميع الطريق، ووصلوا آمنين، إلا أن كثيرا من الجمال هلك، أصابها غدة عظيمة فلم يسلم إلا القيل .

وفيها، فى آب، جاء مطر شديد ورعد وبرق، ودام حتى جرت الأودية، وامتلأت الطرق بالوحل، ثم جاء الخبر من العراق، والشام، والجزيرة، وديار بكر، أنه كان عندهم مثله، ولم يصل إلينا بالموصل أحد إلا وأخبر أن المطر كان عندهم مثله فى ذلك التاريخ .

وفيها كان فى الشتاء ثلج كثير، ونزلت بالعراق، فسمعت أنه نزل فى جميع العراق، حتى فى البصرة، أما إلى واسط فلا شك فيه، وأما البصرة فإن الخبر لم يكثر عندنا بنزوله فيها .

وفيها خربت قلعة الزعفران من أعمال الموصل، وهى حصن مشهور يعرف قديما بدير الزعفران، وهوعلى جبل عال قريب من فرشابور .

وفيها أيضا خربت قلعة الجديدة من بلد الهكارية، من أعمال الموصل أيضا، وأضيف عملها وقراها إلى العمادية .

وفيها، فى ذى الحجة، سار جلال الدين بن خوارزم شاه من تبريز إلى بلد الكرج قاصدا لأخذ بلادهم واستئصالهم، وخرجت السنة ولم يبلغنا أنه فعل بهم شيئا، ونحن نذكر ما فعله بهم سنة ثلاث وعشرين وستمائة إن شاء الله .

وفيها، ثالث شباط، سقط ببغداد ثلج، وبرد الماء بردا شديدا، وقوى البرد حتى مات به جماعة من الفقراء .

وفيها، فى ربيع الأول، زادت دجلة زيادة عظيمة، واشتغل الناس بإصلاح سكر القورج، وخافوا، فبلغت الزيادة قريبا من الزيادة الأولى ثم نقص الماء واستبشر الناس.

ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين وستمائة

ذكر ملك جلال الدين تفليس،والحرب بين عسكر الأشرف وعسكر جلال الدين.

ذكر وفاة الخليفة الظاهر بأمر الله

فى هذه السنة، فى الرابع عشر من رجب، توفى الإمام الظاهر بأمر الله أمير المؤمنين أبونصر محمد بن الناصر لدين الله أبى العباس أحمد بن المستضيئ

بأمر الله، وقد تقدم نسبه عند وفاة أبيه رضى الله عنهما، فكانت خلافته شمعة أشهر وأربعة وعشرين يوما، وكان نعم الخليفة جمع الخشوع، الخضوع لربه، والعدل والإحسان إلى رعيته، وقد تقدم عند ذكر ولايته الخلافة من أفعاله ما فيه كفاية ولم يزل كل يوم يزداد من الخير والإحسان إلى الرعية، فرضى الله عنه وأرضاه، وأحسن منقلبه ومثواه، فلقد جدد من العدل ما كان دارسا، وأذكر من الإحسان ما كان منسيا .

وكان قبل وفاته أخرج توقيعا إلى الوزير بخطه ليقرأه على أرباب الدولة، وقال الرسول : أمير المؤمنين يقول : ليس غرضنا أن يقال برز مرسوم، أونفذ مناك، ثم لا يبين له أثر، بل أنتم إلى إمام فعال أحوج منكم إلى إمام قوال، فقرءوه، فإذا فى أوله . بعد البسملة :

اعلموا أنه ليس إمهالنا إهمالا، ولا إغضاؤنا إغفالا، ولكن لنبلوكم أيكم أحسن عملا، وقد عفونا لكم ما سلف من إخراب البلاد، وتشريد الرعايا، وتقبيح الشمعة، وإظهار الباطل الجلى فى صورة الحق الخفى حيلة ومكيدة، وتسمية الاستئصال والاجتياح استيفاء واستدراكا لأغراض انتهزتم فرصتها مختلسة من براثن ليث باسل، وأنياب أسد مهيب، تتفقون بألفاظ مختلفة على معنى واحد وأنتم أمناؤه وثقاته، فتميلون رأيه إلى هواكم، وتمرجون باطلكم بحقه، فيطيعكم وأنتم له عاصون، ويوافقكم وأنتم له مخالفون، والآن قد بدل الله سبحانه بخوفكم أمنا، وبفقركم غنى، وبباطلكم حقا، ورزقكم سلطانا يقيل العزة ويقبل المعذرة، ولا يؤاخذ إلا من أصر، ولا ينتقم إلا ممن استمر، يأمركم بالعدل وهو يريده منكم، وينهاكم عن الجور وهو يكرهه لكم، يخاف الله تعالى، فيخوفكم مكره، ويرجوالله تعالى، ويرغبكم فما طاعته، فإن سلكتم مسالك خلفاء الله فى أرضه وأمنائه على خلقه وإلا هلكتم، والسلام .

ولما توفى وجدوا فى بيت، فى داره، ألوف رقاع كلها مختومة لم يفتحها، فقيل له ليفتحها، فقال : لاحاجة لنا فيها، كلها سعايات .

ولم أزل، علم الله سبحانه، مذ ولى الخلافة، أخاف عليه قصر المدة لخبث الزمان وفساد أهله، وأقول لكثير من أصدقائنا: وما أخوفنى أن تقصر مدة خلافته، لأن زماننا وأهله لا يستحقون خلافته، فكان كذلك .

وذكر خلافة ابنه المستنصر بالله.

ذكر حصر جلال الدين خلاط

قد ذكرنا أن جلال الدين عاد من مدينة آنى إلى . تفليس ودخل بلاد ابخاز، وكان رحيله مكيدة لأنه بلغه أن النائب عن الملك الأشرف، وهوالحاجب حسام الدين على بمدينة خلاط، قد احتاط، واهتم بالأمر وحفظ البلد لقربه منه، فعاد إلى تفليس ليطمئن أهل خلاط ويتركوا الاحتياط والاستظهار ثم يقصدهم بغتة، فكانت غيبته ببلاد ابخاز عشرة أيام، وعاد، وسار مجدا يطوى المراحل على عادته، فلولم يكن عنده من يراسل نواب الأشرف بالأخبار لفجأهم على حين غفلة منهم، وإنما كان عنده بعض ثقاته يعرفهم أخباره، وكتب إليهم فوصل الخبر إليهم قبل وصوله بيومين .

ووصل جلال الدين فنازل مدينة ملازكرد يوم السبت ثالث عشر ذى القعدة، ثم رحل عنها، فنازل مدينة خلاط يوم الاثنين خامس عشر ذى القعدة، فلم ينزل حتى زحف إليها، وقاتل أهلها قتالا شديدا، فوصل عسكره سور البلد، وقتل بينهم قتلى كثيرة، ثم زحف إليها مرة ثانية، وقاتل أهل البلد قتالا عظيما، فعظمت نكاية العسكر فى أهل خلاط، ووصلوا إلى سور البلد، ودخلوا الربض الذى له، ومدوا أيديهم فى النهب وسبى الحريم .

فلما رأى أهل خلاط ذلك تذامروا، وحرض بعضهم بعضا، فعادوا إلى العسكر فقاتلوهم فأخرجوهم من البلد، وقتل بينهم خلق كثير وأسر العسكر خوارزمى من أمراء خلاط جماعة، وقتل منهم كثير، وترجل الحاجب على، ووقف فى نحر العدو، وأبلى بلاء عظيما .

ثم إن جلال الدين استراح عدة أيام، وعاود الزحف مثل أول يوم، فقاتلوه حتى أبعدوا عسكره عن البلد . وكان أهل خلاط مجدين فى القتال، حريصين على

المنع عن أنفسهم، لما رأوا من سوء سيرة الخوارزميين ونهبهم البلاد، وما فيهم من الفساد، فهم يقاتلون قتال من يمنع عن نفسه وحريمه وماله، ثم أقام عليها إلى أن اشتد البرد، ونزل شيء من الثلج، فرحل عنها يوم الثلاثاء لسبع بقين من ذى الحجة من السنة، وكان سبب رحيله مع خوف الثلج ما بلغه عن التركمان الإيوانية من الفساد ببلاده .

وذكر الصلح بين المعظم والأشرف والفتنة بين الفرنج والأرمن.

ثم دخلت سنة أربع وعشرين وستمائة

ذكر دخول الكرج مدينة تفليس وإحراقها، ونهب جلال الدين بلد الإسماعلية، والحرب بين جلال الدين والتتار، ووفاة المعظم صاحب دمشق .

ثم دخلت سنة خمس وعشرين وستمائة

ذكر الخلف بين جلال الدين وأخيه

فى هذه السنة خاف غياث الدين بن خوارزم شاه، وهوأخو جلال الدين من أبيه، وخافه معه جماعة من الأمراء، واستشعروا منه، وأرادوا الخلاص منه، فلم يتمكنوا من ذلك إلى أن خرجت التتار، واشتغل بهم جلال الدين، فهرب غياث الدين ومن معه، وقصدوا خوزستان، وهى من بلاد الخليفة، وأرادوا الدخول فى طاعة الخليفة، فلم يمكنهم النائب بها من الدخول إلى البلد، مخافة أن تكون هذه مكيدة، فبقى هناك، فلما طال عليه الأمر فارق خوزستان وقصد بلاد الإسماعيلية، فوصل إليهم، واحتمى بهم واستجار بهم .

وكان جلال الدين قد فرغ من أمر التتار وعاد إلى تبريز، فأتاه الخبر وهوبالميدان يلعب بالكرة أن أخاه قد قصد أصفهان، فألقى الجوكان من يده، وسار مجدا، فسمع أن أخاه قد قصد الإسماعيلية ملتجئا إليهم، ولم يقصد أصفهان، فعاد إلى بلاد الإسماعيلية لينهب بلادهم إن لم يسلموا إليه أخاه، وأرسل يطلبه من مقدم الإسماعيلية، فأعاد الجواب يقول : إن أخاك قد قصدنا،

وهوسلطان ابن سلطان، ولا يجوز لنا أن نسلمه، لكن نحن نتركه عندنا ولا نمكنه أن يأخذ شيئا من بلادك، ونسألك أن تشفعنى فيه والضمان علينا بما قلنا، ومتى كان منه ما تكره فى بلادك. فبلادنا حينئذ بين يديك تفعل فيها ما تختار .
فأجابهم إلى ذلك، واستحلفهم على الوفاء بذلك، وعاد عنهم وقصد خلاط، على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر الحرب بين جلال الدين والتتار

فى هذه السنة عاود التتار الخروج إلى الرى، وجرى بينهم وبين جلال الدين حروب كثيرة اختلف الناس علينا فى عددها، كان أكثرها عليه، وفى الأخير كان الظفر له .

وكانت أول حرب بينهم عجائب غريبة، وكان هؤلاء التتار قد سخط ملكهم جنكزخان على مقدمهم، وأبعده عنه، وأخرجه من بلادد، فقصد خراسان، فرآها خرابا، فقصد الرى ليتغلب على تلك النواحى والبلاد، فلقيه بها جلال الدين، فاقتتلوا أشد قتال، ثم انهزم جلال الدين وعاد ثم انهزم، وقصد أصفهان، وأقام بينها وبين الرى، وجمع عساكره ومن فى طاعته، فكان فيمن أتاه صاحب بلاد فارس، وهوابن أتابك سعد ملك بعد وفاة أبيه، كما ذكرناه، وعاد جلال الدين إلى التتار فلقيهم .

فبينما هم مصطفون كل طائفة مقابل الأخرى انعزل غياث الدين أخوجلال الدين فيمن وافقه من الأمراء على مفارقة جلال الدين، واعتزلوا، وقصدوا جهة ساروا إليها، فلما رآهم التتار قد فارقوا العسكر ظنوهم يريدون أن يأتوهم من وراء ظهورهم ويقاتلوهم من جهتين، فانهزم التتار لهذا الظن وتبعهم صاحب بلاد فارس . وأما جلال الدين فإنه لما رأى مفارقة أخيه إياه ومن معه من الأمراء ظن أن التتار قد رجعوا خديعة ليستدرجوه، فعاد منهزماً، ولم يجسر أن يدخل أصفهان لئلا يحصره التتار، فمضى إلى سميرم .

وأما صاحب فارس فلما أبعد فى أثر التتار، ولم ير جلال الدين ولا عسكره معه، خاف التتار فعاد عنهم .

وأما التتار فلما لم يروا فى آثارهم أحدا يطلبهم وقفوا، ثم عادوا إلى أصفهان، فلم يجدوا فى طريقهم من يمنعهم، فوصلوا إلى أصفهان فحصروها، وأهلها يظنون أن جلال الدين قد عدم، فبينما هم كذلك والتتار يحصرونهم إذ وصل قاصد من جلال الدين إليهم يعرفهم سلامته، ويقول : إنى أدور حتى يجتمع إلى من سلم من العسكر وأقصدكم ونتفق أنا وأنتم على إزعاج التتار وترحيلهم عنكم. فأرسلوا إليه يستدعونه إليهم، ويعدونه النصرة والخروج معه إلى عدوه، وفيهم شجاعة عظيمة، فسار إليهم، واجتمع بهم، وخرج أهل أصفهان معه، فقاتلوا التتار، فانهزم التتار أقبح هزيمة، وتبعهم جلال الدين إلى الرى يقتل ويأسر، فلما أبعدوا عن الرى أقام بها، وأرسل إليه ابن جنكزخان يقول : إن هؤلاء ليسوا من أصحابنا، إنما نحن أبعدناهم عنا، فلما أمن جانب جنكزخان أمن وعاد إلى أذربيجان .

وذكر خروج الفرنج إلى الشام وعمارة صيدا.

ذكر خروج الملك الكامل

فى هذه السنة، فى شوال، سار الملك الكامل محمد ابن الملك العادل صاحب مصر، إلى الشام، فوصل إلى البيت المقدس، حرسه الله تعالى وجعله دار الإسلام أبداً ثم سار عنه، وتولى بمدينة نابلس، وشحن على تلك البلاد جميعها، وكانت من أعمال دمشق، فلما سمع صاحبها، وهوابن الملك المعظم، خاف أن يقصده ويأخذ دمشق منه، فأرسل إلى عمه الملك الأشرف يستنجده، ويطلبه ليحضر عنده بدمشق، فسار إليه جريدة، فدخل دمشق .

فلما سمع الكامل بذلك لم يتقدم لعلمه أن البلد منيع، وقد صار به من يمنعه ويحميه وأرسل إليه الملك الأشرف يستعطفه، ويعرفه أنه ما جاء إلى دمشق إلا طاعة له، وموافقة لأغراضه، والاتفاق معه على منع الفرنج عن البلاد، فأعاد الكامل الجواب يقول : إننى ما جئت إلى هذه البلاد إلا بسبب الفرنج، فإنهم لم يكن فى البلاد من يمنعهم عما يريدونه، وقد عمروا صيدا، وبعض قيسارية، ولم يمنعوا، وأنت تعلم أن عمنا السلطان صلاح الدين فتح البيت المقدس، فصار لنا

بذلك الذكر الجميل على تقضى الأعصار وممر الأيام، فإن أخذه الفرنج حصل لنا من سوء الذكر وقبح الأحدوثة ما يناقض ذلك الذكر الجميل الذى ادخره عمنا، وأى وجه يبقى لنا عند الناس وعند الله تعالى .

ثم إنهم ما يقنعون حينئذ بما أخذوه، ويتعدون إلى غيره، وحيث قد حضرت أنت فأنا أعود إلى مصر، واحفظ أنت البلاد، ولست بالذى يقال عنى إنى قاتلت أخى، وحصرته، حاشا لله تعالى .

وتأخر عن نابلس نحوالديار المصرية، ونزل تل العجول، فخاف الأشرف والناس قاطبة بالشام، وعلموا أنه إن عاد استولى الفرنج على البيت المقدس وغيره مما يجاوره، لا مانع دونه، فترددت الرسل، وسار الأشرف بنفسه إلى الكامل أخيه، فحضر عنده، وكان وصوله ليلة عيد الأضحى، ومنعه من العود إلى مصر، فأقاما بمكانهما .

ذكرنهب جلال الدين بلاد أرمينية.

ثم دخلت سنة ست وعشرين وستمائة

ذكر تسليم البيت المقدس إلى الفرنج

فى هذه السنة، أول ربيع الآخر، تسلم الفرنج، لعنهم الله، البيت المقدس صلحا، أعاده الله إلى الإسلام سريعا .

وسبب ذلك ما ذكرناه سنة خمس وعشرين وستمائة من خروج الأنبرور، ملك الفرنج، فى البحر من داخل بلاد الفرنج إلى ساحل الشام، وكانت عساكره قد سبقته، ونزلوا بالساحل، وأفسدوا فيما يجاورهم من بلاد المسلمين، ومضى إليهم، وهم بمدينة صور، طائفة من المسلمين يسكنون الجبال المجاورة لمدينة صور وأطاعوهم، وصاروا معهم، وقوى طمع الفرنج بموت الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب، صاحب دمشق .

ولما وصل الأنبرور إلى الساحل نزل بمدينة عكا، وكان الملك الكامل، رحمه الله تعالى، ابن الملك العادل، صاحب مصر، قد خرج من الديار المصرية يريد الشام

بعد وفاة أخيه المعظم، وهونازل بتل العجول، يريد أن يملك دمشق من الناصر داود ابن أخيه المعظم، وهوصاحبها يومئذ، وكان داود لما سمع بقصد عمه الملك الكامل له قد أرسل إلى عمه الملك الأشرف، صاحب البلاد الجزرية، يستنجده، ويطلب منه المساعدة على دفع عمه عنه، فسار إلى دمشق، وترددت الرسل بينه وبين أخيه الملك الكامل فى الصلح، فاصطلحا، واتفقا، وسار الملك الأشرف إلى الملك الكامل واجتمع به .

فلما اجتمعا ترددت الرسل بينهما وبين الأنبرور، ملك الفرنج، دفعات كثيرة، فاستقرت القاعدة على أن يسلموا إليه البيت المقدس ومعه مواضع يسيرة من بلاده، ويكون باقى البلاد مثل الخليل ونابلس والغور، وملطية، وغير ذلك بيد المسلمين، ولا يسلم إلى الفرنج إلا البيت المقدس والمواضع التى استقرت معه .

وكان سور البيت المقدس خرابا قد خربه الملك المعظم وقد ذكرنا ذلك، وتسلم الفرنج البيت المقدس واستعظم المسلمون ذلك وأكبروه، ووجدوا له من الوهن والتألم ما لا يمكن وصفه، يسر الله فتحه وعوده إلى المسلمين بمنه وكرمه، آمين.

ذكر ملك الملك الأشرف مدينة دمشق

وفى هذه السنة يوم الاثنين ثانى شعبان ملك الملك الأشرف ابن الملك العادل مدينة دمشق من ابن أخيه صلاح الدين داود بن المعظم .

وسبب ذلك ما ذكرناه أن صاحب دمشق لما خاف من عمه الملك الكامل أرسل إلى عمه الأشرف يستنجده ويستعين به على دفع الكامل عنه، فسار إليه من البلاد الجزرية، ودخل دمشق، وفرح به صاحبها وأهل البلد . وكانوا قد احتاطوا، وهم يتجهزون للحصار، فأمر بإزالة ذلك، وترك ما عزموا عليه من الاحتياط، وحلف لصاحبها على المساعدة والحفظ له ولبلاده عليه، وراسل الملك الكامل واصطلحا وظن صاحب دمشق أنه معهما فى الصلح .

وسار الأشرف إلى أخيه الكامل، واجتمعا فى ذى الحجة من سنة خمس وعشرين، يوم العيد، وسار صاحب دمشق إلى بيسان وأقام بها، وعاد الملك

الأشرف من عند أخيه، واجتمع هو وصاحب دمشق، ولم يكن الأشرف فى كثرة من العسكر، فبينما هما جالسان فى خيمة لهما إذ قد دخل عز الدين أيبك، مملوك المعظم الذى كان صاحب دمشق، وهوأكبر أمير مع ولده، فقال لصاحبه داود : قم اخرج وإلا قبضت الساعة، فأخرجه، ولم يمكن الأشرف منعه لأن أيبك كان قد أركب العسكر الذى لهم جميعه، وكانوا أكثر من الذين مع الأشرف، فخرج داود وسار هو وعسكره إلى دمشق .

وكان سبب ذلك أن أيبك قيل له : إن الأشرف يريد القبض على صاحبه وأخذ دمشق منه، ففعل ذلك، فلما عادوا وصلت العساكر من الكامل إلى الأشرف، وسار فنازل دمشق وحصرها، وأقام محاصرا لها إلى أن وصل إليه الملك الكامل، فحينئذ اشتد الحصار، وعظم الخطب على أهل البلد، وبلغت القلوب الحناجر .

وكان من أشد الأمور على صاحبها أن المال عنده قليل لأن أمواله بالكرك، ولوثوقه بعمه الأشرف لم يحضر منها شيئا، فاحتاج إلى أن باع حلى نسائه وملبوسهن، وضاقت الأمور عليه، فخرج إلى عمه الكامل وبذل له، تسليم دمشق وقلعة الشوبك على أن يكون له الكرك والغور وبيسان ونابلس، وأن يبقى على أيبك قلعة صرخد وأعمالها .

وتسلم الكامل دمشق، وجعل نائبه بالقلعة إلى أن سلم إليه أخوه الأشرف حران والرها والرقة وسروج ورأس عين من الجزيرة، فلما تسلم ذلك سلم قلعة دمشق إلى أخيه الأشرف، فدخلها، وأقام بها، وسار الكامل إلى الديار الجزرية فأقام بها إلى أن استدعى أخاه الأشرف بسبب حضور جلال الدين ابن خوارزم شاه مدينة خلاط، فلما حضر عنده بالرقة عاد الكامل إلى ديار مصر، وأما الأشرف فكان منه ما نذكره، إن شاء الله تعالى .

ذكر القبض على الحاجب على وقتله

وفى هذه السنة أرسل الملك الأشرف مملوكه عز الدين أيبك، وهو أمير كبير فى دولته، إلى مدينة خلاط، وأمره بالقبض على الحاجب حسام الدين على بن حماد، وهوالمتولى لبلاد خلاط والحاكم فيها من قبل الأشرف .

ولم نعلم شيئا يوجب القبض عليه، لأنه كان مشفقا عليه، ناصحا له، حافظا لبلاده، وحسن السيرة مع الرعية، ولقد وقف هذه المدة الطويلة فى وجه خوارزم شاه جلال الدين، وحفظ خلاط حفظا يعجز غيره عنه، وكان مهتما بحفظ بلاده، وذابا عنها، وقد تقدم من ذكر قصده بلاد جلال الدين والاستيلاء على بعضها ما يدل على همة عالية، وشجاعة تامة، وصار لصاحبه به منزلة عظيمة، فإن الناس يقولون : بعض غلمان الملك الأشرف يقاوم خوارزم شاه .

وكان رحمه الله، كثير الخير والإحسان لا يمكن أحدا من ظلم، وعمل كثيرا من أعمال البر، من الخانات فى الطرق، والمساجد فى البلاد، وبنى بخلاط بيمارستانا وجامعا، وعمل كثيرا من الطرق، وأصلحها كان يشق سلوكها .

فلما وصل أيبك إلى خلاط قبض عليه ثم قتله غيلة، لأنه كان عدوه، ولما قتل ظهر أثر كفايته، فإن جلال الدين حصر خلاط بعد قبضه وملكها، على ما نذكره إن شاء الله، ولم يمهل الله أيبك بل انتقم منه سريعا، فإن جلال الدين أخذ أيبك أسيرا لما ملك خلاط مع غيره من الأمراء، فلما اصطلح الأشرف وجلال الدين أطلق الجميع، وذكر أن أيبك قتل .

وكان سبب قتله أن مملوكاً للحاجب على كان قد هرب إلى جلال الدين، فلما أسر أيبك طلبه ذلك المملوك من جلال الدين ليقتله بصاحبه الحاجب على، فسلمه إليه فقتله، وبلغنى أن الملك الأشرف رأى فى المنام كأن الحاجب عليا قد دخل إلى مجلس فيه أيبك فأخذ منديلا وجعله فى رقبة أيبك وأخذه وخرج، فأصبح الملك الأشرف وقال : قد مات أيبك، فإنى رأيت فى المنام كذا وكذا .

ذكر ملك الكامل مدينة حماة

وفى هذه السنة، أواخر شهر رمضان، ملك الملك الكامل مدينة حماة . وسبب ذلك أن الملك المنصور محمد بن تقى الدين عمر، وهوصاحب حماة، توفى، على ما نذكره، ولما حضرته الوفاة حلف الجند وأكابر البلد لولده الأكبر، ويلقب بالملك المظفر، وكان قد سيره أبوه إلى الملك الكامل، صاحب مصر، لأنه كان قد تزوج

بابنته، وكان لمحمد ولد آخر اسمه قلج أرسلان، ولقبه صلاح الدين، وهوبدمشق، فحضر إلى مدينة حماة فسلمت إليه، واستولى على المدينة وعلى قلعتها، فأرسل الملك الكامل يأمره أن يسلم البلد إلى أخيه الأكبر، فإن أباه أوصى له به، فلم يفعل، وترددت الرسل فى ذلك إلى الملك المعظم، صاحب دمشق، فلم تقع الإجابة.

فلما توفى المعظم، وخرج الكامل إلى الشام وملك دمشق، سير جيشا إلى حماة فحصرها ثالث شهر رمضان، وكان المقدم على هذا الجيش أسد الدين شيركوه، صاحب حمص، وأمير كبير من عسكره يقال له فخر الدين عثمان، ومعهما ولد محمد بن تقى الدين محمد الذى كان عند الكامل، فبقى الحصار على البلد عدة أيام.

وكان الملك الكامل قد سار عن دمشق ونزك على سلمية يريد العبور إلى البلاد الجزرية، حران وغيرها، فلما نازلها قصده صاحب حماة صلاح الدين، ونزل إليه من قلعته، ولم يكن لذلك سبب إلا أمر الله تعالى، فإن صلاح الدين قال لأصحابه : أريد النزول إلى الملك الكامل، فقالوا له : ليس بالشام أحصن من قلعتك، وقد جمعت من الذخائر ما لا حد له، فلأى شىء تنزل إليه ؟ ليس هذا برأى، فأصر على النزول، وأصروا على منعه، فقال فى آخر الأمر :

اتركونى أنزل، وإلا ألقيت نفسى من القلعة، فحينئذ سكتوا عنه، فنزل فى نفر يسير، ووصل إلى الكامل، فاعتقله إلى أن سلم مدينة حماة وقلعتها إلى أخيه الأكبر الملك المظفر، وبقى بيده قلعة بارين، فإنها كانت له، وكان هوكالباحث عن حتفه بظلفه .

ذكر حصر جلال الدين خلاط وملكها

وفى هذه السنة، أوائل شوال، حصر جلال الدين خوارزم شاه مدينة خلاط، وهى للملك الأشرف، وبها عسكره، فامتنعوا بها، وأعانهم أهل البلد خوفا من جلال الدين لسوء سيرته، وأسرفوا فى الشتم والسفه، فأخذه اللجاج معهم، وأقام عليهم جميع الشتاء محاصرا، وفرق كثيرا من عساكره فى القرى والبلاد القريبة من شدة البرد وكثرة الثلج، فإن خلاط من أشد البلاد بردا وأكثرها ثلجا.

وأبان جلال الدين عن عزم قوى، وصبر تحار العقول منه، ونصب عليها عدة مجانيق، ولم يزل يرميها بالحجارة حتى خربت بعض سورها، فأعاد أهل البلد عمارته، ولم يزل مصابرهم وملازمهم إلى أواخر جمادى الأولى من سنة سبع وعشرين وستمائة، فزحف إليها زحفا متتابعا وملكها عنوة وقهرا يوم الأحد الثامن والعشرين من جمادى الأولى، سلمها إليه بعض الأمراء غدرا .

فلما ملك البلد صعد من فيه من الأمراء إلى القلعة التى لها وامتنعوا بها، وهومنازلهم، ووضع السيف فى أهل البلد، وقتل من وجد به منهم، وكانوا قد قلوا، فإن بعضهم فارقوه خوفا، وبعضهم خرج منه من شدة الجوع، وبعضهم مات من القلة وعدم القوت، فإن الناس فى خلاط أكلوا الغنم، ثم البقر، ثم الجواميس، ثم الخيل، ثم الحمر، ثم البغال والكلاب والسنانير، وسمعنا أنهم كانوا يصطادون الفأر ويأكلونه، وصبروا صبرا لم يلحقهم فيه أحد .

ولم يملك من بلاد خلاط غيرها، وما سواها من البلاد لم يكونوا ملكوه، وخربوا خلاط، وأكثروا القتل فيها، ومن سلم هرب فى البلاد، وسبوا الحريم، واسترقوا الأولاد، وباعوا الجميع، فتمزقوا كل ممزق، وتفرقوا فى البلاد، ونهبوا الأموال، وجرى على أهلها ما لم يسمع له أحد، لا جرم لم يمهله الله تعالى، وجرى عليه من الهزيمة بين المسلمين والتتار ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر عدة حوادث

فى أواخر هذه السنة قصد الفرنج حصن بارين بالشام، ونهبوا بلاده، وأعماله، وأسروا وسبوا، ومن جملة من ظفروا به طائفة كثرة من التركمان، فأخذوا الجميع، ولم يسلم منهم إلا النادر الشاذ، والله أعلم .

ثم دخلت سنة سبع وعشرين وستمائة

ذكر انهزام جلال الدين من كيقباذ والأشرف

فى هذه السنة، يوم السبت الثامن والعشرين من رمضان، انهزم جلال الدين ابن خوارزم شاه من عبد الله فى كيقباذ فى كيخسروفى قلج أرسلان، صاحب

بلاد الروم، قونية، وأقصرا، وسيواس، وملطية، وغيرها، ومن الملك الأشرف، صاحب دمشق وديار الجزيرة وخلاط .

وسبب ذلك أن جلال الدين كان قد أطاعه صاحب أرزن الروم، وهوابن عم علاء الدين، ملك الروم، وبينه وبين ملك الروم عداوة مستحكمة، وحضر صاحب أرزن الروم عند جلال الدين على خلاط، وأعانه على حصرها، فخافهما علا الدين، فأرسل إلى الملك الكامل، وهوحينئذ بحران، يطلب منه أن يحضر أخاه الأشرف من دمشق، فإنه كان مقيما بها بعد أن ملكها، وتاج علاء الدين الرسل بذلك خوفا من جلال الدين، فأحضر الملك الكامل أخاه الأشرف من دمشق، فحضر عنده، وأرسل علاء الدين إليهما متتابعة، يحث الأشرف على المجيء إليه للاجتماع به، حتى قيل إنه فى يوم واحد وصل إلى الكامل والأشرف من علاء الدين خمسة رسل، ويطلب مع الجميع وصول الأشرف إليه ولو وحده، فجمع عساكر الجزيرة والشام وسار إلى علاء الدين، فاجتمعا . بسيواس، وسارا نحوخلاط فسمع جلال الدين بهما، فسار إليهما مجدا فى السير، فوصل إليهما بمكان يعرف بباسى حمار، وهومن أعمال أرزنجان، فالتقوا هناك .

وكان مع علاء الدين خلق كثير، قيل : كانوا عشرين ألف فارس، وكان مع الأشرف نحوخمسة آلاف فارس، إلا أنهم من العساكر الجيدة الشجعان، لهم السلاح الكثير، والدواب الفارهة من العربيات، وكل منهم قد جرب الحرب . وكان المقدم عليهم أمير من أمراء عساكر حلب يقال له عز الدين عمر بن على، وهومن الأكراد الهكارية، ومن الشجاعة فى الدرجة العليا، وله الأوصاف الجميلة والأخلاق الكريمة .

فلما التقوا بهت جلال الدين لما رأى من كثرة العساكر، ولا سيما لما رأى عسكر الشام، فإنه شاهد من تجمّلهم، وسلاحهم، ودوابهم ما ملأ صدره رعبا، فأنشب عز الدين بن على القتال، ومعه عسكر حلب، فلم يقم لهم جلال الدين ولا صبر، ومضى منهزما هو وعسكره وتمزقوا لا يلوى الأخ على أخيه، وعادوا

إلى خلاط فاستصحبوا معهم من فيها من أصحابهم، وعادوا إلى أذربيجان فنزلوا عند مدينة خوى، ولم يكونوا قد استولوا على شيء من أعمال خلاط سوى خلاط، ووصل الملك الأشرف إلى خلاط وقد استصحبوا معهم من فيها فبقيت خاوية على عروشها خالية من الأهل والسكان، قد جرى عليهم ما ذكرناه قبل.

ذكر ملك علاء الدين ارزن الروم، ذكر الصلح بين الأشرف وعلاء الدين وبين جلال الدين.

ثم دخلت سنة ثمان وعشرين وستمائة

ذكر خروج التتار إلى أذربيجان وما كان منهم

فى هذه السنة وصل التتار من بلاد ما وراء النهر إلى أذربيجان، وقد ذكرنا قبل كيف ملكوا ما وراء النهر، وما صنعوه بخراسان وغيرها من البلاد، من النهب، والتخريب، والقتل، واستقر ملكهم بما وراء النهر، وعادت بلاد ما وراء النهر فانعمرت، وعمروا مدينة تقارب مدينة خوارزم عظيمة، وبقيت مدن خراسان خرابا لا يجسر أحد من المسلمين أن يسكنها .

وأما التتار فكانوا تغير كل قليل طائفة منهم ينهبون ما يرونه بها، فالبلاد خاوية على عروشها، فلم يزالوا كذلك إلى أن ظهر منهم طائفة سنة خمس وعشرين وستمائة، فكان بينهم وبين جلال الدين ما ذكرناه، وبقوا كذلك، فلما كان الآن، وانهزم جلال الدين من علاء الدين كيقباذ ومن الأشرف كما ذكرناه سنة سبع وعشرين وستمائة، أرسل مقدم الإسماعيلية الملاحدة إلى التتار يعرفهم ضعف جلال الدين بالهزيمة الكائنة عليه، ويحثهم على قصده عقيب الضعف، ويضمن لهم الظفر به للوهن الذى صار إليه .

وكان جلال الدين سيئ السيرة، قبيح التدبر لملكه، لم يترك أحدا من الملوك المجاورين له إلا عاداه، ونازعه الملك، وأساء مجاورته، فمن ذلك أنه أول ما ظهر فى أصفهان وجمع العساكر قصد خوزستان، فحصر مدينة ششتر، وهى للخليفة، وسار إلى دقوقا فنهبها، وقتل فيها فأكثر، وهى للخليفة أيضا .

ثم ملك أذربيجان، وهى لأوزبك، وقصد الكرج وهزمهم وعاداهم، ثم عادى الملك الأشرف، صاحب خلاط، ثم عادى علاء الدين، صاحب بلاد الروم، وعادى الإسماعيلية، ونهب بلادهم، وقتل فيهم فأكثر، وقرر عليهم وظيفة من المال كل سنة، وكذلك غيرهم، فكل من الملوك تخلى عنه، ولم يأخذ بيده .

فلما وصلت كتب مقدم الإسماعيلية إلى التتار يستدعيهم إلى قصد جلال الدين بادر طائفة منهم فدخلوا بلادهم واستولوا على الرى وهمذان ومما بينهما من البلاد، ثم قصدوا أذربيجان فخربوا ونهبوا وقتلوا من ظفروا به من أهلها، وجلال الدين لا يقدم على أن يلقاهم، ولا يقدر أن يمنعهم عن البلاد، قد ملئ رعبا وخوفا، وانضاف إلى ذلك أن عسكره اختلفوا عليه، وخرج وزيره عن طاعته فى طائفة كثيرة من العسكر .

وكان السبب غريبا أظهر من قلة عقل جلال الدين ما لم يسمع بمثله، وذلك أنه كان له خادم خصى، وكان جلال الدين يهواه، واسمه قلج، فاتفق أن الخادم مات، فأظهر من الهلع والجزع عليه ما لم يسمع بمثله، ولا لمجنون ليلى، وأمر الجند والأمراء أن يمشوا فى جنازته رجّالة، وكان موته بموضع بينه وبين تبريز عدة فراسخ، فمشى الناس رجالة، ومشى بعض الطريق راجلا، فألزمه أمراؤه ووزيره بالركوب، فلما وصل إلى تبريز أرسل إلى أهل البلد، فأمرهم بالخروج عن البلد لتلقى تابوت الخادم، ففعلوا، فأنكر عليهم حيث لم يبعدوا، ولم يظهروا من الحزن والبكاء أكثر مما فعلوا، وأراد معاقبتهم على ذلك فشفع فيهم أمراؤه فتركهم .

ثم لم يدفن ذلك الخصى، وإنما يستصحبه معه حيث سار، وهويلطم ويبكى، فامتنع من الأكل والشرب، وكان إذا قدم له طعام يقول : احملوا من هذا إلى فلان، يعنى الخادم، ولا يتجاسر أحد أن يقول إنه مات، فإنه قيل له مرة إنه مات، فقتل القائل له ذلك، إنما كانوا يحملون إليه الطعام، ويعودون فيقولون : إنه يقبل الأرض ويقول : إننى الآن أصلح مما كنت، فلحق أمراءه من الغيظ والأنفة

من هذه الحالة ما حملهم على مفارقة طاعته والانحياز عنه مع وزيره، فبقى حيران لا يدرى ما يصنع، ولا سيما لما خرج التتار، فحينئذ دفن الغلام الخصى، وراسل الوزير واستماله وخدعه إلى أن حضر عنده، فلما وصل إليه بقى أياما وقتله جلال الدين، وهذه نادرة غريبة لم يسمع بمثلها .

ذكر ملك التتار مراغة

وفى هذه السنة حصر التتار مراغة من أذربيجان، فامتنع أهلها، ثم أذعن أهلها بالتسليم على أمان طلبوه، فبذلوا لهم الأمان، وتسلموا البلد وقتلوا فيه إلا أنهم لم يكثروا القتل وجعلوا فى البلد شحنة، وعظم حينئذ شأن التتار، واشتد خوف الناس منهم بأذربيجان، فالله تعالى ينصر الإسلام والمسلمين نصرا من عنده، فما نرى فى ملوك الإسلام من له رغبة فى الجهاد، ولا فى نصرة الدين، بل كل منهم مقبل على لهوه ولعبه وظلم رعيته، وهذا أخوف عندى من العدو، وقال الله تعالى : «واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة» .

ذكر وصول جلال الدين إلى آمد وانهزامه عندها وما كان منه

لما رأى جلال الدين ما يفعله التتار فى بلاد أذربيجان، وأنهم مقيمون بها يقتلون، وينهبون، ويأسرون، ويخربون البلاد، ويجبون الأموال، وهم عازمون على قصده، ورأى ما هوعليه من الوهن والضعف، فارق أذربيجان إلى بلاد خلاط، وأرسل إلى النائب بها عن الملك الأشرف يقول له : ما جئنا للحرب ولا للأذى، إنما خوف هذا العدوحملنا على قصد بلادكم .

وكان عازما على أن يقصد ديار بكر والجزيرة، ويقصد باب الخليفة يستنجده وجميع الملوك على التتار، ويطلب منهم المساعدة على دفعهم، ويحذرهم عاقبة إهمالهم، فوصل إلى خلاط، فبلغه أن التتار يطلبونه، وهم مجدون فى أثره، فسار إلى آمد، وجعل له اليزك فى عدة مواضع خوفا من البيات، فجاءت طائفة من التتار يقصون أثره، فوصلوا إليه وهم على غير الطريق الذى فيه اليزك، فأوقعوا به ليلا وهويظاهر مدينة آمد، فمضى منهزما على وجهه، وتفرق من معه من

العسكر وتمزقوا فى كل وجه، فقصد طائفة من عسكره حران، فأوقع بهم الأمير صواب ومن معه من عسكر الكامل بحران، فأخذوا ما معهم من مال، وسلاح، ودواب، وقصد طائفة منهم نصيبين، والموصل، وسنجار، وإربل وغير ذلك من البلاد، فتخطفهم الملوك والرعايا، وطمع فيهم كل أحد، حتى الفلاح، والكردى، والبدوى، وغيرهم، وانتقم منهم وجازاهم على سوء صنيعهم، وقبيح فعلهم فى خلاط وغيرها، وبما سعوا فى الأرض من الفساد، والله لا يحب المفسدين، فازداد جلال الدين ضعفا إلى ضعفه، ووهنا إلى وهنه بمن تفرق من عسكره، وبما جرى عليهم .

فلما فعل التتار بهم ذلك، ومضى منهزما منهم، دخلوا ديار بكر فى طلبه، لأنهم لم يعلموا أين قصد، ولا أى طريق سلك، فسبحان من بدل أمنهم خوفا، وعزهم ذلا، وكثرتهم قلة، فتبارك الله رب العالمين الفعال لما يشاء .

ذكر دخول التتار ديار بكر والجزيرة وما فعلوه فى البلاد من الفساد

لما انهزم جلال الدين من التتار على آمد نهب التتار سواد آمد وأرزن وميافارقين، وقصدوا مدينة أسعرد، فقاتلهم أهلها، فبذل لهم التتار الأمان، فوثقوا منهم واستسلموا، فلما تمكن التتار منهم وضعوا فيهم السيف وقتلوهم حتى كادوا يأتون عليهم، فلم يسلم منهم إلا من اختفى، وقليل ما هم .

حكى لى بعض التجار، وكان قد وصل آمد، أنهم حزروا ا القتلى ما يزيد على خمسة عشر ألف قتيل، وكان مع هذا التاجر جارية من أسعرد، فذكرت أن سيدها خرج ليقاتل، وكان له أم، فمنعته، ولم يكن لها ولد سواه، فلم يصغ إلى قولها، فمشت معه، فقتلا جميعا، وورثها ابن أخ للأم فباعها من هذا التاجر، وذكرت من كثرة القتلى أمرا عظيما، وأن مدة الحصار كانت خمسة أيام .

ثم ساروا منها إلى مدينة طنزة ففعلوا فيها كذلك، وساروا من طنزة إلى واد بالقرب من طنزة يقال له وادى القريشية، فيه مياه جارية، وبساتين كثيرة، والطريق إليه ضيق، فقاتلهم أهل القريشية فمنعوهم عنه، وامتنعوا عليهم، وقتل

بينهم كثير، فعاد التتار ولم يبلغوا منهم غرضا، وساروا فى البلاد لا مانع يمنعهم، ولا أحد يقف بين أيديهم، فوصلوا إلى ماردين فنهبوا ما وجدوا من بلدها، واحتمى صاحب ماردين وأهل دنيسر بقلعة ماردين، وغيرهم ممن جاور القلعة احتمى بها أيضا .

ثم وصلوا إلى نصيبين الجزيرة، فأقاموا عليها بعض نهار، ونهبوا سوادها وقتلوا من ظفروا به، وغلقت أبوابها، فعادوا عنها، ومضوا إلى بلد سنجار، ووصلوا إلى الجبال من أعمال سنجار، فنهبوها ودخلوا إلى الخابور، فوصلوا إلى عرابان، فنهبوا، وقتلوا، وعادوا .

ومضى طائفة منهم على طريق الموصل، فوصل القوم إلى قرية تسمى المؤنسة، وهى على مرحلة من نصيبين، بينها وبين الموصل، فنهبوها واحتمى أهلها وغيرهم بخان فيها، فقتلوا كل من فيه .

وحكى لى عن رجل منهم أنه قال : اختفيت منهم ببيت فيه تبن، فلم يظفروا بى، وكنت أراهم من نافذة فى البيت، فكانوا إذا أرادوا قتل إنسان، فيقول : لا بالله، فيقتلونه، فلما فرغوا من القرية، ونهبوا ما فيها، وسبوا الحريم، رأيتهم وهم يلعبون على الخيل، ويضحكون، ويغنون بلغتهم بقول : لا بالله .

ومضى طائفة منهم إلى نصيبين الروم، وهى على الفرات، وهما من أعمال آمد، فنهبوها، وقتلوا فيها، ثم عادوا إلى آمد، ثم إلى بلد بدليس، فتحصن أهلها بالقلعة وبالجبال، فقتلوا فيها يسيرا، وأحرقوا المدينة .

وحكى إنسان من أهلها قال : لوكان عندنا خمس مائة فارس لم يسلم من التتار أحد لأن الطريق ضيق بين الجبال، والقليل يقدر على منع الكثير .

ثم ساروا من بدليس إلى خلاط، فحصروا مدينة من أعمال خلاط يقال لها : باكرى، وهى من أحصن البلاد، فملكوها عنوة، وقتلوا كل من بها، وقصدوا مدينة أرجيش من أعمال خلاط، وهى مدينة كبيرة عظيمة، فقعلوا كذلك، وكان هذا فى ذى الحجة .

ولقد حكى لى عنهم حكايات يكاد سامعها يكذب بها من الخوف الذى ألقى الله سبحانه وتعالى فى قلوب الناس منهم، حتى قيل إن الرجل الواحد منهم كان يدخل القرية أوالسرب وبه جمع كثير من الناس، فلا يزال يقتلهم واحدا بعد واحد، لا يتجاسر أحد أن يمد يده إلى ذلك الفارس .

ولقد بلغنى أن إنسانا منهم أخذ رجلا، ولم يكن مع التتارى ما يقتله به، فقال له: ضع رأسك على الأرض ولا تبرح، فوضع رأسه على الأرض، ومضى التتارى فأحضر سيفا وقتله به .

وحكى لى رجل قال : كنت أنا ومعى سبعة عشر رجلا فى طريق، فجاءنا فارس من التتار وقال لنا حتى يكتف بعضنا بعضا، فشرع أصحابى يفعلون ما أمرهم، فقلت لهم : هذا واحد فلم لا نقتله ونهرب ؟ فقالوا : نخاف .

فقلت : هذا يريد قتلكم الساعة، فنحن نقتله، فلعل الله يخلصنا، فوالله ما جسر أحد أن يفعل، فأخذت سكينا وقتلته وهربنا فنجونا، وأمثال هذا كثير .

ذكر وصول طائفة من التتار إلى إربل ودقوقا

فى هذه السنة، فى ذى الحجة، وصل طائفة من التتار من أذربيجان إلى أعمال إربل، فقتلوا من على طريقهم من التركمان الإيوانية والأكراد الجوزقان وغيرهم إلى أن دخلوا بلد إربل، فنهبوا القرى، وقتلوا من ظفروا به من أهل تلك الأعمال، وعملوا الأعمال الشنيعة التى لم يسمع بمثلها من غيرهم .

وبرز مظفر الدين، صاحب إربل، عساكره، واستمد عساكر الموصل فساروا إليه، فلما بلغه عود التتار إلى أذربيجان أقام فى بلاده ولم يتبعهم، فوصلوا إلى بلد الكرخينى، وبلد دقوقا، وغير ذلك، وعادوا سالمين لم يذعرهم أحد، ولا وقف فى وجوههم فارس .

وهذه مصائب وحوادث لم ير الناس من قديم الزمان وحديثه ما يقاربها، فالله سبحانه وتعالى يلطف بالمسلمين، ويرحمهم، ويرد هذا العدو عنهم،

وخرجت هذه السنة ولم نتحقق لجلال الدين خبرا، ولا نعلم هل قتل، أواختفى، لم يظهر نفسه خوفا من التتار، أوفارق البلاد إلى غيرها، والله أعلم .

ذكر طاعة أهل أذربيجان للتتر

فى أواخر هذه السنة أطاع أهل بلاد أذربيجان جميعها للتتر، وحملوا إليهم الأموال والثياب الخطائى، والخويى، والعتاد، وغير ذلك، وسبب طاعتهم أن جلال الدين لما انهزم على آمد من التتار، وتفرقت عساكره، وتمزقوا كل ممزق، وتخطفهم الناس، وفعل التتار بديار بكر والجزيرة وإربل وخلاط ما فعلوا، ولم يمنعهم أحد، ولا وقف فى وجوههم واقف، وملوك الإسلام منجحرون فى الأثقاب، وانضاف إلى هذا انقطاع أخبار جلال الدين، فإنه لم يظهر له خبر، ولا علموا له حالة، سقط فى أيديهم، وأذعنوا للتتر بالطاعة، وحملوا إليهم ما طلبوا منهم من الأموال والثياب .

من ذلك مدينة تبريز التى هى أصل بلاد أذربيجان، ومرجع الجميع إليها وإلى من بها، فإن ملك التتار نزل فى عساكره بالقرب منها، وأرسل إلى أهلها يدعوهم إلى طاعته، ويتهددهم إن امتنعوا عليه، فأرسلوا إليه المال الكثير، والتحف من أنواع الثياب الإبريسم وغيرها، وكل شىء حتى الخمر، وبذلوا له الطاعة، فأعاد الجواب يشكرهم، ويطلب منهم أن يحضر مقدموهم عنده، فقصده قاضى البلد ورئيسه، وجماعة من أعيان أهله، وتخلف عنهم شمس الدين الطغرائى،، وهوالذى يرجع الجميع إليه، إلا أنه لا يظهر شيئا من ذلك .

فلما حضروا عنده سألهم عن امتناع الطغرائى من الحضور فقالوا : إنه رجل منقطع، ما له بالملوك تعلق، ونحن الأصل، فسكت ثم طلب أن يحضروا عنده من صناع الثياب الخطائى وغيرها، ليستعمل لملكهم الأعظم، فإن هذا هومن أتباع ذلك الملك، فأحضروا الصناع، فاستعملهم فى الذى أرادوا، ووزن أهل تبريز الثمن، وطلب منهم خركاة لملكه أيضا فعملوا له خركاة لم يعمل مثلها، وعملوا غشاءها من الأطلس الجيد المزركش، وعملوا من داخلها السمور والقندر، فجاءت

عليهم بجملة كثيرة، وقرر عليهم شيئا من المال كل سنة، وترددت رسلهم إلى ديوان الخلافة وإلى جماعة من الملوك يطلبون منهم أنهم لا ينصرون خوارزم شاه.

ولقد وقفت على كتاب وصل من تاجر من أهل الرى فى العام الماضى، قبل خروج التتار، فلما وصل التتار إلى الرى وأطاعهم أهلها، وساروا إلى أذربيجان، سار هومعهم إلى تبريز، فكتب إلى أصحابه بالموصل يقول : إن الكافر، لعنه الله، ما نقدر أن نصفه، ولا نذكر جموعه حتى لا تنقطع قلوب المسلمين، فإن الأمر عظيم، ولا تظنوا أن هذه الطائفة التى وصلت إلى نصيبين والخابور، والطائفة الأخرى التى وصلت إلى إربل ودقوقا، كان قصدهم النهب، إنما أرادوا أن يعلموا هل فى البلاد من يردهم أم لا، فلما عادوا أخبروا ملكهم بخلوالبلاد من مانع ومدافع، وأن البلاد خالية من ملك وعساكر، فقوى طمعهم، وهم فى الربيع يقصدونكم، وما يبقى عندكم مقام، إلا إن كان فى بلد الغرب، فإن عزمهم على قصد البلاد جميعها، فانظروا لأنفسكم. هذا مضمون الكتاب، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، وأما جلال الدين-فإلى آخر سنة ثمان وعشرين وستمائة لم يظهر له خبر، وكذلك إلى سلخ صفر سنة تسع لم نقف له على حال، والله المستعان .

ذكر عدة حوادث

فى هذه السنة قلت الأمطار بديار الجزيرة والشام، ولا سيما حلب وأعمالها فإنها كانت قليلة بالمرة، وغلت الأسعار بالبلاد، وكان أشدها غلاء حلب، إلا أنه لم يكن بالشديد مثل ما تقدم فى السنين الماضية، فأخرج أتابك شهاب الدين، وهو والى الأمر بحلب، والمرجع إلى أمره ونهيه، وهوالمدبر لدولة سلطانها الملك العزيز ابن الملك الظاهر، والمربى له، من المال والغلات كثيرا، وتصدق صدقات دارة، وساس البلاد سياسة حسنة بحيث لم يظهر للغلاء أثر، فجزاه الله خيرا .

وفيها بنى أسد الدين شيركوه، صاحب حمص والرحبة، قلعة عند سلمية، وسماها سميمس، وكان الملك الكامل لما خرج من مصر إلى الشام قد خدمه أسد

الدين، ونصح له، وله أثر عظيم فى طاعته والمقاتلة بين يديه، فأقطعه مدينة سلمية، فبنى هذه القلعة بالقرب من سلمية، وهى على تل عال .

وفيها قصد الفرنج الذين بالشام مدينة جبلة، وهى بين جملة المدن المضافة إلى حلب، ودخلوا إليها، وأخذوا منها غنيمة وأسرى، فسير أتابك شهاب الدين إليهم العساكر مع أمير كان أقطعها، فقاتل الفرنج، وقتل منهم كثيرا، واسترد الأسرى والغنيمة .

وفيها توفى القاضى ابن غنائم بن العديم الحلى، الشيخ الصالح، وكان من المجتهدين فى العبادة والرياضة والعاملين بعلمه، فلوقال قائل : إنه لم يكن فى زمانه أعبد منه، لكان صادقا، فرضى الله عنه وأرضاه، فإنه من جملة شيوخنا، سمعنا عليه الحديث، وانتفعنا برؤيته وكلامه .

وفيها أيضا فى الثانى عشر من ربيع الأول توفى صديقنا أبوالقاسم عبد المجيد بن العجمى الحلبى، وهو وأهل بيته مقدموالسنة بحلب، كان رجلا ذا مروءة غزيرة، وخلق حسن، وحلم وافر، ورئاسة كثيرة، يحب إطعام الطعام، وأحب الناس إليه من يأكل طعامه، ويقبل بره، وكان يلقى أضيافه بوجه منبسط ولا يقعد عن إيصال راحة، وقضاء حاجة، فرحمه الله رحمة واسعة .

وهكذا تنتهى رحلتنا مع ابن الأثير

الخاتمة

وها نحن الآن ننيخ الركائب لننهى رحلتنا التى بدأناها مع نبع من نبوع حضارة العز والشموخ، نبع ابن الأثير والتى أمتعنا فيها من خلال هذا الحشد الهائل. نرجو من الله أن يستوعبها الأبناء والأحفاد، وأن نكون بذلك قد أسهمنا فى إيصال رسالة مهمة تربط بين الحاضر والماضى وتنير المستقبل، حيث إن الحكومات والحكام يتغيرون والشعوب تتبدل ويظل التاريخ شاهدًا عليهم،ومن فوائد التاريخ أنه يوقفناعلى أحوال الماضين من الأمم فى أخلاقهم، والأنبياء فى سيرهم، والملوك فى دولهم وسياستهم، حتى تتم فائدة الاقتداء فى ذلك لمن يرومه فى أحوال الدين والدنيا، فهو محتاج إلى ظروف متعددة ومعارف متنوعة وحسن نظر، تفضى بصاحبهما إلى الحق وينكب به عن المزلات والمغالط .

واعلم أن الدولة تنتقل فى أطوار مختلفة وحالات متجددة ويكتسب القائمون بها فى كل طور خلقاً من أحوال ذلك الطور لا يكون مثله فى الطور الآخر لأن الخلق تابع بالطبع لمزاج الحال الذى هو فيه وحالات الدولة .

وعلى الرغم من أن ابن الأثير عاصر أحداثاً مهمة قال عنها: (إ ن الأمة لم تُصب بمصيبة على مر تاريخها مثلما أصيبت بمصيبة التتار).

إلا إنه تظل حقيقة واحدة يسجلها التاريخ وهى أن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة.

والسبب فى ذلك أنهم لخلق التوحش الذى فيهم أصعب الأمم انقياداً بعضهم لبعض، للغلظة والأنفة وبعد الهمة والمنافسة فى الرئاسة، فقلما تجتمع أهواؤهم،

فإذا كان الدين بالنبوة أو الولاية، كان ذلك هو الوازع لهم من أنفسهم، وذهب خلق الكبر والمنافسة منهم فسهل انقيادهم واجتماعهم، وذلك بما يشملهم من الدين المُذهب للغلظة وعدم الألفة والتحاسدوالتنافس، فإذا كان فيهم النبى أو الولى الذى يبعثهم على القيام بأمر الله، يُذهب عنهم مذمومات الأخلاق ويأخذهم بمحمودها ويؤلف كلمتهم لإظهار الحق، تم بذلك اجتماعهم وحصل لهم التغلب والملك، وهم مع ذلك أسرع الناس قبولاً للحق والهدى لسلامة طباعهم من عوج الملكات وبراءتها من ذميم الأخلاق، وحدثت تلك الألفة واجتماع الكلمة على يد سيف الدين قطز الذى هزم التتار فى موقعة عين جالوت سنة ثمان وخمْسين وستمائة من الهجرة.

وفى النهاية تظل تلك الأحداث علامة بارزة فى تاريخ الأمة الإسلامية، نرجو مراجعتها ودراستها والاستفادة منها، فما أحوجنا الآن إلى إعادة قراءة التراث وخاصة التاريخ قراءة معاصرة وربطها بمعاجم العصر الحديث اقتصاديًا وسياسيًا ونفسيًا واجتماعيًا وصدقت الحكمة القائلة : (من وعى التاريخ فى صدره أضاف عمرًا إلى عمره)

والتوفيق من الله والعجز من البشر.

والله من وراء القصد

فهرس المحتويات

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس

WWW egyptianbook. org. eg

E - mail : info @egyptianbook org eg

يبدأ هذا الجزء الثانى والأخير من كتاب (الكامل فى التاريخ) لابن الأثير من سنة ثمان وعشرين ومائتين ويستمر إلى نهاية الكتاب وهو سنة

يبدأ هذا الجزء الثانى والأخير من كتاب (الكامل فى التاريخ) لابن

ثمان وعشرين وستمائة. [illegible] السنين يلحظ القارئ فترات تولّى وعزل، وقتل، وانشغال كبير بالحكم، فضلا عن الحروب والدسائس تلك التى كان يكيدها الخلفاء العباسيون وتُكاد لهم مما أطمع فيهم الفرنجة الذين ابتدوا يغيرون عليهم بين الحين والحين حتى كانت فكرة الحروب الصليبية الكبرى التى شنها الغرب على الإسلام، وكذلك هجوم التتار.

وهذا الجزء يبدأ من المجلد السابع إلى المجلد الثانى عشر، وقام المختصر بمحاولة الوقوف على أهم ملامح هذه المراحل، ليخرج للقارئ بزاد وفير يشيع فى نفسه أهمية النظر إلى كتب التاريخ، وكذلك النظر إلى ماسجله واقع هذه المراحل التاريخية حتى إذا أحب القارئ الاستزادة لجأ إلى الكتاب الأصلى لابن الأثير لينهل منه. وربما ينزعج بعض القرّاء عندما يقف وينظر إلى ما مُنى به المسلمون من المحن، وماحاق بهم من المكر، والدسائس. فأقول له: إن هذا التاريخ، تاريخ الأمم والشعوب، يحدث فيه كما يحدث للأشخاص من فترات ضعف وفترات قوة. وأن هذه الفترات التى تشغلك إنما هى نتاج الالتفات عن الحق والإقبال بالكلية على الخلق. فإن الله، سبحانه وتعالى، يسقط جاه الملتفت عنه، ويشينه فيما توهّم أنه يزينه، فيعود مرة أخرى إلى الله بقوة، لأن الحق عز وجل يقبلك وإن تخلفت عنه، مادمت عُدت إليه.

هذا هو التنقّل بين القوة والضعف، والنصر والهزيمة والخير والشّر. (وويلٌ للقاسية قلوبهم). ولعل هذا بعض ما يوقفنا عليه التاريخ من عظات، وعبر ماكنّا لندركها لولا سجلها لنا هؤلاء العلماء.

تصميم الغلاف: عمرو الكفراوى



٧,٥ جنيه

الهيئة المصرية العامة للكتاب